

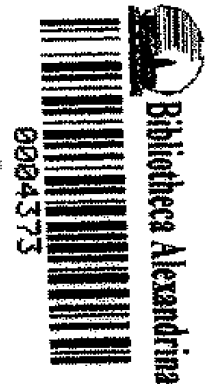
المستشرقون مشكلات الحضارة

دكتورة غفاف صبره

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الدراسات الانسانية - فرع البنات
جامعة الأزهر

١٩٨٥

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر والتوزيع



المُسْتَشْرِقُونَ مشكلات الحضارة

دكتورة عفاف صبره

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الدراسات الإنسانية - فرع اللغات
جامعة الأزهر

١٩٨٥

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

احتلت قضية الاستشراق والمستشرقين ، أهمية خاصة بين قضايا العصر ، تجلت في اهتمام جميع علماء العالم الاسلامي بها ، محاولين تتبع مسارها ، والتحقق من كل مايكتبه المستشرقون في مؤلفاتهم ، وما يقدمونه للفكر الانساني .

ويعتبر الدين الاسلامي والحضارة الاسلامية من اهم الموضوعات التي شغلت اذهان المستشرقين ، والتي بذلوا فيها كثيرا من الجهد والعمل الدائب في سبيل دراستها ، ومناقشتها وتحليلها .

وفد اختلف المستشرقون الذين كتبوا عن الاسلام في اهدافهم ودوافعهم ، ووسائلهم وميولهم ، حتى أصبح من المسلم به ، التفاوت والاختلاف في كل ما ألفوه وكتبوه ، وأصبح لزاما على كل فرد مسلم واع أن يهتم بهذه الكتابات ، وأن يخضعها للبحث والدراسة والتمحيص ، حتى يكشف النقاب عن حقيقة الأغراض التي دفعت هؤلاء المستشرقين الى الكتابة عن الاسلام ، ويرفع الشبهات التي يحاولون بها تشويه الاسلام ودس الدسائس والباطيل عليه .

حقيقة أن الاسلام لا يحتاج الى ايضاح ، ونبي الاسلام لا يحتاج الى دفاع ، مما كانت الحقائق العليا ، والفضائل السامية بحاجة ابدأ الى من يدافع عن وجودها ، ويتحدث عن آثارها ، ويعلن عن فضلها وقدرها ، فذلك من شأنه أن يجور على مقامها ويهون من شأنها بما يوقع في النفوس من انها في خفاء يحتاج الى بيان ، وفي وجه تهمة تحتاج الى دفع ودفاع ، ولكن غايتنا أن نعرف للانسان قدره ، والعقل مكانه ووزنه في انسانية

الإنسان ، وفى إعطائه معنى الإنسانية الأمر الذى يدعو كل ذى عقل أن يحرص على عقله حرمة على الحياة ذاتها .

ونظرا لأهمية هذا الموضوع ، فقد رأيت أن يكون لى شرف المساهمة بنصيب فى الكتابة فيه ، محاولة ، قدر جهدى ، أن أستوضح كثيرا من النقاط ، وإن أرد الشبهات .

وإذا كان هذا الموضوع قد تعرض لدراسات مستفيضة ، ولجهود كثيرة من قبل العلماء الاجلاء الذين بذلوا الطاقات فى سبيل الوقوف فى وجه الحائقين على الاسلام ، عاملين على ايراد الحقائق ، ورد الباطل ، كذلك رأيت أن أسير على الدرب ، حيث ان المستشرقين لم يوقفوا عن كتاباتهم ، ولم تتغير اهدافهم ومصالحهم ، والحملة على الاسلام ، وحضارة الاسلام مكثفة فى أيامنا هذه — التى سادت فيها الحضارات المادية والفلسفات الالحادية — فما احوجنا فى هذه الظروف الصعبة الى مثل هذه الدراسات من أى وقت مضى .

وقد حاولت أن استعرض فى هذا الموضوع نشأة الاستشراق فى الغرب والأسباب التى جعلت النزعة الى الاستشراق تزداد هناك الى الدرجة التى نراها الآن .

وقد اثبتت هذه الدراسة أن الباعث الدينى كان من أهم البواعث التى دفعت الغرب الى الخوض فى مجال الدراسات الشرقية ، محاولين بذلك التنفيس عن عدائهم للإسلام — هذا العداء الذى يرجع الى قرون مضت منذ أن بزغ نور الاسلام على العالم على يد اشرف الرسل محمد صلى الله عليه وسلم .

ظل الصراع بين الشرق والغرب طوال التاريخ الاسلامى صراعا لاهوادة فيه ، فقد ظل السلاح مرفوعا بين الطرفين طوال التاريخ الأموى والعباسى ، بل لحل الدور الذى قادت به بلاد المغرب الاسلامى — سواء فى المغرب أو الأندلس — لا يقل عن غيره بل يزيد .

استمر الصراع بين الطرفين حتى اتخذ صورة حملات سلبية مكثفة قام بها الغرب ضد الشرق ، محاولا تحقيق أهدافه الكبرى وسى القضاء على الاسلام .

واذا كانت الحرب والسلاح هما الوسيلة التي اتخذها الغرب للتعبير عن حقه على الاسلام ، فانهم قد استخدموا سلاحا آخر لا يقل خطورة وهو سلاح الكلمة المكتوبة الموجهة .

لذلك بدا هؤلاء المستشرقون كتاباتهم عن الدين الاسلامي ، وعلومه المختلفة ، وعن نبي الاسلام وحياته محاولين قدر جهدهم ان يشوهوا الصورة السكرية التي رسمها الله سبحانه وتعالى للاسلام ونبي الاسلام .

واذا كنت قد بينت في هذه الدراسة اختلاف أغراض المستشرقين ، فاننا لانسى في هذا المجال ان نضع الحق في نصابه ، وان نذكر ان من هؤلاء فئة محايدة ، جعلت العلم والحقيقة هدفها ، فكتبوا بأمانة علمية مطلقة ، وذكروا الحقيقة مجردة ، فكانوا شاهدا على عظمة الاسلام .

وكان منهجى في الدراسة اعطاء كل ذي حق حقه ، انصاف المنصفين ، والرد على الضالين ، عسى ان يحقق ما نصبو اليه من اهداف في هذه الدراسة .

وقد رايت الا احدد موضوع كتابي بالكلام عن المستشرقين والاسلام ولكن امتكالا للفرص رايت ان ابين كثيرا من المشاكل الحضارية التي اثرت تأثيرا مباشرا على مجتمعنا الاسلامي بثقوى الصور ، سواء في الاخلاق أو الدين والمعتقدات أو العادات والتقاليد ، مما كان لها اسوأ الأثر على الفرد المسلم .

فقد جعلت دراستي للمشكلات الحضارية تقوم على أساس عرض للمشكلة الحضارية ايا كان نوعها عقائدية أم اقتصادية أم اجتماعية ، ثم ابين ماهيتها ونشأتها ، ثم كيف تسربت الى المجتمعات الاسلامية ، وماهى

الإنار السيئة التي تركتيا على المجتمع ، ثم اتعرض لموقف الإسلام من هذه المشكلات حتى نستطيع ان نبين للفرد المسلم الحق من الباطل لنير له الطريق .

واننى اذ اقدم هذا الكتاب الى القارئ المسلم — ادعو الله جل وعلا ان يوفقنا جميعا للعمل على خدمة الاسلام ، وأن ييسر لنا السير فى الطريق المستقيم : وان يكمل أعمالنا بالحق والصواب .

« ربنا لاترغ قلوبنا بعد اذ هديتنا : وهب لنا من لدنك رحمة »

صدق الله العظيم .

المؤلفه

د/ عفاف سيد صبرة

القاهرة / ١٩٧٩ م .

الفصل الأول

التطور التاريخي لنشأة حركة الاستشراق

بداية ظهور حركة الاستشراق في الغرب

يكون المستشرقون الغربيون بالنسبة للشرق الاسلامي مشكلة ثقافية ودينية كبرى ، وهذه حقيقة لا بد من الاعتراف بها اعترافا صريحا كاملا ، ثم مواجهة المشكلة ودراستها دراسة جديدة . ونحدد موقفنا ازاءها تحديدا دقيقا .

فالامر يتصل اتصالا وثيقا بالمحافظة على قيمنا ، وصيانة تراثنا من العبث وسوء التصوير ، وربما كان من الخطأ فيما مضى أن نتجاهل وجود المستشرقين وأن نفرض الطرف عن نشاطهم ومؤلفاتهم ومؤتمراتهم ، ولكن أفكارهم غثها وتمينها ، صحيحها وسقيمها ، قد تسربت فعلا الى أجسواء البلاد الاسلامية ، واحتلت عقول الناس فيها ، واكتسبت منهم انصارا ودعاة وناشرين ، ولهذا لم يبق لنا عذر في الاستمرار في سياسة التغاضي والتجاهل السابقة الذكر ، وأصبح من الواجب المحتوم أن ننهض دون توان أو تردد لدراسة هذه الحركة دراسة علمية ناحصة ، وأن نبين اهدافها حتى نكون على بينة من كل ما يكتب وما يقال عنا وعن بلادنا ، وعن تاريخنا ، فإن كان حقا قبلناه ، وإن كان باطلا رددناه .

والمستشرقون اصطلاح واسع يشمل طوائف متعددة تعمل في ميادين الدراسات الشرقية المختلفة ، فهم يدرسون العلوم والفنون والآداب والديانات والتاريخ وكل ما يخص شعوب الشرق مثل الهند وفارس والصين واليابان والعالم العربي وغيرهم من أمم الشرق .

وبإدء ذى بدء لابد أن نلقى نظرة سريعة على تطور العلاقات بين الشرق والغرب أو بمعنى أصح بين المسيحية والاسلام ، ثم نبين الأسباب التي دعت الغرب الى الاقبال على الحضارة الاسلامية ودراستها ، وبيان نوعية الحضارة التي ازدهرت في بلاد الشرق ، ثم كيفية عبورها الى الغرب الاوربي ، واقبال العالم الغربي عليها ، وانشائه للمدارس والجامعات والمراكز الثقافية المختلفة التي اهتمت بعلوم الشرق .

العلاقات بين الشرق والغرب :

يهمنا في أمر هذه العلاقات العلاقة بين الاسلام والمسيحية : وهو ما يهم بحثنا . فالمعروف أن الاسلام الذي بزغ نوره في شبه الجزيرة العربية على يد ائرف الرسل محمد صلى الله عليه وسلم سادف معارضة قوبة الدين المسيحية التي انتشرت في بلدان الشرق والغرب .

لذلك بدا الصراع بين الديانتين يأخذ طريقه الى الظهور بعد استقرار الدعوة الاسلامية . في الدور المدني . وناسيس الدولة الاسلامية في المدينة المنورة . هذه الدولة التي أمرها الله سبحانه وتعالى بتبشر الدعوة ليس اقليماف فقط بل عالميا . لذلك بدأت تدق أبواب الدول المجاورة سسسلها فأرسلت كتباف تدعوهم الى هذا الدين الجديد .

أرسل الرسول كتب الدعوة الى كسرى فارس . وهرقل امبراطور الدولة البيزنطية والنجاشي في الحبشة والمقوقس عظيم القبط في مصر والحارث الفسائي . ولما لم يؤت هذه الدعوة نمارها اضطر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينفذ أمر ربه وأن يخرج بدعوته عالميا .

لذلك خرجت القوات الاسلامية — بعد انقال الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الاعلى — الى ملاقاتة الدول العظمى فخرجت الجيوش الى الميدانيين الفارسي والرومي فبدأت بالعراق فظلت الدول الفارسية تنساقط حتى انتهى ملك كسرى ، واستولى المسلمون على جميع بلاده وممتلكاته ودانت الأرض لهم .

وفي ميدان الروم سقطت ولايات الشام ، ومصر وشمال افريقيا في حوزة المسلمين : فبذلك تضعضع ملك الروم ، وفقدوا أهم ولايات لهم في الشرق : هذه الولايات التي كانت تعتبر المورد الاقتصادي الهام : حيث كانت تدهم بالفلال والحبوب . خاصة القمح . كما أن بلاد الشام بالذات تمثل أهمية كبرى عندهم لأن بها كنيسة القيامة القائمة في القدس : والتي شيدتها القديسة هيلانة ام الامبراطور قنسطنطين الكبير في القرن الرابع الميلادي : كما كان يوجد بها صليب الصلبوت وهو أهم أثر مسيحي

عندهم في الشرق . وكان المسيحيون يحجون الى القدس ويزورون كنيسة التيامة . فضياع القدس وتسلم المسلمين لها ، جعلت قضية الصراع بين الاسلام والمسيحية قضية سياسية وعقائدية فلذلك بدا الصراع يأخذ اشكالا ، خلفه بن الجانبين . كل منهما يحاول ان يخضع الآخر لنفوذه .

الصراع بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية :

تجاورت الحدود الاسلامية البيزنطية . بعد انتقال مركز الخلافة الاسلامية من المدينة المنورة الى دمشق في عصر الدولة الاموية . فكان لابد من حدوث صدام مستمر بين الجانبين ، فلم تتوقف الحملات التي كان يبعث بها الامويون محاولين اسقاط القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، خاصة في عهد معاوية بن ابي سفيان الذي كثرت في عهده التسويات والصوائف التي اعدّها لحاربة البيزنطيين ، كما كثر الرابطون على الفجور الاسلامية ، وتلا عهد معاوية في الامة عصر سليمان بن عبد الملك الذي شهد المحاولة الكبرى لاسقاط القسطنطينية على يد اخيه مسلمة بن عبد الملك ٧١٧ — ٧١٨ م ، ولكن الفشل حاق بهذه الحملة كما حاق بسابقتها نتيجة سوء الاحوال الجوية وعدم تعود المسلمين على العيش في مثل هذه الظروف الطبيعية ، الى جانب التقدم الحربي البيزنطي واختراعهم للنار الاغريقية التي اتت على سفن المسلمين .

ولم يؤد سقوط الدولة الاموية في دمشق وانتقال العاصمة الاسلامية الى بغداد الى توقف عمليات الصراع بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية فقد حاول البيزنطيون استغلال الظروف السياسية الموجودة في الدولة الاسلامية من سقوط الامويين ، واعتلاء العباسيين الخلافة ، فأخذوا يمدون نفوذهم في آسيا الصغرى وارمينيا ، ولكن العباسيين وجهوا نظرهم تجاه الدولة البيزنطية ، وبعثوا بحملات كان النصر فيها حليف المسلمين وقد تركزت الحملات في عهد الخليفة المهدى الذي وصلت الجيوش في عهده الى حدود القسطنطينية ، وأوقعوا بالجيوش البيزنطية خسائر فادحة قدرها المؤرخون بأربع وخمسين الف قتيل وخمسة آلاف اسير (١) .

(1) Finlay «History of The Byzantine Empire» pp. 140—117.

كما برز انصراف بين الدولتين في عهد هارون الرشيد الذي وصلت حملته الى آسيا الصغرى . واستولت على كثير من الثغور البرية على الحدود بين الدولتين . وكذلك في عهد المأمون الذي واغته منيته وهو متوجه على رأس حملة الى طرسوس (٢) . وفي عهد المعتمد خرجت حملة كبرى لتأديب البيزنطيين ، وتوجه في اعماق آسيا الصغرى فاستولى على انقرة ، وهرقل (٣) ، مما اضطر الامبراطور البيزنطي ثيوفيلس ٨٢٩ — ٨٤٢ م الى الاستنجاد بملوك اوربا فاستغاث بدوج البندقة وملك الافرنج وبلامويين في الاندلس وحقق المعتمد على البيزنطيين نصرا عظيما في عمورية .

ولم تنتطع المناوشات بين المسلمين والبيزنطيين بعد المعتمد ، بل استمرت الغارات من الجانبين ، واستمر ضغط المسلمين على حدود الدولة البيزنطية متمثلا في غزوات دورية . وكانت هذه الغزوات عاملا على العناية بالثغور والأربطة حيث كان يربط المجاهدون في سبيل الله استعدادا للغزو ولدافعة الأعداء (٤) .

ثم حدثت جولة ثانية في الصراع مع الدولة البيزنطية في عهد بني حمدان أمراء حلب ، وذلك منذ منتصف القرن العاشر الميلادي .

وبدا الخطر الحقيقي يقيق بالدولة البيزنطية على يد السلاجقة الذين أخذ فرع منهم يتوغل في آسيا الصغرى ويستوطن بها ومن ثم سسموا بسلاجقة الروم ، وكان من جراء هذا الخطر أن استنجد البيزنطيون بالصليبيين وكان ذلك من اسباب الحروب الصليبية .

ثم ظهر الاتراك العثمانيون على مسرح التاريخ فغتصوا على السلاجقة، واستولوا على القسطنطينية نفسها سنة ١٤٥٣ م ، وبذلك قضى نهائيا على الدولة البيزنطية .

(٢) ابن الاثير « الكامل » ج ٦ ص ٧٦ .

(٣) ابن الاثير « الكامل في التاريخ » ج ٦ ص ١٥٤ .

(٤) حسن الباشا « دراسات في تاريخ الدولة العباسية » ص ٩٥ .

الحروب الصليبية :

تعتبر الحروب الصليبية حلقة جديدة فى سلسلة حلقات الصراع العقائدى بين الاسلام والمسيحية .

والحروب الصليبية هى تلك الحملات التى قام بها الغرب المسيحى الى الشرق الاسلامى مستقرا بقناع الدين لاسترجاع الاراضى المقدسة وكنيسة القيامة ، راعيا فى الحصول على خيرات الشرق والتحكم فيه ، بل هو محاولة مبكرة للترعة الاستعمارية .

ويحدد المؤرخون الفترة من ١٠٩٥ — ١٢٩١ م تاريخا للحملات الصليبية ولكن الواقع كما ذكرنا ان الصراع الاسلامى المسيحى كان اقدم من ذلك بكثير . فما ذكرناه من الصراع مع البيزنطيين ومحاولتهم هدم الاسلام فى الشرق ما هو الا حروب صليبية ، وما قام به الفرنجة فى الغرب ضد مسلمى الاندلس خاصة شارل مارتل وشارلمان ، وما صورته انشودة رولان من صراع اسلامى مسيحى ووصف المسلمين بأنهم كفرة ، وسوء تصسيير الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم . كل ذلك يبين على أن هذه الحروب كانت ذات طابع صليبي ، الى جانب ما قام به بابوات الغرب وحكامه فى القرنين التاسع والعاشر لصد الغارات الاسلامية على شسواطىء أوروبا (٥) .

والجزم فى أمر الجوود التى بذلها المسيحيون فى حرب المسلمين هو انها اتسمت بالطابع الدينى ، فدعا اليها رجال الدين ، وتعهدها البابوات برعايتهم مما جعل فكرة الحروب الصليبية تنشا فى أول أمرها مرتبطة ببدا محاربة المسلمين ودفع خطرهم أينما كانوا (١) .

لذلك فان العلاقة الحربية بين الاسلام والمسيحية طوال هذه الفترة وسعت فجوة العداء بين المسلمين والمسيحيين ، وجعلتهم يعملون ما فى

(5) Runciman. A, history of the Crusade. Vol I P. 88.

(٦) سعيد عاشور « أوروبا العصور الوسطى » ج ١ ص ٤٢٦ .

في وسعهم لنشر الفكر المسيحي وتشويه سمعة الاسلام والمسلمين في جميع
، مؤلفاتهم : خاصة الكتابات التاريخية .

والدليل على ذلك ان جميع مؤلفات هذه الفترة تصف المسلمين بانهم
« الكفرة » « والبراسنة » وكانت تلصق بهم ابلشع التهم واسوأ الفعال ،
وكتب الحروب الصليبية كثيرة ومملوءة بهذه المعاني ، وهي تعبر عن حقد
دغين بين الطرفين .

هذه هي طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب في فترة الحروب
الصليبية ، فهل من المعقول ان ننتظر ان تكون كتابات المستشرقين في هذه
الفترة في صالح الاسلام ؟؟ فالحقيقة التي لا مفر منها ان هؤلاء الغربيين
بدأوا ينفسون عن حقدهم في كل ما يكتبونه من مؤلفات .

وبدا حكام الغرب بعد هزيمتهم في الشرق يتلقفون أية ذكرة تستخدم
اغراضهم للنيل من الشرق وزعزعة ، وقد ألفوا في عمل المستشرقين فرصة
ذهبية لتحقيق ما غائهم وضاع منهم في بلاد الشرق ، فأخذ الملوك يرعون
نشاط المستشرقين ويمهدون أمامهم طريق دراسة الشرق والإحاطة بتراته
العلمي على اختلاف أنواعه (٧) .

وقد ذكر الكونت فيليب دي طرازي في الجزء الثاني من خرائته « ان
في مكتبة السير بلبشان مخطوطة من كتاب « وفيات الاعيان » لابن خلكان على
هامشها حاشية بقلم أبي النصر الخازن قنصل فرنسا في بيروت في منتصف
القرن السابع عشر خلاصتها انه في سنة ١٦٧١ م أرسل عالي الجنسساب
الملك لويس الرابع عشر رسله الى جميع بلدان الاسلام لشراء المخطوطات
الاسلامية « لا معنى له سوى الدراسة المفرضة ، وطعن الاسلام طعنة نافذة
عن طريق عرضه في صورة مشوهة (٨) .

الاستعمار الحديث :

تعاثبت على الدولة الاسلامية حكومات متعددة ، وظروف مختلفة
ادت الى تخلف هذه الدولة ، والى جمودها واعادتها الى الورا هذا في

(٧) محمد الدسوقي « الاسلام والمستشرقون » ص ٢٣ .

(٨) منير البعلبكي « دفاع عن الاسلام » ص ٤٥ .

الوقت الذى استطاعت فيه أوربا أن تنفض عن كاهلها جهالة العصور الوسطى ، وعصر سيطرة الكنيسة الكاثوليكية والبابوية على عقلية الناس ، وبدأت تغتفر من الحضارة الإسلامية ، وتعمق وتؤلف وتزيد وينتكر حتى وصلت الى مرحلة النهضة الأوروبية العظمى التى شهدتها فى القسرين الخامس عشر .

وبعد أن وصلت أوربا الى هذه المرحلة من النضج والاكتمال فى شتى المجالات بدأت النظر الى العالم الإسلامى الذى أصابته هذه النكسة السياسية والحضارية ، لتنفس عن حقدما القديم ، ولتعيد مرة أخرى سلسلة من مراحل الصراع بين الشرق والغرب بعد أن شعرت أن الظروف فى صالحها .

وقد بدأت المنافسة بين كل من إنجلترا وفرنسا وما وافى القرن التاسع عشر حتى اتسعت رقعة الامبراطورية البريطانية وبلغت حدا لم يعرف لغيرها فى التاريخ ، وفيه أخذت كل من ألمانيا وإيطاليا بنصيب فى الاستعمار ولم انهما دخلتا هذا الميدان متأخرتين بالنسبة لظروفيهما الخاصة .

وقد اختلطت الاهداف الكبرى من وراء تشجيع رجال الدين للسياسة الاجانب لاحتلال بلاد الشرق التى تحوى المقدسات الدينية ، معوضين الخسائر التى منى بها الغرب مرارا وتكرارا فى اعتدائه على الشرق خاصة فى فترة الحروب الصليبية . لذلك وحدث اهداف أخرى لاستعمار الغرب للشرق أهمها ايجاد أقاليم جديدة تصلح لسكنى عدد وغير من السسكان الزائدين عن حاجة البلاد الأصلية ، ثم فتح أسواق جديدة متعددة لتصريف البضائع المتراكمة الناشئة عن التقدم الصناعى فى هذا العصر ، وكذلك اعداد مراكز لاستخراج المواد الأولية التى تحتاج اليها البلاد الصناعة ثم الرغبة فى الاستلاء على جهات معينة بقصد تأمين طرق المواصلات كاحتلال إنجلترا لمصر . هذا الى أن كثرة الاستكشافات فى أفريقيا وآسيا وأستراليا فى هذا العصر نهبت دول أوربا الى هذه الجهات المجهولة واستغزت أطماعها لوضع يدها عليها ولا سيما أن فكرة تكوين امبراطوريات واسعة كانت قد تملكعت عقول معظم كبار السياسيين فى القرن الماضى (٩) .

(٩) محمد عبد الرحيم مصطفى « تاريخ مصر الحديث » ص ٢٠٩

وقد انتهر الاستثمار الأوربي غرسة تواجده بين ظهرائي الشعب الإسلامي وبدأ يعمل على نشر حضارته العلمية والعملية في بلدان الإسلام، مما جذب أهل هذه البلاد وجعلهم يتهاوتون على هذه الحضارة متغافلين عما تحمله في طياتها من سموم .

وأكثر الغربيون من انشاء المدارس التبشيرية والمكتبات واصدار الدوريات التي تعبر عن آرائهم وتذيع افكارهم ، وكانوا يراعون فيهمسا جمال الاخراج وجودة الطباعة لتجذب الأنظار وتستوعب الانتباه ، وقد أصبح لهذه الدوريات مكانتها الملحوظة ، واثرا بارزا في عالم التربية والثقافة، ولم يقتصر نشاطهم على اصدار الدوريات ، بل قاموا بكتابة الأبحاث العديدة في كل ما يتصل بالشرق ، وبذلوا في هذه الأبحاث الجهد والمال والوقت وكل همهم صرف انظار المسلمين عن تراثهم والاتجاه نحو هذه الدراسات والاعتماد عليها في معرفة تاريخ المسلمين وعقائدهم حتى تنسلخ بمضي الزمن تاريخيا وعقائديا وتصبح غداً روحاً وفكراً (١٠) .

هذه هي طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب ، العلاقات التي كان الدين دائما ، في العصور الوسطى ، هو محركها ، ولكن بعد أن اصطبح الشرق والغرب بصبغة المدينة الحديثة بداوا يبعدون عن هذا الهدف وبدأ يميز العلاقات بينهما فيما بعد علاقات من نوع جديد فيها مصالح مشتركة للطرفين .

- والمعروف أن الغرب الذي كان يسيطر عليه في العصور الوسطى افكار الكنيسة فقط ورجال الدين ولم يميز ثقافتهم غير هذا الفكر اللاهوتي ، بدأ يحثك بالشرق عبر سبل ومعايير معينة نقلت حضارة الشرق إلى الغرب، مما أدى إلى اهتمام الغرب بدراسة علوم الشرق وآدابه وفنونه وساعد على نشأة حركة الاستشراق .

لذلك نرى أن معايير الحضارة هذه هي السبب الأول في ظهور حركة الاستشراق وهذه المعايير هي الاندلس ، صقلية ، بلاد الشام وقت الحروب الصليبية .

(١٠) محمد الدسوقي « الإسلام والمستشرقون » ص ٣٤ .

١ — بلاد الاندلس :

بلاد الاندلس أهم معبر للحضارة الإسلامية الى الغرب ، فبعد أن تم للعرب فتحها سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م ظلوا قائمين فيها وأصحاب سيادة عليها حتى تم سقوط دولة بنى الأحمر العربية الخزرجية في غرناطة ٨٩٧ هـ ١٤٩٢ م أي بعد نحو ثمانية قرون .

وقد راقبت للعرب الإقامة بالاندلس وظفوا انفسهم خالدين فيها . فغنموا في اتقان دورهم وتنسيق حدائقهم ، وشيد الامراء والخلفاء مؤسسات المساجد والقصور والابرار والحمائم والحدائق ، وادخلوا الى الاندلس الأساليب الزراعية التي عرفوها في الشرق ، وجاعوها بأشجار وأغراس ازاهير من دمشق ومصر وأفريقيا والهند وعنوا بالصناعات على اختلاف انواعها . حتى اذا تم لهم بناء الاندلس السياسي والاقتصادي والاجتماعي سعوا الى التشبه بالعباسيين في ارساء ملكهم على أسس من الفنون والآداب والعلوم ، فأسسوا المدارس وحسبوا الأموال عليها وخرجوا في طلب الكتب الى الشرق وملأوا مكتباتهم الخاصة منها ، ما خلا خزائن بعض المساجد (١١) .

ووقد على قرطبة ثم على غيرها من حواضر الاندلس اهل الفن والآداب والعلم من الشرق والغرب وعنوا بتفاصيلها تفسيراً واقتباساً وتصنيفاً ، واختلفوا الى مجامع كمجامع اليوم للجدل والمناظرة .

يقول البارو القرطبي في كتابه الدليل المنير : « وأقبل اهل مالقة على مصنفات المسلمين في الآداب والفقه والفلسفة تتقيفاً بتقافتها لا للرد عليها ، وبذلوا أموالاً طائلة في تأسيس مكتباتها ، وينطبق قوله على المستعربين في الاندلس شاطبة ، الذين جروا على عادات المسلمين في نظام الحريم وختن الاولاد واتقان العربية واستعمال حروفها لكتابة اللاتينية . ثم على الخاصة النصاري وقد آثروا أسماء العرب ولغتهم وثقافتهم ، وفي طليعة هؤلاء رجال الدين فاختلجوا الى مدارس المسلمين ومجامعهم ومكتباتهم ، ثم تبعوا في أديارهم ينقحون ذلك التراث ويترجمونه ، ويفسرونه ويعتقون فيه ويقيمونه بين الرهبان وطلاب العلم ، فينتشر انتشاراً سريعاً بفضل

(١١) نجيب العتيقي « المستشرقون » ج ١ ص ٨٨ .
(م ٢ — الاستشراق)

مدارسهم في اديار اريبول حيث تعلم الاب جريز وترجم الى اللاتينية من مخطوطات مكتبتها المصنفات الرياضية والفلكية كالزيج المنصوري — وسان كوجات ، وسان ميلان وثيلانوا ، وسائر مدارس المستعربين في قرطبة (١٢) .

ومنذ القرن العاشر حملت الكاندرانيات العبء الاكبر عن الاديار فذاقت شهرة مدارس : اوبيدو ، وليون ، وبك ، وخيرون ، وبرشلونة ، وسانتياجو دي كويوستيلا ، وقامت مثيلات لها في باريس وشارتر وأورليان وتور ولان وريمس وفي كبرى مدن ايطاليا وانجلترا وبلجيكا وغيرها ، ثم انشأ الرهبان الفرنسيون دير سكا ١٢٢١ م وعلم العربية فيه الاب روبرك ومدرسة ميرامار ١٢٧٦ م فأشرف عليها رايموند ولوليو خلال عشر سنوات وتعلم فيها العربية احد عشر راهبا . وقد عاون لوليو رايموند ومارتيني الدومينيكي واستأنف نشاطه دي ليرا الفرنسيون في القرن الرابع عشر وقرر مجمع طليطلة سنة ١٢٥٠ م الاتفاق على ثمانية من الرهبان الدومينيكيين على رأسهم رايموند ومارتيني خلا نفر من زملائهم أرسلوا الى باريس لتعلم اليونانية والعربية والعبرية فيها سنة ١٢٥٥ م ثم كفهم مجمع بلنسية ١٢٥٩ م تأسيس مدرسة للعربية والعبرية في قطالونيا سنة ١٢٦١ م وقد صنف اقدمهم غلبوم الطرابلسي كتابا عن الاسلام .

وانتشرت مدارس الرهبان العربية في اشبيلية سنة ١٢٥٠ م وميورقة سنة ١٢٥٥ وبرشلونة سنة ١٢٥٩ وبلنسية سنة ١٢٨١ م ، وجاتيكا سنة ١٢٩١ . وقد تطور بعض مدارس الكاندرانيات الى جامعات ونالت على غرارها حقاها المعولم في مساعدة البوابات والملوك .

وقد ظلت طليطلة طوال قرنين ملتقى طلاب العلم من انجلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا يفدون عليها وينهلون من الثقافة العربية فيها ثم يرجعون الى بلدانهم فيذيعونها بين أهلها (١٣) .

لم ينف رجال الدين والمثقفون عند الترجمة من العربية ، بل نقلوا

(١٢) نجيب المتقي « المستشرقون » ج ١ ص ٩٨ .

(١٣) المرجع السابق .

انها وكتبوا وصنفوا فيها . كما ترجمت عن العربية بعض مؤلفات اليونانيين مثل كتب جالينوس وبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وغيرهم . وقد وجد من حكام اسبانيا المسيحيين من تدروا الثقافة العربية الاسلامية ومن هؤلاء الفونس الخامس ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ — ١٢٨٤ م) الملقب بالحكيم (١٤) فقد قام بإنشاء معهد للدراسات العليا في مرسية ، واختار له اعلام المسلمين والنصارى واليهود ثم نقله الى اشبيلية والحق به مجمعا علميا لمزج الحضارتين الاسلامية والمسيحية في حضارة اسبانية موحدة ، كما حافظ على طابع طليطلة في مركزها الثقافي العالي ، وجمع حوله العلماء وعهد اليهم بالترجمة بالتصنيف وكان يشرف بنفسه على التوجيه والتحرير والتلخيص ، فترجم الى الاسبانية الانجيل والقرآن والتلمود والقبالة وسر الأسرار المنحول لأرسطو ثم كتاب كلية ودمنة .

وعبرت الثقافة العربية بفضل الرهبان ولا سيما الملتحقين بدير كلوني واللاجئين الى فرنسا — جبال البرانس والألب الى فرنسا وإيطاليا وإنجلترا وألمانيا ثم استقرت في أشهر مراكزها .

٢ — صقلية وجنوب إيطاليا :

دخلت صقلية تحت حكم المسلمين بعد أن تمكن الأغلبية من الاستيلاء عليها سنة ٢٦١ هـ .

وقد تتابع الحكم الاسلامي على صقلية واستقرت الأوضاع فيها في القرن التاسع الميلادي ، لذلك بدأت هذه الجزيرة تحتل دورا هاما في الحضارة الاسلامية ، وأصبحت من أهم المراكز الحضارية الى اوروبا .

ولعل موقع صقلية جنوب إيطاليا قد جعلها قبلة للايطاليين ، ومركزا للدراسات اللاتينية واليونانية القديمة ، فكانت مكتباتها تحتوى على عدد ضخم من الكتب والمخطوطات القديمة . الى جانب انتشار الاسلام والاستقرار الاجتماعي والاقتصادي واطراد العلاقات بين مدارس صقلية و مدارس العالم الاسلامي الأخرى ، ثم التلاحم بين التقاليد العربية والتقاليد

(١٤) سعيد عاشور « النهضة الأوربية » ص ٢٢٩ .

الأغريقية الجديدة التى ازدهرت فى عهد البيزنطيين وكانت لا تزال قوية
بشرق صقلية .

وكانت لصقلية صلات علمية وثيقة بالقيروان والاندلس والقاهرة ، ثم
استقلت المدرسة الصقلية ، وكانت بلرم هى الحاضرة الثقافية أكثر البسلاط
امتلاء بالمساجد والمدارس ، وقد كثر المعلمون حتى كان منهم فى بلرم ما
لا يقل عن ثلاثمائة .

وقد ظلت صقلية قلعة للحضارة الإسلامية طوال العصر الإسلامى ،
وظل الحال كذلك بعد سقوطها فى يد النورمان سنة ١١٤٤ هـ .

عندما أدخل النورمان صقلية وجدوها قلعة ثقافية وحضارية متقدمة
فى جميع المجالات الزراعية والصناعية والتجارية ، لذلك فقد كان ملوك
النورمان على درجة كبيرة من الوعى ، فلم يسيئوا الى هذه الحضارة ، ولم
يقتنوا أمام تطورها بل أصبحوا هم عاملاً مساعداً على الاهتمام بالعلماء
والأدباء ورجال الفكر ، وجعلوا من قصور إمارتهم كعبة يقصدها كل طالب
علم .

وقد برز من ملوك النورمان ، الذين يعتبرون أول ملوك علمانيين فى
أوروبا ، شجعوا على حركة الاستشراف بعيداً عن العامل الدينى ، وكانت
تحدوهم الرغبة العلمية الحقيقية والحب لكل ما هو شرقى برز منهم
روجر الأول (١٠٦١ — ١١٠١ م) الذى شمل العرب بعنايته ، وأحسن المحافظة
عليهم وحمائتهم ، بل كتب مراسيمه بالعربية الى جانب اللاتينية واليونانية ،
كما أن بعض نقوده اشتمل على رمز الإسلام والبعض الآخر على شمس
المسيحية (١٥) .

وبرز كذلك روجر الثانى ، الذى لقب بملك الصقليتين ١١٢٠ — ١١٥٤ م
الذى ارتدى ملابس شيوخ المسلمين وكتب على حلة التتويج عبارة بالخط
الكوفى والتاريخ الهجرى (٥٢٨ هـ / ١١٣٤ م) وشيد المباني على الطراز

(١٥) سعيد عاشور « النهضة الأوربية » ص ٣٢٦ .

العربي : وعاون على تأسيس مدرسة الطب في سالونو ، وترك للمغرب واليهود حريتهم الدينية والثقافية (١٦) .

أما أشهر شخصية في التاريخ الصقلي فهي شخصية الامبراطور فردريك الثاني الذي اشتهر اسمه في التاريخ كقائد للحملة الصليبية السادسة التي توجهت الى بلاد الشام .

كان فردريك الثاني مولعا بالثقافة الشرقية لأنه تربى في كنفها ، واماؤ المؤرخون في وصفهم لحب فردريك للمسلمين واعجابه بحضارتهم وعلومهم وتقريبه لهم واستخدامهم في حاشيته حتى ان المؤذنين المسلمين كانوا يؤذنون للصلاة لكل فرض في معسكره (١٧) .

كذلك ذكر المقرئ أن فردريك كان « عالما متبحرا في علم الهندسة والحساب والرياضيات » (١٨) . والمعروف تاريخيا ان هناك صداقة قوية قامت بين سلطان مصر الايوبي الملك الكامل ، وبين الامبراطور فردريك لشدة توافق طباعهما ، مما دفع بعض الكتاب الى اتهام فردريك الثاني بمخالسة الاسلام على حساب المسيحية (١٩) . لذلك فان رعاية ملوك النورمان للحضارة الاسلامية وللعلوم الاسلامية ادى الى زيادة الاهتمام بالاستشراق وعلوم الشرق واصبحت صقلية بذلك اهم مراكز الاستشراق في الغرب الأوربي .

٣ — بلاد الشام زمن الحروب الصليبية :

تأتي بلاد الشام زمن الحروب الصليبية في الاهمية الثالثة بعد الاندلس وصقلية كمعبر من معابر الحضارة الاسلامية الى الغرب ، وكمؤثر في نشأة حركة الاستشراق في أوروبا .

ولابد لنا من توضيح وجهة نظرنا هذه في ضوء الحقائق التاريخية .

-
- (١٦) نجيب العقيتي « المستشرقون » ج ١ ص ١٠٨ .
(١٧) سعيد عاشور « الحركة الصليبية » ج ٢ ص ٩٩٦ .
(١٨) المقرئ « السلوك » ج ١ ص ٢٣٢ .
(١٩) سعيد عاشور « الحركة الصليبية » ج ٢ ص ٩٩٦ .

فالمعروف أن العلاقة بين الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية كانت عدائية مطلقة ، فالغرب يخطط عسكريا لغزو الشرق والاستيلاء على المناطق المقدسة ، وأحرار انتصارات عسكرية ، وكسب أراضي جديدة ومستعمرات ، لذلك فقد نقل إلى الشرق جميع الدبلوماسية العسكرية الغربية وفنون القتال المختلفة ، وما شاع في الغرب من بناء الحصون والقلاع والابراج ، وبدأ يأخذ من الشرق فنون الاستحكامات والخطط الحربية ، وبناء المسلسل والمخاضات .

وليس معنى كلامنا هذا أن التبادل الثقافي بين الطرفين انعدم في فترة الحروب الصليبية ، ولكن المعروف أن هذه الحروب كان يتخللها فترات هدن طويلة فخلال هذه الفترات كان الطرفان يعيشون في سلام مع بعضهم البعض إلى درجة أن بعض الفرسان الصليبيين قامت بينهم وبين الفرسان المسلمين علاقات مودة وصداقة مثلما حدث مع الأمير أسامة بن منقذ من قلعة شيزر وبين فرسان الصليبيين ، وقد دون أسامة بن منقذ في كتابه « الاعتبار » وصفا مفصلا لأخلاق الصليبيين وعاداتهم ووصفهم « بأنهم بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير » (٢٠) .

وقد أخذ الصليبيون عن أهل الشرق نظما زراعية كثيرة متقدمة فنقلوا إلى أوطانهم نباتات وحاصلات وأشجارا جديدة لم يعرفوها من قبل كالسمسم والخروب والذرة والأرز والليمون والتوم (٢١) . وفي مجال الصناعة نقلوا صناعة الزجاج عن أهل صور حتى أن الإنتاج الصناعي الأوربي ظهر بعد ذلك وعليه المؤثرات والتعبيرات الإسلامية (٢٢) ، وقد تعلم الغرب من الشرق طريقة الرسم بالحفر مما كان له أكبر الأثر في التطور العظيم الذي حدث في عصر النهضة الأوربية كما تعلموا كثيرا من صناعة المنسوجات مثل صناعة الحرير والسكتان الذي اشتهرت به بلاد الشام (٢٢) .

(٢٠) أسامة بن منقذ « الاعتبار » ص ١٣٢ .

(٢١) باركر « الحروب الصليبية » ص ١١٧ .

فيليب حتى « تاريخ العرب » ص ٢٠٤ .

(٢٢) كريستي « تراث الإسلام » ص ٤٧ .

(٢٣) جورج يعقوب « أثر الشرق في الغرب » ص ٦٢ .

واخذ الغرب عن الشرق صناعة السكر من القصب ، وصناعة الجلود
والسروج وصناعة البسط والأثاث والصناعات المعدنية الراقية ، وصناعة
الورق وتجليد الكتب والتصوير الاسلامي (٢٤) .

ومن الملاحظ ان الصليبيين قد تزواوا بآريز المسلمين من عمامه وقفطان
وشادوا بيوتهم على غرارهم ، واكلوا التوابل والسكر مثلهم ، واتخذوا
البواشق والخيول وكلاب الصيد لقتلهم ، ونقلوا عنهم اصطناع النشابة
المصلية وتقلدوا الدروع والجببة العسكرية تموشارات الفرسان والاوزمة ،
والطنبور في الموسيقى العسكرية ، والحمام الزاجل لنقل اخبارهم واشغال
النار احتفالا بالظفر ، وحفلات السيف ورعى الجريد ، واضافوا في المعمار
الطرار الشامى البيزنطى الى النمط القوطى ، اى الشرقى المحور في بناء
اديبارهم وكنائسهم وقصورهم وفنادقهم وحماماتهم واثشعوا بالرياش
الشرقى (٢٥) .

اما عن المجال الثقافى فتد تعلم الصليبيون عن المسلمين اللغة العربية،
واستعملوها لغة للتخاطب اليومي ، وحملوا معهم الى الغرب الكتب الملكى
في الطب لعلى بن عباس الذى نقله اسطفان الانطاكى وهو من بيزا سنة
١١٢٧م وترجمته اصدق من ترجمة فينسطنطين الافريقى ، واضاف اليه كشفا
يونانيا عربيا لاتينيا للمصطلحات التى استعملها ديوسقوريدس ، البندقيـة
١٤٩٢ وليون سنة ١٥٢٣ م) وقصة كأس العشاء السرى ، وكليلة ودمنة،
وثائر شوسر بالف ليلة وليلة ويوكاتشيـو بالخطابات الشرقية في كتابه
ديكارون وعثر فيليب الطرابلسى في انطاكية سنة ١٢٤٧ م على مخطوط
سر الاسرار بالعربية المنسوب خطأ الى ارسطو فترجمه الى اللاتينية فأضحى
اكثر المتقولات تداولاً في العصر الوسيط (٢٦) .

وثمة نقطة هامة تفيدنا في الدور الذى قامت به البابوية في الغرب
لنشر المسيحية بالطرق التبشيرية المختلفة ، بعد ان اميتها الوسائل الحربية

(٢٤) فيليب جتى « تاريخ العرب » ص ٢٠٤ .

(٢٥) نجيب المقيتى « المستشرقون » ج ١ ص ١٢٧ .

(٢٦) المرجع السابق ص ١٣٩ .

فى هذا السبيل . لذلك فقد كان من نتائج الحروب الصليبية أن قامت البابوية بإرسال البعثات التبشيرية لنشر مبادئ المسيحية بين المسلمين وتنفيذ سياستها عن طريق الاقتناع بعد أن رأت الجهود والتضحيات التى بذلتها فى الحروب الصليبية . وكيف أنها ضحت بالأموال دون أن تحصل على نتيجة واضحة . وكان أن بدأت جهود المبشرين للتبشير بالمسيحية بين المسلمين فوصل القديس فرانسيس الى مصر سنة ١٢١٩ م . وقدم مواظبه الدينية فى حضرة السلطان الكامل ، ثم استمر أتباع ذلك القديس — فضلا عن أتباع القديس دمنيك — يواصلون جهودهم فى النصف الأول من القرن الثالث عشر مؤملين أن ينجحوا فى نشر المسيحية بين المسلمين عن طريق الاقتناع . واتخذت هذه الحركة التبشيرية اتجاها جديدا عندما فكر لويس التاسع ملك فرنسا فى نشر المسيحية بين المغول جميعا . كذلك أشار لويس التاسع على البابا انوسنت الرابع بإنشاء جمعية التبشير الاولى سنة ١٢٥٣ م وهى الجمعية التى ضمت عددا كبيرا من المبشرين الفرنسيسكان والدومينكان . على أن أعظم شخصية فى هذه الحركة التبشيرية فى القرن الثالث عشر كانت شخصية أريموند لسول Raymond Lul وهو أسبائى كرس حياته لمهمة التبشير بالمسيحية بين المسلمين بالذات . فاقنع ملك ميورقة بإنشاء كلية الثالوث المقدس فى سنة ١٢٧٦ م وهناك أخذ يعد مجموعة من المبشرين للقيام بمهمتهم ، وأهم وسائل هذا الإعداد كانت تعليمهم اللغة العربية . وبعد أن قضى ريموند عشر سنوات فى إعداد أعوانه أوغدهم الى شمال أفريقيا فضلا عن بلاد المغول والأرمن للتبشير بالمسيحية الكاثوليكية . ويفضل جهوده قرر مجمع فينسا سنة ١٣١١ م إنشاء ستة معاهد لتدريس اللغات الشرقية فى أوربا ، وذلك لأنه لا يمكن للمبشر أن ينجح نجاحا مضمونا الا اذا عرف لغة القوم الذين يبشر برسالته بينهم .

ومهما يكن من أمر ، فإن اتساع حركة التبشير بالمسيحية بين الشعوب غير الأوروبية جاءت من نتائج الحروب الصليبية ، واذا كانت هذه الحركة لم تحرز نجاحا بين المسلمين وغيرهم من الشعوب فى منطقة الشرق الأدنى

فانها استمرت حتى احرزت بعض النجاح فيما بعد في شرق آسيا وبخاصة .
بين البوذيين (٢٧) .

واذا كانت هذه المعابر الحضارية قد اسهمت في ازدياد معرفة الغرب
بالشرق . واهتمامه بثقافته ولغاته فان هناك جهات أخرى بدأت تهتم بالشرق
وعلمه وديانته محاولة أن تدرس كل ما يخص هذه المنطقة من العالم ، وتؤلف
المؤلفات التي تهدم هذا العالم وتدمره ، وأن تسمى جاهدة للنيل من الدين
الحنيف الذي ذاع وانتشر ألا وهي البابوية التي تعتبر السلطة الدينية
المسيحية الكاثوليكية في الغرب . ومقرها في الفاتيكان بإيطاليا .

(١) البابوية :

حاولت البابوية أن تتخذ من التبشير بالديانة المسيحية غاية قصوى لها
وأن تعكف على دراسة علوم الشرق وديانته وفنونه وآدابه لتحاربهم
بسلحهم . فبدأ البابوات والرهبان والاساقفة في الاهتمام بالاستشراق ،
فنظموه واتصلوا بالملوك والأمراء ليساندوهم في حركتهم هذه .

بدأ رجال الدين حركة الاستشراق بدراسة اللغة العربية ثم اليونانية
لتخريج أهل جدل يثارعون الفقهاء والمسلمين واليهود ويردون عليهم .
ببراهين من كتبهم أنفسهم في البلاد التي اجلاهم الاسلام عنها ويلسغ اوروبا
منها فقصده الفرنسيكانيون المغرب ١٢٢٠ م ، وانطلق الدومنيكانيون بسنة
١٢٥٢ م الى بلغاريا ورومانيا والشرق (٢٨) .

فبذلك أصبحت العربية أهم وسيلة في عملية الاستشراق ، فبدأوا
بعلمونها في مدارس اسبانيا وأديرتها وكاتدرائياتها وجامعاتها ، واستسوا
مدارس للغات الشرقية في عواصم بلدانهم وخصصوا كراسي مستقلة في
كبرى الجامعات لهذا التخصص ، حتى أننا نرى البابا سلفستر الثاني
(ت ١٠٣٣) الفرنسي كان قد حصل على ثقافته العليا في اسبانيا على
أيدى العلماء المسلمين قصد أمر بإنشاء ثلاث مدارس لتعليم اللغة العربية

(٢٧) سعيد عاشور « الحركة الصليبية » ج ٢ ص ١٢٧٨ .

(٢٨) نجيب المقيي « المستشرقون » ج ١ ص ١١٤ .

في روما وريمس وشارتر ، ولحماس هذا البابا وأهميته في تنشيط حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية وفي تنظيم وسائلها جعل بعض مؤرخي الغرب عهده بداية لحركة الترجمة في أوروبا .

توسعت البابوية في انشاء الكراسي والمدارس والمكتبات والمطابع والجلال في ايطاليا وعاون على مثلها في الغرب والشرق وعلى ترجمة التراث الانساني عن العربية ثم عن اليونانية واللغات الشرقية والاستعانة بمن يجيدها من النصارى والمسلمين واليهود على نقله نقلا حرفيا ، ثم يعمد رجال دين الى صياغته في اسلوب لاتيني مبين . ولم يكتفوا بتلك المنقولات فانشأ دون رايموندو الاول رئيس اساقفة طليطلة مكتب المترجمين في طليطلة ١١٣٠ م واشرف ميخائيل سكوت على مكتب الترجمة الذي انشأه فردريك الثاني في صقلية (١٢٢٠ - ١٢٣٦ م) وانقادوا من مكتب الفونسو الحكيم (١٢٥٢ - ١٢٨٤ م) والمصنفات التي امر الملوك والأمراء بنقلها او نهض العلماء بها ونشروا جميع ذلك في مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم ومنها انتقلت الى مثيلاتها في أوربا (٢٩) .

وبدأت ترجمة كتب العرب في الفلسفة والطب والكيمياء والصيدلة والعلوم الدينية والرياضيات والجغرافيا والتاريخ والفلك والموسيقى وغيرها من العلوم الشرقية المزدهرة ، ثم بدأوا في انشاء المطابع التابعة للرهبان . من اهم الرهبان الذين ساهموا في حركات الترجمة لمعت أسماء كان لها اهمية كبرى في نشأة الاستشراق في الغرب وفي الترجمة عن العربية ونقل تراث الشرق الى الغرب نخص منهم :

١ - جرير دي أوليك : ٩٣٨ - ١٠٠٣ م (٣٠)

راهب دومينيكي فرنسي ، قصد الأندلس فيمن تصدها طلبا للمسلم ، فأخذ من علمائها في مدارس اشبيلية وقورطبة ، ثم رحل الى روما سنة ٩٩٩م وانتخب حبرا أعظم ، وبعد انتخابه أمر بانشاء مدرستين عربيتين الاولى في ايطاليا وهي مقره الديني ، والثانية في ريمس بفرنسا وهي موطنه .

(٢٩) نجيب العتيقي « المستشرقون » ج ١ ص ١١٦ .

(٣٠) المرجع السابق ص ١٢٠ .

٢ — شسطنطين الأفريقى : ١٠٨٧ م (٣١)

الراهب الأفريقى الذى ترجم كتب الطب والفلك من العربية الى اللاتينية عن اسحق بن عمران ، وكتاب العلاج العام لاسحق الاسرائيلى والكتاب الملكى لعلى بن عباس وبعض رسائل الرازى .

٣ — بطرس المكرم : ١٠٩٤ — ١١٥٦ م (٣٢)

اعتنق الحياة الرهبانية ، وكان كثير الاطلاع ، عين سنة ١١٣٣ م رئيسا لدير كلونى ، ثم قصد الاندلس وتثقف بثقافتها ، ثم عاد الى دير يصف الكتب فى الرد على الاسلام وشجب اليهود ، ويقال انه ترجم القرآن الكريم .

٤ — ادلارد البائى : ١٠٧٠—١١٣٥ م (٣٣)

راهب بندكتى جمع معارف فى علوم الطبيعة والفلك والرياضيات ، وتضلّع فى ثقافة العرب ، وترجم كتبهم فى مختلف التخصصات وآمن بمذهبهم فى العلم .

٥ — روبرت الشسترى : ١١٤١ — ١١٤٨ م (٣٤)

راهب بندكتى تثقف بالثقافة العربية لا سيما العلوم الرياضية والفلكية منها وقد ترجم اول ترجمة للقرآن استعان فيها باثنين من العرب نشرها ببيلبندر فى ثلاثة اجزاء . وترجم فى الجبر والمقابلة للفوارزمى والكيمياء والفلك الذين يعتبران فاتحة العلوم المنظمة فى اوروبا .

٦ — جيرارد الكريمونى : ١١١٤—١١٨٧ م (٣٥)

راهب بندكتى تعلم العربية فى طليطلة — ترجم مالا يقل عن ٨٧ مصنفا فى الفلسفة والطب والرياضيات والفلك وضرب الرمل ، فقدت معظم

(٣١) المرجع السابق ص ١٢١ .

(٣٢) العقيقى : المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٣٣) المرجع السابق ص ١٢١ .

(٣٤) المرجع السابق ص ١٢٣ .

(٣٥) المرجع السابق ص ١٢٦ .

أصولها العربية وسلمت ترجماتها اللاتينية م مهدت مع مثيلاتها الى انتشار العلوم فى أوربا وتوثيق صلتها بالشرق .

هؤلاء بعض أعلام المستشرقين الذين كانوا ثمرة من ثمرات الحركة التى قادتها البابوية فى الفاتيكان لدراسة الاستشراق وترجمة العلوم العربية الإسلامية الى اللاتينية ، ثم التأليف محاولين بذلك ضرب الإسلام و الرد عليه بمؤلفات مضادة .

(ب) السفراء :

كثرت السفارات بين دول الشرق والغرب فى فترات السلم ففى العباسيون والفرنسيون يتبادلون السفارات والهدايا سنة ٧٩٧-٨٠٦ م ووافق هارون الرشيد على جعل حماية القدس فى يد شارلمان سنة ٨٠٧م فأرسل أحد بطاركتها مفاتيحها اليه (٣٦) .

وقام عبد الرحمن الثانى بإرسال سفارات الى ملك النيسورمان والدانمارك سنة ٩٤٥ م وأوفد عبد الرحمن الناصر السفارات الى القسطنطينية سنة ٩٥٠ م وأوفد أسقف قرطبة ريسيموندو المشهور عند العرب بربيع بن زيد الى أوتو إمبراطور المانيا واحتفى بسفيره الأسقف جرتر سنة ٩٥٣ م ففضى فى قرطبة ثلاث سنوات تعلم خلالها العربية ورجع منها بالمخطوطات النفيسة ووفد على بلاط الخليفة سفراء بيزنطة و المانيا وإيطاليا وفرنسا (٣٧) .

ثم بدأ التطور التاريخى فى مجال العلاقات الخارجية بأن بدأت الدول الشرقية والغربية تعمل على إرسال سفراء لها مقيمون فى البلدان الأخرى، فأرسلت أوربا سفراء لها فى الشرق فاعتبسوا عادات الشرقيين، فمنهم من استشرق الى أبعد من ذلك واعتنق الإسلام ونال أخطر المناصب .

واقترنت سياسة إقامة أوربا سفراء لها فى الشرق أن تستبدل بهم

(٣٦) حسن الباشا « دراسات فى تاريخ الدولة العباسية » ص ٢٩ .

(٣٧) ابن عذارى « البيان المغرب عن تاريخ المغرب » ج ٢ ص ٢٢٩ .

سفراء الشرق في عواصمها فكان لكل من تركيا وسيلام وغارس والهند
سفير .

أما السفراء وملحقوهم الذين تخرجوا من مدارس اللغات الشرقية
ويعتبروا إلى الشرق وأقاموا فيه ، فقد حققوا ما كتبوه في مواضعه وعاونوا
على جمع مخطوطاته وتعليم لغاته وإنشاء المطابع لنشر مصنفاته فكانوا نواة
طبية للاستشراق العلماني (٣٨) .

(ج) الحملة الفرنسية وأثرها على حركة الاستشراق :

تعرضت مصر للحملة الفرنسية من سنة ١٧٩٧ — ١٨٠١ م ، ولا شك
أن هذه الحملة ما هي إلا استكمالاً لقضية الصراع بين العالين الشرقي
والغربي إلى جانب الأسباب المباشرة والشخصية التي حدثت بنابليون
بونابرت إلى توجيهها ضد مصر .

وبهنا من هذه الحملة أنه كان لها تأثير كبير على تطور حركة
الاستشراق والاهتمام به .

فقد صاحب نابليون في حملته بعثة علمية قوامها علماء اعلام في كل
ضرب من ضروب الثقافة في ذلك العصر ، منهم الأثريون والمهندسون
والأطباء والمؤرخون والمستشرقون والمترجمون اللبسانيون والمصريون
والسوريون ، كما أنه عمل على أن يهيئ أسباب الأقامة والأطمئنان
للفرنسيين ، فرأى وجوب درس طبيعة البلاد وأهلها وتاريخها ، وأنظمتها
حتى يكون العمل ممكناً ومثمراً ، ولهذا أصدر أمراً بإنشاء « المجمع العلمي
المصري » وكان ذلك في ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وقسم المجمع في أول
أمره أربعة أقسام : قسم الاقتصاد السياسي ، وقسم الآداب ، وقسم
الفنون ثم قسم الرياضيات والطبيعة ، على أن تطبع أعمال المجمع كل
ثلاثة أشهر ، وعين مونت كمر الرياضيين رئيساً له ، وجعل نفسه وكيلاً ،
وبدأ العلماء أعمالهم بالفعل ليهيئوا جوا صالحاً لنجاح الحالة الجديدة (٣٩) .

(٣٨) العثيقى « المستشرقون » ج ١ — ص ١٤٢ .

(٣٩) محمد عبد الرحيم مصطفى « تاريخ مصر الحديث » ص ٣٠ .

وقد امر نابليون كذلك بتأسيس مطبعة عربية — كان قد استصفاهها من الفاتيكان — لطبع الكتب والتصريحات والبلاغات والمشورات . ونشرت بعثته بحوث علمتها ورسومهم وخرائطهم في كتاب « وصف مصر » سنة ١٨٠٩ — ١٨١٣ م ثم حل شميليون رموز الكتابة الهيروغليفية بترجمة حجر رشيد (٤٠) .

وبذلك نرى أن حملة نابليون بونابرت على مصر تعتبر من أهم الأسباب التي أدت إلى زيادة الرغبة في الاستشراق في الغرب وإلى الاهتمام بعلوم الشرق وفتحت السبيل أمام الباحثين هناك ليأتوا إلى البلاد العربية ، لدراسة التراث والعلوم والتأليف فيه ، فابتلأت بهم ساحاب المكتبات العربية كمستشرقين يبحثون ويدرسون في وقت كانت فيه البلاد الإسلامية في سبات عميق نظير ما أصابها من تدهور سياسي واستعمار فاستطاعوا أن يترجموا وأن يحققوا أعدادا وفيرة ، بل معظم كتب التراث الإسلامي حققها مستشرقون أجانب ، أي جانب ضياع كمية ضخمة من المؤلفات الإسلامية التي حملت إلى مكتبات الغرب الأوربي وجامعاته ، ولم ينتبه إليها المثقفون المسلمون ، والعجيب أن الباحث الذي يريد أن يكتب عن التراث الإسلامي الديني أو العلمي أو السياسي أو الحضاري فإنه يجد في المكتبات الأوربية أضعاف أضعاف المخطوطات النادرة والكتب الإسلامية للمؤلفين الأوائل وهذا كله أدى إلى أن أصبح المستشرقون قوة كبيرة في الغرب لها مكانها ولها مركزها العلمي ولها كراسي مستقلة في جميع جامعات أوربا وأمريكا.

الوسائل التي اتبعتها الغرب لتدعيم حركة الاستشراق :

١ — إنشاء كراسي للغات الشرقية في الجامعات الأوربية جميعها مثل جامعة تولوز ، وجامعة يورنوا ، وجامعة السوربون في باريس والمدرسة الشرقية في القسطنطينية ، وجامعة ستراسبورج والمعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ودمشق وطهران وتونس إلى جانب كراسي اللغات الشرقية في جامعات إنجلترا مثل جامعة أكسفورد وكمبردج وجامعة لندن

(٤٠) العقيد « المستشرقون » ج ١ ص ١٥٠ .

وجامعة درهام وجامعة فيكتوريا و جامعة ليدز وجامعة ويلز وجامعة
لنهر يول وبرستول وشيفيلد وهال وكذلك جامعات اسكتلندا في سسانت
اندرور وجلاسجو وأبردين انبره وفي ايرلندا في كلية ترينيتي في دبلن
وجامعة ايرلندا الوطنية .

وفي كندا في تورنتو ، اوتاوا ، جامعة لانال ، جامعة مانيتوبا
ومونتريال . وفي ألمانيا في جامعة هايدلبرج وكولن وجامعة فورزيبرج
ومونستر وبون وبرلين وغيرها (١) .

هذا الى جانب الكراس الموجودة للغات الشرقية في جميع جامعات
الغرب وما قدمناه ما هو الامثل لبعض هذه البلاد .

٢ — **انشاء المكتبات الشرقية** التي تحتوى على ملايين من الكتب
والخطوط والنقائس العلمية والادبية والتاريخية .

ومن أهم هذه المكتبات مكتبة باريس الوطنية ، ومكتبة المتحف
البريطاني في لندن ومكتبة الاسكوريال باسبانيا والتي تضم حوالى ١٩٠٠
مخطوط عربى من بقايا المكتبة الاندلسية الاسلامية بغرناطة . ومكتبة فينا
الوطنية التي تحوى مئات من المخطوطات العربية النفيسة وكذلك مكتبة
جامعة ليدن بهولنده وهى تضم مخطوطات نفيسة ونيرة قضى المستشرقون
الهولنديون ترونا متواصلة في جمعها .

وهناك مكتبة برلين الوطنية في ألمانيا ومكتبة جامعة ميونخ وجامعة
هايدلبرج الى غير ذلك من المكتبات مثل المكتبات الخاصة بمختلف الجامعات .

وهناك نوع آخر من المكتبات الخاصة التي كانت ملكا للمستشرقين
وقف بعضها على المكتبات العامة ، واقتنت البعض الآخر ولجميع دور النشر
الشرقية فهارس لمجموعاتها .

(١) نجيب المصطفى : المرجع السابق ج ١ ، ج ٢ ، ج ٣ .

٢ — انشاء المطابع الشرقية (١٢)

دايت البلاد الغربية على انشاء المطابع التي تحوى الحروف العربية والعبرية ، وبدأت هذه المطابع فى ايطاليا ثم فى فرنسا ، ووجدت فى اسبانيا مطبعة مايسترى فى مدريد ، ومطبعة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد ايضا . وفى النمسا انشأت المطبعة الامبراطورية والمطبعة الشرقية للاباء المختارين . وفى هولنده مطبعة ليدن وغيرها فى مختلف انحاء اوربا .

٤ — الجمعيات الاسيوية والمجلات الشرقية (١٣)

عملت معظم بلدان اوربا على تنمية حركة الاستشراق باصدار المجلات والمطبوعات الخاصة بالشرق وهى تعنى جميعها بالعرب فى تحقيق سبق تاريخهم وجغرافيتهم وانسابهم ، وبحث ادبهم وشرائعهم ومذاهبهم واختلافهم ، ودرس لغاتهم وعلومهم وفنونهم فاطلعت الغرب على اصالة الشرق وخصائص تطوره ، والفنت من مجموعها مكتبة نفيسة فيها زيادة اعمال المستشرقين (١٤) .

ومن اهم المجلات الشرقية صحيفة العلماء التى تصدر فى فرنسا نشرة معهد مصر ، المجلة التاريخية ، مجلة تاريخ الاديان ، نشرة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة ، مجلة الدراسات الاسلامية وهناك الجمعيات الاسيوية مثل الجمعية الملكية الاسيوية لبريطانيا العظمى ، وايرلندا فى لندن ، والسلسلة الجديدة التى تصدر كل ثلاثة شهور ، واتحاد المستشرقين البريطانيين ، الى غير ذلك .

٥ — المتاحف الرقمية :

وتحتوى هذه المتاحف على مجموعات كبيرة من الكتب والمؤلفات الشرقية الى جانب مجموعة كبيرة من الآثار الشرقية ومن اهم هذه المتاحف

(١٢) العقيقى : المرجع السابق ج ١ ، ٢ ، ٣ .

(١٣) العقيقى : المرجع السابق .

(١٤) العقيقى : المرجع السابق ، ج ١ . ص ١٦١ .

المتحف البريطاني ومنحف فيكتوريا ألبرت ومتحف اشمولين في اكسفورد
ومتحف جراتس في النمسا . ومتحف الفن الاسلامي في برلين والمتحف
الوطني في باريس .

٦ — المؤتمرات الدولية :

بلغت مؤتمرات المستشرقين الدولية (١٨٧٣—١٩٦٤) ٢٦ مؤتمرا ضم
الواحد منها مئات العلماء من اعلام المستشرقين والعرب والمسلمين
والشرقيين اسهموا فيما بينهم في اقسامه الاربعة عشر عن آسيا وافريقيا،
وتناولوها بالمحاضرات والابحاث والنظريات والمقترحات . ثم نشروها في
مجلات للاهتمام بها كنظم ومناهج ووسائل ، ثم أصبحت مع دراسات
مؤتمراتهم الموضوعية والاقليمية اصولا وامهات واسانيد للباحثين (٤٥) .

وتعتبر هذه الوسائل المتعددة عوامل مساعدة لنشر حركة الاستشراق
في الغرب الأوربي ، وفي تمهيد السبيل انشر جميع المؤلفات العديدة التي
تصدر في الغرب خاصة بأهم الشرق .

اهداف المستشرقين :

لعلنا بالعرض السابق نكون قد ألقينا الضوء بعض الشيء على التطور
التاريخي للعلاقات بين الشرق والغرب ، وكيف احتك كل منهما بالآخر ثم
كيف بدا الغرب يتكالب على الحضارة الاسلامية فأخذ منها من مراكزها
المختلفة سواء اكانت في أوربا أم في الشرق ، ثم بعد ذلك بدأت مرحلة
الاستقرار والدراسة والانتاج العلمي الوفير في وقت ذهبت فيه البلاد
الاسلامية ووصلت أوربا في عصر النهضة الى أقصى درجات التقدم العلمي
والحضاري . وبذلك نجد ان حركة الاستشراق أصبحت حركة عامة في
أوربا وأصبح لزاما علينا ان نرى اهداف هذه الحركة هل خرجت كلها من
منبع واحد ولهدف واحد معين أم اختلفت الامسول والاهداف .

الحقيقة ان الهدف الأول الذي قام من اجله الاستشراق كان خدمة
الكنيسة قوا الاستعمار ، فالمعروف ان أول من قام بعملية الاستشراق كانوا

(٤٥) العتيقي « المستشرقون » ج ٣ ص ١١٤٨ .
(م ٣ — الاستشراق)

رهبانا خاضعين لسلطة الكنيسة الكاثوليكية في الغرب وهؤلاء اعتمدوا الضلالة عن الموضوعية المتفهمة . وقد غلب على كتاباتهم الطعن في الاسلام والحضارة الاسلامية والثقافات الاسلامية والتاريخ الاسلامي .

وهناك مجموعة من المستشرقين كانوا مرتزقة وضعوا افلامهم في خدمة مصالح بلدانهم الاقتصادية والسياسية والاستعمارية (٤٦) .

وهناك فئة من طلاب الاساطير والفرائب والاهاجي ، ولم تكن حقا من العلم في شيء فافترضت بافتراض العصور الأولى (٤٧) .

وفئة أخرى تعرضت للاسلام دون ان تقصد الطعن عليه ، وانما درسته دراستها كتبها الدينية ، فقد درج العلماء وفيهم الرهبان على نقد الكتاب المقدس مثل رايمو روس المتوفى سنة ١٢٦٨ م استاذ اللغيات الشرقية في جامعة هامبورج الذي خلف مخطوطا في نقد حياة المسيح (٤٨) .

وفئة غبر عن انصفت الاسلام وان لم يندن به قولا وعملا وكتابة فلم يؤخذ عليها حق على كل ما دبت فيه ومنهها من ذهب به اخلاصه الى اشتباكه (٤٩) .

ولابد ان هناك فئة أخرى منصفة ارادت البحث العلمي المجرد دون التعرض للدين ، وهذه الفئة غلبت عليها الحيادة المطلقة والرغبة في الوصول الى الحقيقة العلمية ، ودراسة التراث العربي الاسلامي لما فيه من حضارات قديمة مزدهرة .

وتعتبر هذه الأغراض من اهم الدوافع التي دفعت المستشرقين الى الاندراج في هذا السلك ، ويهمننا من امر حركة الاستشراق هذه الحركة التي تنبت الكنيسة الكاثوليكية والملوك والامراء الامتطاعيين في أوروبا والتي كان هدفها الأول والآخر طعن الاسلام بجهالة وضلالة .

(٤٦) العقيلي : المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦٠ .

(٤٧) العقيلي : المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦٠ .

(٤٨) العقيلي : المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦٠ .

(٤٩) العقيلي : المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦٢ .

وقبل أن ندخل فى تفاصيل هذه الحركة التى ربطت الاستشراق بالتبشير لابد أن نلخص تطور حركة الاستشراق فى مراحل ثلاث ومى :

المرحلة الأولى :

تلك الحقبة التى تبدأ من القرن الثامن الميلادى وتستمر حتى النهضة الأوروبية الحديثة فى القرن الخامس عشر ، وفيها احتك الإسلام بالغرب سياسيا وحربيا ، وأسس مراكز لحضارته فى جنوب أوربا وجنوبها الغربى ووقف منها موقف المعلم يلقتها حضارة خصبة الجوانب كثيرة الروافد ، امتزج فيها تراثه العربى بتراث الفرس والهند واليونان وغيرهم من الأمم التى دانت لسلطانه ، وكان موقف أوربا من ذلك الدور أشبه بموقفنا نحن من الحضارة الغربية فى أوائل نهضتنا الحديثة (٥٠) .

المرحلة الثانية :

منذ أوائل النهضة الأوروبية حتى القرن الحالى وفيها احتلت دراسة الفلاسفة المسلمين مكانها فى الجامعات القديمة مثل باريس ولوفان وظهر اثر الفكر الإسلامى فى بعض الفلاسفة الغربيين مثل ديكارت وترجمت بعض روائع الأدب الشرقى مثل الف ليلة وليلة الذى ترجم الى الفرنسية فى نهاية القرن السابع عشر ، ثم ترجم بعد ذلك الى غيرها من اللغات ثم اتجهوا بعد ذلك الى دراسة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبدأت تظهر الكتب الأوروبية عن الإسلام وتاريخه والترجمات المختلفة للقرآن وأسست الجمعيات الآسيوية فى إنجلترا وفرنسا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، واخذ العلماء الأوروبيون يفتقون عن المخطوطات الشرقية ويحققونها وينشرونها .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بدأت سلسلة المؤتمرات الدولية لأولئك المستشرقين يعرضون فيها ما وصلوا اليه فى البحوث الكلاسيكية الإسلامية والعربية والشرقية (٥١) .

(٥٠) هاشم زكريا « المستشرقون والإسلام » ص ١٦٧ .

(٥١) المرجع السابق .

المرحلة الثالثة :

وهي التي نشهد مظاهرها الآن ، ففي مرحلة العناية بالاسلام في أوضاعه واتجاهاته الحديثة ، لم تعد الدراسات الشرقية الكلاسيكية هي الشغل الشاغل للمستشرقين المحدثين أو الجمعيات والمعاهد وأقسام الدراسات الشرقية في الجامعات الأمريكية والأوربية ، بل انتقلت العناية إلى دراسة الامم الإسلامية في نهضاتها الحديثة وإلى ما ينشأ فيها من حركات تجديدية واصلاحية وإلى مقدار تأثير التعاليم الإسلامية الأصلية في تفكير الشعوب الإسلامية المعاصرة ، وما بين تلك الشعوب من مظاهر الاتفاق أو الاختلاف أو النزعات والوان التفكير ، ومدى كل واحدة من التوفيق بين تعاليم الدين ومقتضيات الحياة المصرية والمعتدة وعلى الأخصر في التشريع ونظم الاجتماع والاقتصاد وأساليب الحكم ، وهل هناك معضلات تواجهها تلك الشعوب في التوفيق بين المعتقدات الدينية ونتائج الفكر العلمي الحديث .

ولقد نظمت جامعة برنستون ، ومكتبة مجلس الشيوخ الأمريكي مؤتمرا للثقافة الإسلامية واقدمت ندوة في معهد هوفر بجامعة ستانفورد ومؤتمر في متيسوتا ، معهد الدراسات الإسلامية في كندا .

ويدرس الآن احوال الشرق الاسلامي الحديث والتصوف الاسلامي في جامعات اكسفورد وكمبريدج وجامعات أوروبا كافة ، كما انه المادة الرئيسية في كلية الدراسات الشرقية والافريقية في لندن (٥٢) .

الفصل الثاني الاستشراق والتبشير

الاستشراق والتبشير

يعتبر التبشير بالدين المسيحى الهدف الاول من اهداف المستشرقين . اذا كنا قد عددنا اهدافا اخرى للاستشراق — فذلك حتى لانمم فى حكمنا على جميع فئات المستشرقين ؛ وان نعطي للفئة التى عملت فى هذا المجال — الحيدة المطلقة . وبالبحث العلمى المجرد — حقها من التقدير .

والحقيقة ان فئات كبيرة من اننى اعياها التعصب والجهل جرت وراء عملية التبشير رغبة فى الوقوف على وجه الاسلام ، ومحاولة زعزعة العقيدة من قلوب المسلمين ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

ومن اقوال زعماء المبشرين المستشرقين عن اهداف التبشير قول لورانس براون فى كتابه « الاسلام والارساليات » (١) « اذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية لمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، وامكن أن يصبحوا نعمة له ايضا ؛ اما اذا ظلوا متفرقين ، فانهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير » .

ويفصح النفس كالهون سيمون عن قوة التبشير فى تفريق المسلمين ، وهو نفس المعنى الذى عبر عنه براون فيما قبل . بقوله فى كتابه « ان الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السود وتساعدهم على التخلص من السيطرة الاوربية ، ولذلك كان التبشير عاملا مهما فى كسر شوكة هذه الحركات ، ذلك لأن التبشير يعمل على اظهار الاوربيين فى ثوب جديد جذاب ؛ وعلى سلب الحركة الاسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها » (٢) .

فوحدة المسلمين اذا فى نظر التبشير يجب ان تفتت وان توهن ، ويجب

(١) لورانس براون « الاسلام والارساليات » ص ٤٤-٤٨ .

(٢) ابراهيم خليل « المستشرقون والمبشرون فى العالم العربى والاسلامى » ص ٣٨ .

أن يكون هدف التبشير هو التفرقة في توجيه المسلمين واتجاهاتهم . وهناك بجانب تفتيته وحدة المسلمين هدف آخر هو شراء خطر وحدتهم وامتداد سلطانهم باستعمار الشعوب الأوروبية واستغلالها واستنزافها ثرواتها . وفي هذا المعنى يقول لورانس براون أيضا « الخطر الحقيقي كامن في نظام الاسلام وفي قوته على التوسع والاختضاع وفي حيويته انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي » (٢) .

ويرى المستشرق الألماني بيكر (٤) « أن هناك عداء من النصرانية للاسلام لأن الاسلام عندما انتشر في العصور الوسطى أقام سدا منيعا في وجه الاستعمار وانتشار النصرانية ، ثم امتد الى البلاد التي كانت خاضعة لصولجائها » .

وقريب من ذلك ما رآه غاردنر (٥) « ان القوة التي تكمن في الاسلام هي التي تخيف أوروبا ، ويحاول المبشرون أن يروا العداوة بين الاسلام وبين الغرب دينية ، ولكن الحقيقة لا تلبث أن تظهر في فلتات لسانهم ، فاذا هي سياسية » .

ان يوليوس رشتريث يؤنب النصارى على قصر نظرهم في اثناء العصور المتطاولة التي تلت ظهور الاسلام ، فانهم كانوا فيها وادعين غافلين وكانت الامبراطورية البيزنطية تغيب شيئا فشيئا في الامبراطورية الاسلامية حتى سقطت القسطنطينية سنة ١٤٥٣م بيد الاتراك العثمانيين (٦) . ولا ريب في ان رشتريث يتالم للناحية السياسية لانه هو نفسه يذكر ان سكان الامبراطورية الشرقية كانوا نصارى بالاسم .

وعلى هذا الاساس أصبح الاتراك خطرا على أوروبا منذ دخلوا في الاسلام ، لا لانهم مسلمون بل لانهم قد أصبحوا قوة تستطيع أن تقف في وجه الاطماع الأوروبية ، حتى السنوسية ، وهي فرقة من المرابطين المجاهدين

(٣) المرجع السابق .

(٤) مصطفى خالدي « التبشير والاستعمار » ص ٣٦ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) المرجع السابق ص ٣٧ .

نشأت في طرابلس الغرب قد أصبحت على قلة اشياعها وقلة انصارها قوة
نرجب الاستعمار لا لشيء الا لان الاتحاد قوة تفسد على المستعمرين
اعمالهم . ولقد بالغ المبشر صموئيل زويمر حينما هاله أن يرى نفرا من
النصارى يدعون الى مصادقة المسلمين في الدين ، ان هذه الصداقة في
راى زويمر تخلق في نفس النصارى جيئنا عن التبشير (٧) .

ومن المعروف بين جمهرة المبشرين المستشرقين أن صموئيل زويمر
هذا كان يلقب « بالمختار الى العالم الاسلامى » ، وكانت مهمته تحويل
العالم الاسلامى من عقيدته ، ولم يكن يستكثر عن مهمته أن يتصدى لتحويل
مكة والمدينة في مقدمة المعامل الاسلامية ، ولا تحويل القاهرة بما اشتملت
عليه من معاهد الاسلام وذكرياته الباقية (٨) ، بل أن هناك مجوعة أخرى
ساندت صموئيل زويمر هذا أفكاره كانت تقدم العون الواسع في القضاء
على الاسلام واعادته الى الصحراء من حيث جاء (٩) .

ومن مجموع هذه الآراء السابقة التى احببت أن أسوقها في مقدمة
الموضوع لأبد أننا نكون قد اقتنعنا أن ممارسة الاستشراق من أجل التبشير
وخدمة الدين المسيحى لم تمت بظهور النزعة العلمية ، فقد ظل عدد من
خدام المسيحية يمارسون الاستشراق لهذا الغرض نفسه وظل همسا
الوضع الى يومنا هذا .

ولابد لنا أن نقتبع الوسائل التى يتخذها هؤلاء المبشرون المستشرقون
في تحقيق مخططاتهم ، وسنرى رأى واحد منهم وهو هـ . هـ وجيسوب
يقول « من الضروري أن يستخدم المبشرون جميع الطرق في سبيل التبشير
وان يستغلوا جميع المناسبات ، فمناعة الطب والتعليم والوعظ ونقل الكتب
من لغة الى لغة كلها يجب أن توجه توجيهها يفيد التبشير » (١٠) .

والمبشرون مجمعون على أن جميع الوسائل بهما كانت يجب أن تستغل
في سبيل التبشير ، حتى أعمال البر يجب أن تستغل استفلا لا بحثا من ذلك

(٧) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٨) عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ١٦٩-١٧٠ .

(٩) محمد الغزالي « قذائف الحق » ص ٣٥ .

(١٠) Jessup, H.H. Fifty three years in Syria. P. 58

تولهم « كان التطبيب والتعليم من وسائل التبشيرية ويجب أن يربا كذلك ،
أما أعمال الاحسان فيجب أن نستعمل بحكمة كيلا نذهب في غير سبيلها ،
يجب أن تعطى الأموال أولا للبعيد عن الكنيسة ثم تقل تدريجيا كلما اقترب
أرلئك من الدخول في الكنيسة . فإذا دخلوها منع عنهم الاحسان مرة
واحدة » ومن وسائلهم أنهم اذا دخل في خدمتهم رجل لا ينتمى الى مذهبهم
حاولوه على الدخول فيه .

ولابد لنا ان نوضح نواحيها دقيقا الاسلوب الذى يتخذه المبشرون
فى نشر عقائدهم وفكرهم .

وأول هذه الوسائل هى الوسائل الثقافية ، فقد اتخذ المبشرون من
التربية والتعليم وسبلتهم الأولى فى التأثير والتغيير الذى ينشئونونه ، وقد
ركزوا نشاطهم فى هذا الجانب على الجبهات والمستويات سالكين الى
غايته طرعا شتى منها :

١ — المتفائل المبشرين الى الغرب :

بمحاولة التأثير الفكرى والثقافى على عقليتهم ، ومحاولة بث الشكوك
حول العقيدة الاسلاميه ، وأغرائهم بوسائل التقدم المدنى الباهرة فى
حتى يفتنوا عن دينهم ، فبذلك يعودون الى بلادهم وقد تغيرت أفكارهم
وقيمهم ونظرتهم الى الدين والى الحياة والناس والى الماضى والحاضر والى
النظم والشرائع والآداب والتقاليد وبذا يتضح ذلك فى سلوكهم وأخلاقهم
وعلاقاتهم وفيما يكتبون وينتجون فى ميدان الفكر والثقافة والتوجيه .

٢ — المدارس التبشيرية والأجنبية :

اتخذ المبشرون من المدارس العديدة التى انشاؤها فى الشرق الاسلامى
والتي حاولوا أن بضيقوا بها الخناق على المدارس والمؤسسات الوطنية
أن يأخذوا الطفل منذ نعومة أظفاره عجيئة لينة ، فيبعده عن الاسلام
بقدر ما يقربوه من النصرانية ، ويحببوه فى حضارة الغرب بقدر ما ييغضوه
فى حضارة الشرق (١١) .

(١١) يوسف القرضاوى « الحلول المستبعدة » ص ٢٤ .

وقد صرحت المبشرة « آنا ميلجان » عن هدف هذه المدارس وميمنتها في بلاد العرب والمسلمين فقالت (١٢) :

« ان المدارس اتوى قوه لجعل الفاشيين نحت تأثير التعليم المسيحى وهذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوما ما تاده » .

وتقول أيضا عن كلية البنات الخاصة بالقاهرة :

« فى كلية البنات فى القاهرة بنات آباؤهن « باثوات وبكوات » وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنسسات المسلمات تحت النفوذ المسيحى ، وليس ثمة طريق الى دحض الاسلام أقصر من هذه المدرسة » .

وكانت كل المذاهب المسيحية تقوم بجهودها التبشيرية فى جميع بلدان المسلمين .

ومن المنشور الذى أصدرته الجامعة الامريكية فى بيروت سنة ١٩٠٩م ردا على احتجاج الطلاب المسلمين لاجبارهم على الدخول يوميا الى الكنيسة ينضح من المادة الرابعة منه طابع هذه المؤسسة وأمثالها ونص المادة (١٢) :

« أن هذه الكلية مسيحية أسست بأموال شعب مسيحي ، هم اشنروا الأرض وهم اقاموا الأبنية وهم أنشأوا المستشفى وجهازه ، ولا يمكن للمؤسسة ان تستمر اذا لم يساعدها هؤلاء ، وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليما يكون الانجيل من مواده فنعرض منافع الحقيقة المسيحية على كل تلميذ ، وكل طالب يدخل مؤسستنا يجب أن يعرف سابقا ماذا يطلب منه » .

٣ — المدارس الحديثة :

وهو انشاء مدارس تقوم الدراسة فيها على أسس غربية ، يشرف عليها المبشرون ويراقبونها ويوجهونها ، ويضع لها المبشرون المناهج والكتب التى تدرس فيها .

(١٢) محمود شاكر « أباطيل واسمار » ص ٤٢ .
(١٣) « هذه الجوى » المبشرون والمستشرقون » ص ١٠/٩ .

يقول المبرمجون تكلى (١٤) :

« يجب ان نشجع انشاء المدارس ، وان نشجع على الاخص التعليم الغربى ان كثيرين من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الانجليزية ، ان الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقى مقدس امرا صعبا جدا » .

وهذا التصريح من جانب هذا المبرمج يدلنا على ان غاية هؤلاء المبرمجين ليست دينية خالصة كما يظن بعض الناس وانهم لا يرجون بعملهم هذا الله والدار الآخرة . فلو كان هذا هدفهم لاتجهوا اول ما يتجهون الى الملحدون والماديين الذين يكونون معظم سكان اوربا او انجهوا الى الشعوب الوثنية . بدل ان يتجهوا الى اعظم امة مؤمنة موحدة فى الارض وهى امة الاسلام .

ومما يؤكد هذا قول القس « زويجر » فى وصاياه للمبشرين :

« ينبغى للمبرمجين الا يقنطوا اذا راوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة اذ من المحقق ان المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد الى عيسوم الاوربيين وتحرير النساء » .

والغريب ان المبرمجين الذين اتخذوا من التعليم وسيلة هامة للتبشير لا نجدهم يهتمون بالعلوم العلمية ، بل حاولوا ان يجعلوا جميع مواد التعليم تخدم المسيحية والفكر المسيحى . ويرى هنرى جيسوب (١٥) « ان التعليم فى مدارس الارساليات المسيحية انما هو واسطة الى غاية فقط ، هذه الغاية هى قيادة الناس الى المسيح ، وتعليمهم حتى يصبحوا افرادا مسيحيين وشعوبا مسيحية ، ولكن حينما يخطو التعليم وراء هذه الحدود ليصبح غاية فى نفسه وليخرج لنا خيرة علماء الفلك وطبقات الارض وعلماء النباتات ، وخير الجراحين والاطباء فى سبيل الزهو العلمى ، فانا لا نتردد حينئذ فى ان نقول ان رسالة مثل هذه قد خرجت عن المدى التبشيرى المسيحى الى مدى علمائى محض ، الى مدى علمى دنيوى ، مثل هذا العمل يمكن ان

(١٤) مصطفى خالدى « التبشير والاستعمار » ص ٩٨ .
(١٥) H.H. Jessup. op cit. P. 378.

قوم به جامعات هايدلبرج وكمبردج وهارفارد وشيفيلد ، لا الجمعيات التبشيرية التي تسعى الى اهداف روحية فحسب » .

ويؤكد هذه الفكرة المستر نبروز الذي جاء سنة ١٩٤٨ م لتسلم زمام الجامعة الامريكية في بيروت فيقول (١٦) « لقد ادى البرهان الى ان التطعيم اثنى وسيلة استغلها المبشرون الامريكيون في سعيهم لتنصير سورية ولبنان ومن اجل ذلك تقرر ان يختار رئيس الكلية البروتستانتية الانجيلية « الجامعة الامريكية اليوم » من مبشري الارسالية السورية » .

لذلك نرى ان المبشرين استغلوا التعاليم لان له اثرا فعلا بل هو اقوى وسائل التبشير ، وعلى هذا الاساس بدا المبشرون في انشاء مدارسهم وكنياتهم ليؤثروا في قادة الراى في البلاد وفي الجيل الناشئ في الشرق الأدنى خاصة .

٤ — استغلال الطب كوسيلة للتبشير :

كان المبشرون يتخذون من زيارة المسجونين ومن العمل في المستشفيات وسيلة الى التبشير ، وفي الحرب العالمية الاولى اخذت الدولة العثمانية عددا من الراهبات للعمل في المستشفيات ، فقال الكتاب المثلوي اليسوعي عن هؤلاء « وفي منصبهن الجديد بقيت الاخوات مبشرات يلتن التعليم المسيحي ، ويعددن للمناولة الاولى ويعلمن الصلوات على الرغم من التحذير والتهديد اللذين كان المفتشون الاتراك يوجهونها اليهن » (١٧) .

وهناك طريقة اخرى وهو انشاء مستشفيات مسيحية ، فيتوافد المرضى على العيادات الخارجية بها ، فيقوم الكاتب وهو واعظ انجيلي بتحرير بطاقة للمريض ، كما تقوم الممرضة بمعرفة شخصيته المريض وظروفها الخاصة ، وهذه التحريات كلها تصل تباعا الى مكتب تسييس المستشفى لتبويبها وتصنيفها .

ويلقى واعظ من قبل تسييس المستشفى قصة دينية قمعسيرة على

(١٦) مصطفى خالدي « التبشير والاستعمار » ص ٦٧ .

(١٧) المرجع السابق ص ٤٩ .

جمهور المرضى المنتظرين ، فإذا دخل المريض المستشفى ، فإنه يستمتع
لدرس ديني في أصيل كل يوم ، وقد يتبعه عرض للفانوس السحري ، ثم
توزع على المرضى النشرات لقراءتها والتسلى بها .

وفي هذا كله تعتد بمكتب التفسير أو بمنزله ندوات تبشيرية فردية
لن يقبل على المسيحية ، وإذا وثق التفسير بإخلاصه أغلق عليه الهبات
ما ينسبه الأهل والأصحاء (١٨) .

٥ — الصحافة والإعلام والنشرات الدورية والمكتبات :

لم يقتصر نشاط الاستعمار الغربي على ميدان التعليم بمختلف طرقه
وأساليبه ، بل تعداه إلى ميدان الإعلام والصحافة والمكتبات فهذه الميادين
لا يقيد ما يقيد المدرسة من مناهج ، ولا تختص بعدد محدود من التلاميذ
بل هي وسائل توجه الرأي العام .

ويرى المستشرق جب في كتابه « وجهة الإسلام » متحدثا عن أهمية
الصحافة في مجال الغزو الفكري (١٩) .

« الواقع أن المدارس والمعاهد العادية لا تكفي ، فليست هي في حقيقة
الامر إلا الخطوة الأولى في الطريق ، لأنها لا تغني شيئا عن قيادة الاتجاهات
السياسية والإدارية والوصول إلى هذا التطور الأبعد — الذي بدونونه تظل
الأشكال الخارجية مجرد مظاهر سطحية — يجب ألا ينحصر الامر في الاعتماد
على التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية ، بل يجب أن يكون الاهتمام
الأكبر منصرا إلى خلق رأي عام ، والسبيل إلى ذلك هو الاعتماد على
الصحافة . ويقرر جب أن الصحافة هي أقوى الأدوات الأوروبية وأعظمها
نفوذا في العالم الإسلامي .

٦ — الغزو الاجتماعي :

المتصود به ادخال العادات والتقاليد والأنواق الغربية في حياة
الأسرة المسلمة ، والمجتمع المسلم ، واستغلال الوسيطتين المسالمتين

(١٨) إبراهيم خليل « المستشرقون والمبشرون » ص ٦٠

(١٩) محمد حسين « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » ص ٢٠٢ .

فى نجيب ذلك الى النفس . واضفاء نعوت الرقى والنسب على كل من
يسلخون عن شخصيتهم الدينية والقومية ويمشون فى ركاب غاصبيهم
بابعين مقلدين (٢٠) .

ومن مجموع الوسائل السابقة التى ينخذها المبشرون لنشر باطلهم
واغكارهم لخدمة الدين المسيحى . نجدهم يحاولون ان ينفذوا داخل المجتمع
الاسلامى ليفتنوا المسلمين عن دينهم ، والحقيقة ان معظم المبشرين حينما
ينعرضون فى كلاً من للدين الاسلامى ، نجد انهم يخضعون لآفة هى آفة الجهل
بالحقائق والمعجز عن فهم الشرق والشرقيين . كما يفهمون هم انفسهم فى
حاضرهم وماضيتهم .

والعجيب ان هؤلاء المبشرين حينما يكتبون عن الاسلام لا يكتبون من
واقع المصادر التاريخية الاصلية القديمة ، وانما يتركونها فى مكاتب
علماء الدين وورثة اللاهوتيين من ابناء القرون الوسطى ، ويخرجون انتاجا
لا يعتمد على اصول صحيحة فيكون ملوذا بالباطيل والاغالب ، فيسهم عقول
الدارسين من المبشرين ، فيخرجون مؤمنين بدعوات التبشير ،
وصواب الحملة على الاسلام كما فهموه ، ولو انهم فهموا اسرار اباطيلهم
لارتدوا على انفسهم واستطاع الاسلام ان يغزوهم فى معانهم ، فاذا هم
بمشرون انفسهم ان يتفرقوا بين انحاء العالم مستبسلين فى تبشير المساكين
وتنفيذ غير المسلمين من الاسلام (٢١) .

ولذلك اصبح التبشير بالنسبة للعالم الغربى وللبابوية بالذات مهنة
يستقرون بها الرزق ، وكل هدفهم تشويه الاسلام ، فهم اصحاب مصلحة
فى تشويه الدين الاسلامى وتمثيل المسلمين فى الصورة التى تفكى عند
القوم جذوة التعصب وتملى لهم فى الجهالة والخفلة ، فلا يسمون ان تظهر
الحقيقة لهم ولم يستأجرونها ويرسلونها للتبشير (٢٢) .

(٢٠) يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة » ص ٣٢ .

(٢١) عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ٢٠٦ .

(٢٢) المرجع السابق ص ١٠ .

الفصل الثالث

الإسلام وموقف المستشرقين منه

الإسلام وموقف المستشرقين منه

عمل المستشرقون منذ بدء ظهور حركة الاستشراق في الغرب على الهجوم على الدين الاسلامي ، وعلى النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم .

والحقيقة التي لا جدال فيها ان الاسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم وكان القرآن مصدره الأول ليس — كما يظن الحاقدون — دينا لاهوتيا وليس عقيدة فقط تعنى بالجانب الروحي للانسان دون ان تعنى بتنظيم علاقته بالكون ، وعلاقته بالحياة وعلاقته باخوانه بني الانسان افرادا واسرا ومجتمعا ودولا .

كلا ان الاسلام عقيدة شاملة ينبثق عنها نظام عالمي كامل ، تقوم على اساسه امة عالمية متوازنة ابرز سماتها ما وصفها به القرآن « وكذلك جعلناكم امة وسطا » (١) وقوله تعالى « كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٢) .

وللعقيدة الاسلامية مزايا وخصائص لا تتوفر لغيرها من العقائد الدينية فهي عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها تتلخص في ان وراء هذا العالم المنسق البديع المحكم ربا واحدا خلقه ونظمه وتدر كل شيء فيه تقديرا وهذا الرب والاله ليس له شريك ولا شبيه ، ولا صاحبة ولا ولد ، بل له ما في السموات والارض كل له قانتون .

وهذه عقيدة واضحة مقبولة ، فالمقل دائما يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة ، ويريد ان يرجع الاشياء دوما الى سبب واحد والواقع المطرد يثبت ابدا ان تعدد الارادات لا ينتج عن اثر متكامل او نظام

(١) سورة البقرة ، آية ١٤١ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٦٠ .

منسق . والقرآن يقرر هذه الحقيقة فيقول : « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا » (٢) « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله إذا لذهب كل اله ما خلق ، ولعلنا نعلمهم على بعض » (٤) .

وهي عقيدة ليست غريبة عن الفطرة . ولا مناقضة لما : بل هي منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم ، وهذا هو صريح القرآن « فأتهم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٥) .

وهي عقيدة ثابتة محددة لا تتبدل الزيادة والنقصان ، ولا التحريف والتبديل فليس لحاكم من الحكام أو مجمع من الجامع العلمية أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية أن يضيف إليها أو يحور فيها وكل تحوير أو إضافة مردود على صاحبه ونبي الإسلام يقول « من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد » (٦) أي مردود عليه والقرآن يقول : « أم لهم شركاء وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » (٧) وعلى هذا فكل البدع والخرافات والإضافات التي لصقت بمعتقد المساميين أو دست في بعض كتبهم أو اشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقرها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه . وكل ما هو معمول به في الإسلام أنه قد اتصلت بالقرآن — بعد أن انتقل الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى — أفهام العلماء والأئمة ، فما لم يكن من آياته نصا قى معنى واحد . ومن هذا الجانب اتسع ميدان الفكر الإنساني وكثرت الآراء والمذاهب في النظريات والعلميات لا على أنها دين يلتزم وإنما هي آراء وأفهام فيما هو من القرآن محتمل للآراء والأفهام يرد منها كل نى رأى منها راية إلى الدلالة التي فيها هو من النص القرآنى بمعونة ما صبح عنده من أحوال الرسول أو أفعاله أو من القواعد العامة التي ترمى إليها روح الدين عامة ، وهذا الصنيع لم يكن من هؤلاء الأئمة وفي معتقدهم إلا اجتهادا فرديا

(٢) سورة الانبياء ، آية ٢٢ .

(٤) سورة المؤمنون ، آية ٩١ .

(٥) سورة الروم ، آية ٣٠ .

(٦) القرشاي والعسال « الإسلام بين شبهات الضالين » ص ١٥ .

(٧) سورة الشورى آية ٢١ .

” يوجب واحد منهم على احد من الناس ان يبيعه . بل تركوا تغييرهم ممن له اهلية الفهم حرية التفكير والنظر .

أما العقائد الاصلية كالإيمان بالله واليوم الآخر وأصول الشريعة وجوب الصلاة والزكاة وحرمة النفس والعرض والمال ، فان نصوصها جاءت في القرآن بيّنة واضحة لا تحتمل اجتهادا ولا افهاما .

ومن هنا كثرت الآراء والمذاهب فيما يتصل بالفروع التابعة للعقائد الاصلية وفيما يتصل بالعمليات التابعة لأصول الشرائع والأحكام (٨) .

واذا دلت طبيعة الاسلام هذه على شيء فانما ندل على أنه دين ينسج للحرية الفكرية العاملة . وانه لا يقف فيما وراء عقائده الاصلية وأصول شريعته على لون واحد من التفكير أو منهج واحد من التشريع ، وقد كان بتلك الحرية ديدنايساير جميع أنواع الثقافات الصحيحة والحضارات النافعة التي يتفوق عنها العقل البشرى في صلاح البشرية وتقدمها مهما ارتقى العمل وعنت الحياة .

وقد بدا المستشرقون يجدون في هذا الدين القوى المتين مادة خصبة لسنعراض آرائهم وعرض ردودهم على الاسلام ، كل منهم كما ذكرنا له دافع قوى وراء كتاباته هذه ، فمنهم من يخدم السياسة ويصطنع لغة الدعاية تارة ، ولغة الدبلوماسية تارة اخرى ، ومنهم هؤلاء المستشرقون الذين نشأوا في العصر الحديث بمعزل عن دوائر التبشير ودوائر السياسة ومنهم من ينشد الرأي خالصا لوجه الحقيقة العلمية ولكنه مشوب بالقصور الذي لا مفر منه لمن يكتب عن الأدب في لغة أخرى وهو ليس من أبنائها ، ولا هو من الأدباء في لغته التي نشأ عليها . وبعضهم لا رأى له في أدب بلاده لأنه لم يشغل به . ولم يتأهب له بعدته من الذوق والنظنة التي تؤهله للمخنص فيه : فليست معرفته بالعربية لمدة كافية له في تقدير الأدب العربي لأنه يعرف لغته . ولا معول على رايه في أدبها بين قومه (٩) .

(٨) ابراهيم اللبان : المستشرقون والاسلام ص ٣٤ .

(٩) عباس العقاد : ما يقال عن الاسلام ص ٦ .

ويكتسب عن الإسلام في انساب أناس يتشيعون له بمقدار ثورتهم على سلطة الدين في بلادهم . فهم يطلعون محاسنه ويقابلون بها مساوئ السلطة التي يثورون عليها ، ولا يندر فيهم من ينصف الإسلام ويهتدى الى محاسنه السمحة ، وان لم يدين به ولم يكن على دين غيره (١٠) .

ومن حقنا — بل من واجبنا أن نعرف ما يقال عنا ، وان نعرف كل قول من تلك الأقوال بقيمته وقيمة من يصدر عنه ، لأننا قد نعرف أنفسنا من شتى نواحيها كلما عرفناها كما ينظر اليها الغرباء عنا . وعرفنا مبلغ الصدق والفهم فيما يصفوننا به من هوى وجهالة وعن دراية وحسن نية .

ورأيت أن أبدأ كلامي عن موجة الهجوم التي يقوم بها المستشرقون ضد الإسلام بعرض لآراء بعضهم وهي آراء تنصف الإسلام ونبي الإسلام والمسلمين ، بل اتنا أخذناها كشهادة لنا من عدونا : (والفصل ما شهدت به الأعداء) .

واثرت أن أبدأ بعرض لوجهة نظر حديثة وبأحدث كتاب صدر في نهاية سنة ١٩٧٨ م وهو « الخالدون مائة » (١١) والذي ألفه ميخائيل هارت العالم الأمريكي الذي بدأ ينقب في جميع مشاهير العالم من رسل وأنبياء ورجال دين وعلماء وفنانين وأدباء الى غير ذلك من أنواع المشاهير ، وبعد أن درسهم دراسة محضة ودقيقة على اعتبارات كثيرة وجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس الشخصيات المسماة التي اختارها لكتابه . وان ما جاء به هذا الرسول هو الحق على الرغم من أن هذا الكاتب مسيحي ولا يدين بالإسلام ، يقول ميخائيل هارت :

« لقد اخترت محمدا (صلى الله عليه وسلم) في أول هذه القائمة ولابد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار ، ومعهم حق في ذلك ، ولكن محمدا

(١٠) المرجع السابق .

(11) M. Hart. The 100 A Ranking of the most-influential persons—in History.

عليه السلام هو الانسان الوحيد فى التاريخ الذى نجح نجحاً عظيماً فى
المستوى الدينى والدنيوى .

وهو قد دعا الى الاسلام ونشره كواحد من اعظم الديانات ، واصبح
قائدا سياسيا وعسكريا ودينيا ويعد ثلاثة عشر قرناً من وفاته . فان أمر
محمد عليه السلام لايزال قويا متجددا » .

وظل الكاتب يستعرض تاريخ الرسول صلعم منذ ولادته ونشأته
وتربيته وأخلاقه ووضعته فى قومه ثم زواجه وبعثته ودوره فى نشر الاسلام
وما لاقاه من اضطهاد فى الدور المبكر. ثم هجرته وما قدمه بن جدد فى
نشر الدعوة ومحاربة مشركى مكة حتى انتشر الاسلام فى جميع أرجاء
الجزيرة العربية ، ويذكر ضمن كتابه قوله « والاسلام مثل تل الديانات
السكبرى كان له أثر عميق فى حياة المؤمنين به ، ولذلك غمّسوا الديانات
السكبرى ودعاتها موجودون فى قائمة المائة الخالدين .

وربما بدا شيئاً غريباً حقا أن يكون الرسول محمد صلى الله عليه
وسلم على رأس هذه القائمة ، رغم أن عدد المسيحيين ضخم عدد
المسلمين ، وربما بدا غريباً أن يكون الرسول عليه السلام هو الرقم الأول
فى هذه القائمة ، بينما عيسى عليه السلام الرقم الثالث وموسى عليه
السلام الرقم السادس عشر .

ولسكن لذلك أسباب : من بينها أن الرسول محمداً صلى الله عليه
وسلم كان دوره أخطر وأعظم فى نشر الاسلام وتدعيمه وأرساء قواعد
شريعته وأعظم وأكثر مما كان لعيسى عليه السلام فى الديانة المسيحية ،
وعلى الرغم من أن عيسى عليه السلام هو المسئول عن مبادئ الأخلاق فى
المسيحية ، إلا أن القديس بولس هو الذى أرسى أصول الشريعة
المسيحية ، وهو أيضاً المسئول عن كتابة الكثير مما جاء فى كتب « العهد
الجديد » . أما الرسول صلى الله عليه وسلم فهو المسئول الأول والأخير
عن أرساء قواعد الاسلام وأصول الشريعة والسلوك الاجتماعى والأخلاقى
وأصول المعاملات بين الناس فى حياتهم الدينية والدنيوية ، كما أن القرآن
السكرى قد نزل عليه وحده وفى القرآن السكرى وجد المسلمون كل
ما يحتاجون اليه فى دنياهم وأخرتهم . والقرآن السكرى نزل على الرسول

صلى الله عليه وسلم كاملاً : وسجلت آياته وهو ما يزال حياً وكان تسجيلاً
فى منتهى الدقة ، فلم يتغير منه حرف واحد وليس فى المسيحية شئ مثل
ذلك . فلا يوجد كتاب واحد محكم دقيق لتمسكهم المسيحية بشيء القرآن
السكرىم وكان أثر القرآن السكرىم على الناس بالغ العمق ولذلك كان أثر
محمد صلى الله عليه وسلم أكثر وأعمق من الأثر الذى تركه عيسى عليه
السلام على الديانة المسيحية .

فعلى المستوى الدينى كان أثر محمد صلى الله عليه وسلم قوياً فى
تاريخ البشرية وكذلك كان عيسى عليه السلام . وكان الرسول عليه السلام
على خلاف عيسى عليه السلام . رجلاً دنيوياً ، فكان زوجاً وأباً وكان يعمل
فى التجارة ويرعى الغنم وكان يحارب ويصافى فى الحروب ويمرض .
ثم مات .

ولما كان الرسول صلعم قوة جبسرة فبىكن أن يقال أيضاً أنه
أعظم زعيم سياسى عرفه التاريخ . . فهذا الامتزاج بين الدين والدنيا هو
الذى جعلنى أؤمن بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو أعظم شخصيات
أثراً فى تاريخ الإنسانية كلها .

هذا رأى حديث ينصف الإسلام ورسول الإسلام ويعطيه حقه :
وأصبح رسول الله بشاهدتهم أعظم إنسان فى الوجود .

وهناك مؤرخ آخر أنصف الإسلام وتعاليم الإسلام وحضارته وهو
المعالم سير توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة الى الإسلام » (١٢) .

يقول : « لم تجيء مهمة تبليغ الرسالة فى تاريخ الإسلام بعد تريت
وتفكير ولسكنها كانت ملقاة على عاتق المؤمنين منذ البداية ، وقد نرى ذلك
واضحاً فى هذه الآيات القرآنية التى ننقلها هنا مرتبة بحسب تاريخ نزولها .
« أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى
أحسن » (١٢) .

(١٢) توماس أرنولد « الدعوة الى الإسلام » ص ٢٧—٢٨ .

(١٣) سورة النحل آية ١٢٥ ذكرت خطأ فى الترجمة العربية ١٢٦ .

« وان الذين أوردوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمزنت بما أنزل الله من كتاب وأنزلت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم . الله اجمع بيننا وبينه المصير » (١٤) .

وفي الآيات المدنية نجد مثل هذه التعاليم . وقد نزلت على محمد بعد ان أصبح على رأس جيشه الكبير في ذروة سلطانه .

« وقل للذين أوتوا الكتاب والأمينين السلمتم : فان أسلموا فحسن اهدوا وان تولوا فمأثمنا عليك البلاغ والله بصير بالعباد » (١٥) .

نذلك يبين الله لسكم ايانه لعلمكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

وهكذا كان الاسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة من الناحية النظرية او الناحية التطبيقية . وقد كانت حياة محمد تمثل هذه التعاليم ذاتها . وكان النبي نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعاة المسلمين . الذين وفقوا الى ايجاد سبيل الى قلوب السكفار ، على انه ينبغي الا نلتمس على روح الدعوة الاسلامية في نسوة المضطهد — او عسف المتعصب ولا حتى في مآثر المحارب المسلم ، ذلك البطل الاسطوري الذي حمل السيف في احدى يديه وحمل القرآن في اليد الأخرى وانما نلتمسها في تلك الأعمال الوديعه الهادئة التي قام بها الدعاة وأصحاب المهن الذين حملوا عقيدتهم الى كل صقع من الأرض ، على أن هؤلاء الدعاة لم يلجئوا الى اتخاذ مثل هذه الأساليب السلمية في نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والافتناع ، بخلاف ما زعم بعضهم حينما جعلت الظروف القوة والعنف أمرا مستحيلا ، يتنافى مع الأساليب السياسية ، فلقد جاء القرآن مشددا في الحض على هذه الطرق السلمية في غير آية منه مثال ذلك :

(١٤) سورة الشورى آية ١٤-١٥ ذكرت خطأ في المرجع السابق آية ١٣ - ١٤ .

(١٥) سورة آل عمران آية ٢٠ ذكرت خطأ في المرجع السابق آية ١٩

« واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ، وذرنى والمكذبين
أولى النعمة ومهلهم قليلا » (١٦) .

« الا بلاغا من الله ورسالاته » (١٧) .

« قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما
بما كانوا يكسبون » (١٨) .

« وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن
ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على
الرسل الا البلاغ المبين » (١٩) .

« فان تولوا فائما عليك البلاغ المبين » (٢٠) .

ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا
منهم ومولوا آمنا بالذى انزل اليكنا وانزل اليكم . والهكم واحد ونحن له
مسلمون » (٢١) .

« فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ » (٢٢)
« ولو شاء ربك لآمن من في الارض جميعا ، امأنت تكره الناس حتى
يكونوا مؤمنين » (٢٣) .

« وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (٢٤) .

ولم تكن هذه التعاليم مقصورة على السور المسكية : وانما وردت
بكثرة في الآيات المدنية كقوله تعالى : « لا اكراه في الدين » (٢٥) .

(١٦) سورة الزمل آية ١٠ .

(١٧) الجن آية ٢٣ ذكرت خطأ في المرجع آية ٢٤ .

(١٨) الجاثية آية ١٤ ذكرت خطأ ١٣ .

(١٩) النحل آية ٣٥ ذكرت خطأ ٣٧ .

(٢٠) النحل آية ٨١ ذكرت خطأ ٨٤ .

(٢١) السجدة آية ٤٦ ذكرت خطأ ٤٥ .

(٢٢) سورة الشورى آية ٤٨ ذكرت خطأ ٤٧ .

(٢٣) سورة يونس آية ٩٩ .

(٢٤) سورة سبأ آية ٢٨ ذكرت خطأ ٢٧٩ بالرغم من ان عدد آيات

هذه السورة ٥٤ آية .

(٢٥) سورة البقرة ٢٥٦ ذكرت خطأ ٢٥٧ .

« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما عنى رسولنا
ابلاغ المبين » (٢٦) .

« قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين » (٢٧) .

« ولا تزن تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح
ان الله يحب المحسنين » (٢٨) .

وهناك أيضا من المستشرقين أمثال المستشرق منلى فى كتابه « اليونان
تحت حكم الرومان » (٢٩) « ان نجاح محمد كمشرع بين أقدم الأمم وأثبت
البلدان قدما فى القانون مدى أجيال طويلة فى شتى نواحي الهيكل
الاجتماعى دليل على ان هذا الرجل الخارق قد كون من مزيج من كفايات
ممتازة » .

أما وليم موير الانجليزى فيقول فى كتابه « حياة محمد » (٣٠)
« ومن صفاته عليه السلام الجدية بالتقوى والاجلال الرقة والاحترام اللتان
كان يعامل بهما أتباعه حتى أقلهم شأنًا ، فالتواضع والرافة الانسانية
وانكار الذات والسماحة والأخاء تغلفت فى نفسه ووثقت به محبة كل
من حوله » .

أما السير توماس كارليل فيقول فى كتابه « الأبطال » (٣١) « لقد
أصبح من العار على أى فرد متمدن من أبناء هذا العصر ان يصفى الى
تلك الاتهامات التى وجهت الى الاسلام والى نبيه ، وواجبنا ان نحارب
ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فان الرسالة التى أداها
ذلك الرسول الكريم مازالت السراج المنير لفحو أربعمئة مليون من
الناس »

(٢٦) سورة التغابن آية ١٢ .

(٢٧) سورة الحج آية ٤٩ ذكرت خطأ آية ٤٨ .

(٢٨) سورة المسائدة ١٣ ذكرت خطأ آية ١٦ .

(٢٩) منير البعلبكي « دفاع عن الاسلام » ص ٤٧ .

(٣٠) المرجع السابق .

(31) T-A Cariel. The Herows and Herows Warshig P. 13

أما برنارد شو فيقول (٣٢) « لقد وضعت دائما ديني (صليبي)
موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة : فهو الدين الوحيد الذى
يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن
يكون جوابا لكل جيل من الناس » .

وبذلك نرى أن هناك فريقا من المستشرقين المنصفين حاولوا أن يكونوا
وجهة نظر محايدة . وأن يكونوا أمناء فى دراساتهم : وأن يدخلوا عن
العصبية والتعصب فى عرضهم للإسلام ومبادئه .

ولكن منهم فريقا القوا عن المسلمين عامة وعن المسلمين العرب
خاصة ومعظمهم ممن يدعون بالمذاهب القاشية أو النازية فى السياسة
والاحتراف وطائفة أخرى هى طائفة الماديين المحدثين الذين يدعون إلى هدم
الجماعات القائمة . ويقولون بأن الأديان كافة عقيدة تعترض الإصلاح
الاجتماعى الذى يلحق الروحانيات ويستبدل بها الماديات فى كل مطلب من
مطالب الدنيا ولا حياة غيرها لأنسان .

وتعيب الإسلام عند هؤلاء الملحدون الماديين أوفر الانحسية وأولاهم
بالقديم فى خطة الهر والشموه لأن المسيحية لاتزاحم مذهبهم الاجتماعى
بمذهب شامل لمساكن التشريع والنظم الاجتماعية والحكومة . ولحق
الإسلام يقيم المجتمع على نظامه . ويقرر الحقوق والواجبات بنظامه ويحيط
بشئون الدين والدنيا فى حياة الأحاد وحياة الجماعات وتغيير البناء الجديد
على أساسه الخالد دون أن يضطر المسلم إلى انكار قاعدة من قواعد
العبادات فيه والمعاملات (٣٢) .

لهذا لابد أن نصل إلى نتيجة هامة وهى أن عمل المستشرقين يناقض
فى كثير من الأحوال الطابع العلمى الصحيح . لهذا السبب ولغيره من
الأسباب . ولم يكن الانحراف عن جادة البحث العلمى خاصا بطائفة من
المستشرقين دون أخرى : فقد كان من الصعب عليهم وأكثرهم مسيحيون
مبدينون أن ينسوا أنهم يدرسون دينا ينكر عقيدة التثليث وعقيدة الصلب

(٣٢) منير البعلبكي « دفاع عن الإسلام » ص ٤٨ .

(٣٣) عباس العقاد « مايقال عن الإسلام » ص ٩ .

والفداء . وهما أسس الدين المسيحي . كما كان من التفسير أيضا ان
سمافلوا عن الفتوحات الاسلامية التي بدأت في عهد الخليفة الاول ثم
تقضت على المسيحية واحلت الاسلام محلها .

الحقيقة ان هذه الحقائق عملت عملها في نفوسهم فدفعتهم الى
الانحراف والتخلي عن مبدأ الحيادة التامة فيما يتعاملون من دراساتهم ومن
عنا مسار من الطبيعي الا نأخذ نتائجهم بروح التسليم والثقة واصبح من
الواجب ان ننظر اليها بعين الحذر والتحفظ .

ومما يؤكد قولنا هذا هو ان هناك فريقا آخر من المستشرقين الذين
حاولوا ان يتجردوا من العواطف الدينية ، وقد أعربوا عن انكارهم للانحراف
العلمي الذي وقع فيه كثير من زملائهم وسنورد بعضا مما قالوه من هذا
الصدد .

يقول الأستاذ مونجمري وات (٢٤) .

« جد الباحثون منذ القرن الثاني عشر في تعديل الصور المشوهة
التي تولدت في أوروبا عن الإسلام : وعلى رغم الجهد العلمي الذي بذل
في هذا السبيل ، فإن آثار هذا الموقف المجافي للحقيقة التي أحدثتها كتابات
القرون الوسطى في أوروبا لازالت قائمة : فالبحوث والدراسات الموضوعية
لم تقدر بعد على اجتبابها » .

ويقول الأستاذ برنارد لويس في كتابه « العرب في التاريخ » (٢٥)
« لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في : وثائق عدد من العلماء
المعاصرين ومستقرة في الغالب وراء الحواشي المخصوصة في الأبحاث
العلمية » .

ويقول الأستاذ المستشرق الانجليزي جيب في كلامه عن بحوث
المستشرقين « لقد قامت في صفوفهم في السنوات الأخيرة محاولة ايجابية

(٢٤) ابراهيم اللبان « والمستشرقون والاسلام » ص ٣٦ .

(٢٥) برنارد لويس « العرب في التاريخ » ص ٦٢ .

تحاول النفوذ بصدق وإخلاص إلى أعماق الفكر الديني للمسلمين ، بدل
السطحية النافذة التي اصطلت بها دراساتهم السابقة » (٢٦) .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن القارئ بالأحكام التي سبق أن صدرت
عن الإسلام واتخذت صورة تقليد منهجي في الغرب مازال قويا
في بحوثهم » .

ويقول الأستاذ نورمان دانيل « على رغم المحاولات الجديدة المخلصة
التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرك من المواقف التقليدية
للكتاب المسيحيين عن الإسلام ، فإنهم لم يتمكنوا أن يتجردوا ، أنها مجردا
تاما كما يتوهمون (٢٧) » .

لا نريد أن نمضي إلى أبعد من هذا في إيراد الأحكام التي صدرت
من بعض المستشرقين المتحسين على زملائهم المتعصبين ، فهذا القدر كاف
بالنسبة لغرضنا .

(٢٦) إبراهيم اللبان « المرجع السابق » ص ٢٦ .

(٢٧) المرجع السابق ص ٢٧ .

هجوم المستشرقين على الإسلام

من أهم من كتب في الهجوم على العقيدة الإسلامية المستشرق اليهودي الأصل المجرى المولد جولدزيهر والذي يعتبر من أشهر علماء الغرب في مجال الاستشراق ، لأنه قد قصد أشهر مدارس الاستشراق للدراسة في برلين وليبزيغ وبودابست ، وسافر إلى سوريا سنة ١٨٧٣ وصحيفتها الشيخ طاهر الجزائري ، ثم توجه إلى فلسطين ومصر ، حيث تطلع في العربية على شيوخ الأزهر (١) وعلى الرغم من ذلك إلا أنه في جميع آرائه وأحكامه عن الإسلام لم يتخل عن نزعته اليهودية فالف كتابا عن « تاريخ الجنس البشري » صور فيه الإسلام أنه من وضع محمد عليه الصلاة والسلام وأن محمدا كان تلميذا لليهود .

والواقع أن فكرة استمداد الرسول القرآن من اليهودية قد استخدمها المستشرقون أوسع استخدام ، فأنهم لم يقتصروا على أن ادعوا أن الرسول استمد القصص القرآني من قصص التوراة ، بل ذهبوا إلى أبعد من هذا ، فادعوا أن الرسول استمد كثيرا من أحكام الشريعة الإسلامية وفي شاموس الإسلام لهيوز نرى نماذج كثيرة لهذه المحاولة في مادة اليهودية يحاول هيوز أن يرينا كيف اعتد الرسول على اليهودية فانتبس منها كثيرا من أحكام الطهارة وغيرها (٢) .

ويشارك جولدزيهر رأيه « جورج سيل » وهو أحد مترجمي القرآن المبكرين يقول في مقدمة ترجمته :

« أن محمدا كان في الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسي له فلم لايقبل الجدل ، وإن كان من المرجح ، مع ذلك أن المعاونة التي حصل

(١) نجيب العقيلي « المستشرقون » ص ٢٨١ .

(٢) اللبان « المرجع السابق » ص ٤٥ .

عليها من غيره في خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة ، وهذا واضح في أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك نفسه « (٢) » .

وإذا كان جورج سبيل قد بت في مصدر القرآن على النحو السابق فجعل الرسول مؤلفه دون موارد ، فإن الاستاذ « ريتشارد بل » مؤلف كتاب مقدمة القرآن قد سد النقص الذي تركه جورج سبيل في تلك الاكثوية فاستظهر أن الرسول قد استمد من الكتاب المقدس كثيرا مما جاء في القرآن وبخاصة القصص فهو يقول :

« واعتماده على الكتاب المقدس وبخاصة العهد القديم في قسم القصص فبعض قصص العقاب كقصص عاد وثمود مستمد من مصادر عربية ولكن الجانب الأكبر من المادة التي استعملها محمد تفسر تعاليمه يدعمها قد استمدته من مصادر يهودية ومسيحية . وعنده أنه حصل على أربع فرصة للاستمداد من الكتاب المقدس حينما هاجر الى المدينة فهو يقول « وفي المدينة كان محمد بالنسبة لمعرفة ما في كتاب العهد القديم في وضع أفضل من وضعه السابق في مكة فقد كان على اتصال بالجاليات اليهودية التي كانت دون شك تضم ربايين ومثقفين ، وهناك دلائل على أنه انتفع بهذه الفرصة فحصل على قسط غير قليل من المعرفة بكتاب موسى على الأقل » (٤) .

والتي جانب ما كتبه جورج سبيل ، فهناك ما كتبه ج . ايزاك في كتابه « محاضرات للشرق الأدنى في العصور الوسطى » جاء فيه ص ٣١ .
وانفق محمد في أثناء رحلاته أن يتعرفه شنيئا قليلا من عقائد اليهود والنصارى ، ولما اشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى اقنعتة بأن الله اختاره رسولا .

ص ٣٢ : والقرآن مجموع ملاحظات كان تلاميذه يدونونها بينما هو يتكلم ، وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا المسالم على الاسلام بالسيف ١٥٠ اقتضت الضرورة .

(٣) اللبان « المرجع السابق » ص ٤٣-٤٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٥ .

ص ٣٦ : وينمسا كان محدود بعد كان المؤمنون به بدون كلفاته
على عجل .

ص ١٢٦ : ودخلت فلسطين في سلطان الكفرة منذ القرن التاسع
الميلادي (٥) .

وهناك كتاب آخر اسمه « تاريخ فرنسا » تأليف هـ غيومان :
فـ لوستيخ .. جاء فيه :

ص ٨٠ — ٨١ : « ان محمدا مؤسس دين المسلمين ، قد امر
اتباعه ان يخضعوا العالم ، وان يبدلوا جميع الأديان بدينه هـ ، باعظم
الفرق بين هؤلاء الوثنيين . وبين النصارى . ان هؤلاء العرب قد فرضوا
دينهم بالقوة وقالوا للناس « اسلموا أو تموتوا » في حين ان اتباع المسيح
يحووا النفوس ببرهم واحسانهم . باذا كانت حال العالم لو ان العرب
انتصروا علينا ، اذ لكنا نحن اليوم مسلمين كالجزائريين والمراكشيين (٦)

وفي مسألة وضع القرآن بسر المستشرقون في هذا الاتجاه الخاطيء
يمكثون على آرائهم في ان القرآن الكريم ، موضوع وليس وحيا من
عند الله ، انه مرآة لانقي خاص من الحياة هو أفق من عقائد تلك العقائد
المنتشرة في رقعة الجزيرة العربية لاسواها . ومن هؤلاء المستشرقين
المستشرق الانجليزي حب استاذ الدراسات العربية بجامعة هارفارد
بالولايات المتحدة . في كتابه « المذهب الحمدي » وكتاب سفيكر تسندل
« مصادر الاسلام » فهما يؤكدان ان شرائع الاسلام تأسست من شرائع
الأديان المعاصرة له والمنتشرة وقتئذ في الشرق الا وهي اليهودية والمسيحية
والهندية والصابئة والفارسية والجاهلية (٧) .

ويحسن بنا ان نورد نموذجا لافتراءاتهم في هذا الموضوع ليتبين لنا
مدى خطورة ما يكتبون في كتبهم .

(٥) مصطفى خالدي « التبشير والاستعمار » ص ٧٤ .

(٦) المرجع السابق ص ٧٥ .

(٧) ابراهيم خليل « المستشرقون والمبشرون » ص ٣٠ .

(م هـ — الاستشراق)

لقد زعموا أن الاسلام أخذ من الجاهلية صلاة الجمعة وصوم عاشوراء
وتجليب البيت الحرام وحذف الذكر في المراث مثل حظ الأنثيين ، التكبير ،
الأشهر الحرم ، والحج والعمرة ، نفث الإبط والوضوء والاغتسال والختان
بإتلاف الأظفار .

وأخذ من الصابئة الصلوات الخمس ، والصلاة على الميت ، وصيام
شهر رمضان ، والقبلة وتعظيم مكة ، وتحريم الميتة ولحم الخنزير ، وتحريم
الزواج من القرابات .

وأخذ من الهندية والفارسية ، قصة المعراج والجنسة والحدود
والولدان والصراف .

وأخذ من اليهودية ، قصة قابيل وهابيل ، وقصة إبراهيم وقصة
ملكة سبأ وقصة يوسف .

وأخذ من النصرانية قصة أهل الكهف وقصة مريم العذراء وقصة
طفولة يسوع .

ومن هذا يخلصون بأرائهم إلى القول بأن القرآن ليس وحيا من
الله إذ أنه لو كان وحيا من عند الله لكان للناس جميعا في كل مكان وكل
زمان (٨) وأمام هذه النزعات الخطيرة ضد الاسلام يقول الله سبحانه
في شأن القرآن « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٩) ويقول عن
الرسول الكريم وعن العرب الذين بعث فيهم « هو الذب بعث في الأميين
رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن
كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، وآخرين منهم لم يلحقوا بهم وهو العزيز
الحكيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (١٠)
ويقول « انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ولا
يقول كاهن قليلا ماتذكرون تنزيل من رب العالمين » (١١) ويقول « الذين
يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدهونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل

(٨) إبراهيم خليل « المستشرقون والمبشرون » ص ٨٤ .

(٩) سورة الحجر آية ١٥ .

(١٠) سورة الجمعة آية ٢ : ٤ .

(١١) سورة الحاقة آية ٤٠-٤٣ .

يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » (١٢) ويقول جُل وعلا في عموم رسالته « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١٣) .

ويرى الأستاذ عباس العقاد في هؤلاء الذين ينتقدون القرآن « المبشرين المتخصصين لنقد القرآن وعقائد الاسلام آفة من هذه الآفات ، فليس فيمن عرفناه منهم واحد يسلم من التخطي في التفكير كما يتخطى المصابون بالعلل العقلية ، او يملكه التعصب الذميم فيقوده الى المغالطة ، ويسول له ان يحجب الحقيقة عن عينه بيديه ، او يعمل عمل المحترف الذي يحتال لصناعته بما وسعه من وسائل الترويع والتضليل ، ولا يعنيه الا ان يعرض بضاعته ويهيئ لها اسباب النفاق في السوق ، وربما اكتفى من النفاق باقناع صاحب البضاعة بصدق الخدمة في العرض والترويع » (١٤) فالقرآن الكريم معجزة خالدة لرسالة خالدة ، ودراسته تنفي ان يكون شيء من كلام البشر ، والموازنة بينه وبين الاحاديث النبوية تؤكد ان النبي محمدا صلى الله عليه وسلم لا تقدر له على الاتيان بقرآن مثله وما فيه من تشريع ديني واجتماعي وسياسي وقوانين ومعاملات وشئون اسرة وعلاقات خارجية ونظام حروب لا يمكن ان يقوم به فرد واحد مهما كانت دراسته ، الى جانب اخبار القرآن بأفاصيل الامم السابقة وأنباؤه بحوادث مستقبلية ، وتحذره عن خواطر انفسنا ونوازعنا وغرائزنا مالم نهتد اليه الا في ضوء علم النفس الحديث ، وقد الفت كتب عديدة لدراس الاعجاز القرآني (١٥) .

فمن ذلك نخلص الى ان جميع هذه الافتراءات التي يفترى بها المستشرقون على القرآن الكريم ، الذي هو مصدر الهى بلفظه ومعناه ، ليس من عمل محمد ، وانما هو قول وحى كريم هو جبريل تلقاه من لدن حكيم عليم ثم أوحاه بلسان عربي مبين الى قلب محمد فتلقفه محمد منه كما يتلقن

(١٢) سورة الاعراف آية ١٥٧ .

(١٣) سورة سبأ آية ٢٨ .

(١٤) عباس العقاد « مايقال عن الاسلام » ص ١٦٩ .

(١٥) عبد الجليل شليبي « الاسلام والمستشرقون » ص ٦٩ .

التلميذ من استاذة نصا من النصوص ولم يكن له من عمل بعد ذلك الا :

- ١ — الوعى والحفظ « سنقرئك فلا تنسى » .
- ٢ — الحكاية والتبليغ « وقرآنا فرقناه لتقراء على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » .
- ٣ — البيان والتفسير « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » .
- ٤ — التطبيق والتنفيذ « انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله » (١٦) .

وقد نقل اليينا هذا القرآن كاملا متواترا نقلته اجيال عن اجيال تلاوة باللسنة ، وحفظا في الصدور ، وكتابة في المصاحف وشهادة في التاريخ بتواتر هذا الكتاب شهادة ناصعة لا يماثلها ولا يدينها شهادة لكتاب غيره ظهر على وجه الارض . هذا الكتاب هو المصدر الوحيد لمعتقد الاسلام والمصدر الاول لنظمه وتشريعاته وآدابه وتوجيهاته وقد تلقاه المسلمون بالشرح والتفسير والتحليل ، كل في مجال عمله واختصاصه واستنبطوا منه احكام دينهم واصول مجتمعهم ، هذا في مجال العقيدة ، وذاك في مجال الفقه والتشريع وثالث في مجال الاداب والاخلاق . وقد وضعوا الاسس السليمة والقواعد المتينة لفهم هذا الكتاب والاستنباط منه وفق ما عرفوه من اساليب لغتهم العربية وما خطبه لهم النبي من توجيهات وما فهموه من جملة تعاليم الاسلام وروحه العامة .

ولم يجد هؤلاء العلماء في آيات هذا الكتاب الا التناقض والاختلاف فهي يصدق بعضها بعضا ويفسر بعضها بعضا وما يظنه القاصرون الذين يجهلون اسرار اللغة العربية واساليبها تعارضا او اختلافا فما هو بالتعارض او الاختلاف ، وانما هي نصوص عامة تقبدها نصوص خاصة او آية مطلقة تفسرها آية مقيدة وهكذا (١٧) .

نعم ان في القرآن آيات محكمات وآخر متشابهات ، كما قال تعالى :
« هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب وآخر

(١٦) الفرضاوى والعيسال « الاسلام بين شبهات الضالين » ص ٣٥

(١٧) المرجع السابق ص ٣٦ .

منشأتهات ، فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيشعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الى الله والراسخون فى العلم يقولون امنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولو الالباب » (١٨) .

ويقف المستشرقون المعاصرون عند نصوص معينة من القرآن ينخدون من فهمهم الخاطيء لها دليلا على أن محمدا استقى تعاليمه من الكتابيين وليس فيها دليل على مايرسدون . فمقد ذكر المستشرق الانجليزى الفردجيوم (١٩) والمستشرق الأمريكى فردريك بلس أن الآية انى نقول : « يا اخت هارون ما كان أبوك امرا سوا وما كانت أمك بغيا » (٢٠) قد اختلطت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول جيويم : ان محمدا كان دارسا مبتدئا للكتاب المقدس - فظن أن مريم أم عيسى عليه السلام هى مريم أخت هارون ، مع أن بين عيسى وهرون زمنا طويلا . ويقول بلس « خاطب القرآن السكريم مريم على لسان قومها بعد أن ولدت عيسى ولم يكن لها زوج بقوله يا اخت هارون ما كان أبوك امرا سوا وما كانت أمك بغيا ، ويقول كيف تكون مريم أخت موسى التى عاشت قبل المسيح بالثلاث وأربعمئة عام هى أم المسيح » .

ومن العجيب أن يتناقل الفكرة آخرون ويتمسكوا بها ، وكلمة أخت فى اللغة العربية لاتعنى فقط الأخوة فى النسب ، وانما تعنى مع ذلك الشبيه والمائل . وقد كانت مريم أم المسيح معروفة بورعها وتقيها وهى الأنثى الوحيدة التى تقبلها ربها بقبول حسن وأثبتها نباتا حسنا . وكانت تشبه بهارون فى ورعها وتقواها (٢١) .

رسالة ١ : اء اءلف فنزار وهو دكتور فى الفلسفة فهم تائه تعالى مخاطبا رسوله السكريم : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (٢٢) ولم يفهم المعنى الصحيح البسيط وأن الجملة استفهام إنكارى لا استفهام عادى » (٢٣) .

(١٨) سورة آل عمران آية ٧ .
(19) A. Guillaume The legacy of Israel. P. 18.

(٢٠) مصطفى خالدى « التبشير والاستعمار » ص ٤١ .
(٢١) سورة مريم آية ٢٨ .
(٢٢) سورة يونس آية ٩٩ .
(٢٣) مصطفى خالدى « التبشير والاستعمار » ص ٤١ .

وعلى الرغم من هذا الهجوم المستعمر الا ان هناك عتولا مستنيرة حاولت ان تقف موقف الجسدية والبحث العلمى التزييه ، فنرى المستشرق ديزيريه بلانشيه مؤلف كتاب « دراسات فى التاريخ الدينى » يقول « لقد أتى محمد بكتاب تحدى به البشر جميعا أن يأتوا بسورة من مثله فشد بهم المعجز وشملتهم الخبيسة وبهتوا امام ذلك الاحراج القوى الذى اغلق فى وجوههم كل باب » (٢٤) .

ويقول الأستاذ ديرمانجيم « لقد تحدى محمد الانس والجن أن يأتوا بمثله وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل ، ولم يكن الأمر من القرآن متعلقا بقيمة أدبية استثنائية . فان محمدا كان يحتقر الشعراء ودفع عن نفسه أن يكون واحدا منهم . ولكن الأمر متعلق بشئ آخر غير هذه القيمة وهو الفرق بين وحى الاله وتلقين الشياطين » (٢٥) .

فبذلك فالقرآن برىء وأكبر من أن ينال منه هؤلاء الحانسدون فهو معجزة دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه ، فالقرآن كلام الله تحدى به الغرب أن يأتوا بمثله فعجزوا « فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » (٢٦) وقوله تعالى : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » (٢٧) وقوله تعالى : « لن اجتمعن الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٢٨) وقوله تعالى « ام يقولون إفتراء قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (٢٩) .

وفعلنا لم يجرؤ أحد على مر العصور على التحدى وعلى الاتيان بمثله ، خاصة وأن القرآن نزل على قوم يتمتعون بالبلاغة والفصاحة ومنهم الشعراء والخطباء ، فلم يبق الا كلام الله وليس كلام البشر ، وظل القرآن يتحدى على مر العصور ، فالقرآن اذا معجزة خالدة تشهدنا نحن الان كما

(٢٤) محمد غلاب « نظرات استشرافية » ص ٣١ .

(٢٥) محمد غلاب « نظرات استشرافية فى الاسلام » ص ٣١ .

(٢٦) سورة الطور آية ٣٤ .

(٢٧) سورة البقرة آية ٢٣ .

(٢٨) سورة الاسراء آية ٨٨ .

(٢٩) سورة يونس آية ٢٨ .

شهدها الذين أنزل القرآن فيهم لم تغب منه كلمة ، ولم تضم اليه أخرى .
وكما جاء فيه « أنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون » (٢٠) وجاء أيضا
« وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث » (٢١) .

موقف المستشرقين من السنة النبوية :

يزعم المستشرق المجري جولدزيهر أن الاسلام دين تطور على يد
المسلمين ، وذلك بكثرة الإضافات التي جعلت كيان هذا الدين يصل الى
حد لم يعرفه محمد صلى الله عليه وسلم . وأول هذه الإضافات السنة ،
فإن الوفاء الأحاديث التي ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم نطق بها
هي من صنع العلماء الذين أرادوا أن يجعلوا من الاسلام ديناً كبيراً شاملاً ،
فخلطوا هذه الأحاديث ويذكر « أن تعاليم القرآن نجد تكملتها واستمرارها
في مجموعة الأحاديث المتواترة ، وهي وإن لم ترو عن النبي « صلى الله
عليه وسلم » مباشرة ، تعتبر أساسية لتمييز روح الاسلام » (٢٢) .

ويقول أيضا « أن هذه الأحاديث وغيرها من النصوص المماثلة والتي
يسهل علينا جمعها لاتمثل الأخلاق فحسب بل إنها لتعبر عن العاطفة العامة
لفقهاء المسلمين ، ولكن الاسلام خلال توسعه التالي وبفعل التأثيرات
الأجنبية ترك مجالا لدقة العلماء المعنيين ولعلماء العقائد » (٢٣) .

ولابد لنا قبل أن نرد على هذا الهجوم أن نعرف معنى السنة، فالسنة
ليست إلا الطريقة العملية المضطردة التي نقلت عن الرسول نقلا متواترا
عمليا معروفا عند السكافة ، ومن الوصايا بها على هذا المعنى ماورد من
أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء
الراشدين من بعدي » وقوله صلى الله عليه وسلم « من رغب عن سنتي
فليس مني » فإن سبيلها في هذين هو سبيلها في الرصية السابقة (٢٤) .

-
- (٣٠) سورة الحجر آية ٩ .
 - (٣١) سورة الاسراء آية ١٠٩ .
 - (٣٢) جولدزيهر « العقيدة والشريعة » ص ٣١ .
 - (٣٣) المرجع السابق ص ٣٣ .
 - (٣٤) حمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٤١ .

وقد أخذت كلمة سنة عند علماء الأصول معنى آخر وهو ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال أو أفعال أو تقريرات . وكانت بهذا المعنى المصدر الثاني من المصادر التشريعية ، يستنبطون منها كما يستنبطون من المصدر الأول وهو القرآن ، ويرجعون إليها في فهم المراد منه .

أما الفرق بين القرآن والسنة فيرجع أولا إلى أن القرآن قد اتخذ له الرسول صلى الله عليه وسلم كتابا يكتبونه ، ويرتبونه بآياته وسوره حسب ما أمر به من الله ، بينما السنة لم يتخذ لها كتابا ، ولم يكتب منها الا القليل ، بل ورد النهي عن كتابتها بحفظها في الصدور .

ثانيا : القرآن لم ينقل منه شيء بالمعنى . ومنع ذلك فيه ممعا باتا في حين أن السنة قد أبيع فيها ذلك ، ونقل كثير منها بالمعنى ، ولا يخفى تفاوت الناس في فهم المعنى وأسلوب التعبير والنقل .

ثالثا : القرآن نقل بالنسا بالتواتر حفظا وكتابة ، ولكن السنة ، قد نقل معظمها بطرق الأحاد ، ولم يتواتر منها الا القليل .

رابعا : كان الأصحاب يراجعون النبي صلى الله عليه وسلم عند اختلافهم في حرف من القرآن ، وكان يحكم بينهم فيه ، أما بتعيين احدي القرآنين أو بإجازتهما ، ولكن السنة لم يعهد فيها شيء من ذلك (٣٥) .

هذه هي حقيقة السنة المحمدية التي حاول هذا المشرق وغيره الحط من شأنها ورميها باتهامات كثيرة كما رأينا . فكيف تكون هذه الاتهامات والرسول الذي أثرت عنه هذه السنة ظل قرابة ربع قرن يعظ الناس ويعلمهم ويربيهم ويفتيهم ويبصرهم بما يدعون ويفعلون .

وكان عمله وقوله بداهة يسيران بين يدي الوحي النازل عليه من السماء ، وهذا التراث من الأموال والأعمال تلقفه المسلمون بعناية وتقدير بحكمة والموازن التي وضعوها لقبول السفن وردھا لاتعرف الدنيا ادق ولا اعدل منها .

فالسنة كما ذكرنا في المصدر الثاني في الاسلام . واذا ثبت ان محمدا رسول الله يوحى اليه كان لما يقوله ويبيد اليه في مبين هذا الاسلام وتوضيح معالمه وتطبيقه في الحياة منزلة الوحي المعنوي .

« وما اتاكم الرسول فخذوه . وما نهاكم عنه فانتهوا » هذه السنة مشئت في رحاب القرآن ، وعبرت عن روحه شارحة موضحة ، وبرت للناس ابواب الفهم والتجديد في امور حياتهم المتطورة التي تتجمل بوسائل المعاش التي تتغير بتغير البيئات والازمان ، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « انتم اعلم بشئون دنياكم » (١٦) .

وقد وجدت هذه السنة من الرعاية في حفظها وجمعها وتقنينها من الدخيل عليها ، مالا يزال التاريخ العلمى يذكره بالفخر والاعجاب .

فقد حاول اعداء الاسلام ان يدسوا فيها ما ليس منها ليكفروا نقاءها فوضعوا احاديث مكذوبة ، وروايات ملفقة ، ونسبوا زورا الى رسول الله منتهزين ما حاق بالمسلمين من فتن في فترة من الدهر ، ولكن سرعان ما وقف الافذاذ من سلف هذه الامة الذين كرسوا حياتهم بطوفون البلاد وبجوبون القفار بحثا عن صحيح السنة ، وكشفوا عن زائفها ، وكان العهد قريبا بالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، والامة العربية امة حفظ ووعى ، فوضع هؤلاء العلماء الاصول والقواعد للرواية وبحثوا عن الرجال وجرحوا وعدلوا ، والفوا الكتب الكثيرة في التاريخ والسير والاسماء ، ولم يأخذوا الا عن ثقة عدل حافظ ضابط ، حتى لقد افردوا كتبنا للنقاة من الرواة ، وكتبنا للضعفاء ، وذلك جهد لم يعرف لامة في صيانة تراثها وتراث نبيها .

وما يقال انهم اهتموا بسند الحديث ورواته دون موضوعه او مثله فهذا كلام غير صحيح ، لأنهم اهتموا بالموضوع غردوا الحديث الشاذ المخالف لما عرفوا من اصول وردوا الاحاديث لعل قاذحة تتصل احيانا بالموضوع كما تتصل بالسند ، نعم انهم وجهوا جل همهم الى السند والرواة لان الموضوع تختلف العقول في قبوله ، ورده حسب عصورهم وتقافتهم وما

خان يعتبر صحيحا مقبولا بالأمس قد يعتبر خطأ مرفوضا اليوم وبالعكس (٣٧)
فقاموا بما عليهم في نقد الرواء وتجلية حالهم وتركوا لمن يأتي بعدهم مهمة
الحكم على موضوع الحديث بما يتفق وما عندهم من وسائل الفهم وموازين
النقد . وهناك رد على جولدزيهر من قبل الأستاذ الغزالي يقول : وهنسا
نتساءل نحن : كيف يتصور هذا المستشرق أن الاسلام ينمو ؟ أن المقطوع
به لدينا وفق النصوص المجمع عليها . أن الاسلام في حياة الرسول
اكتمل في عقائده وعباداته وأخلاقه وأحكامه ، ونصوصه وقواعده ، وأن
الرسول انتقل الى الرفيق الأعلى وترك الاسلام على هذا النحو ، وأن
المسلمين من القرن الأول الى يوم الناس هذا يعتبرون أي تزيد على الدين
بدعة تحارب ، ويرفضون من أي مخلوق ومن أي جماعة أن يضموا الى
هذا الدين جديدا ، فكيف ساغ لهذا المستشرق أن يركب هذا
الشطط ؟؟ (٣٨) .

الفقه الاسلامي والمستشرقون :

لم ينج الفقه الاسلامي من هجمات المستشرقين بل انهم بدأوا يشككون
فيه ، ويذكرون أن هذا الفقه مستمد من القانون الروماني ومعتد عليه
اعتمادا كبيرا ، كما أنهم عدلوا مواد هذا القانون طبقا للظروف المحلية
وأن هذا التراث الذي خلفوه ليسوا بأربابه وأن الامامين مثلا الاوزاعي
والشافعي قد درسا القانون الروماني في مدرسة بيروت القانونية (٣٩)
ومن المستشرقين الذين يزعمون ذلك جولدزيهر في كتاب « العقيدة والشرعية
في الاسلام » وكذلك دي بور الذي يقول « بعد أن فتح المسلمون بلادا
ذات مدن قديمة نشأت حاجات لم يكن للاسلام عهد بها وحلت محل
نئون الحياة العربية البسيطة عادات وانظمة لم يرشد لها التشريع
ارشادا دقيقا الى وجه الحق فيها ، ولم يرد في السنة بالنفي ولا بالتأويل
ما يبين الطريق الى معالجتها . ثم اخذ عدد الوقائع الجزئية يزداد يوما بعد
يوم وهي لم ترد فيها نصوص ولم يكن للمسلمين بد من الحكم فيها ، اما
بما يتفق مع العقل ، واما بما يهديهم اليه ادراكهم لمعنى الخير ، ولا بد من

(٣٧) القرضاوى والعسال « المرجع السابق » ص ٣٨ .
(٣٨) محمد الغزالي « دفاع عن العقيدة والشرعية » ص ٦٤ .
(٣٩) محمد الدسوقي « الاسلام والمستشرقون » ص ٤١ .

أن يكون القانون الروماني قد ظل زمنا طويلا يؤثر تأثيرا كبيرا في هذا الاتجاه في الشام والعراق وهما من ولايات الامبراطورية الرومانية « (٤٠)

ويقول المستشرق ايموس « ان الشرع المحمدي ليس الا القانون الروماني للامبراطورية الشرقية معدلا وفق الاحوال السياسية في الممتلكات العربية » (٤١) .

ويقالى المستشرقون في حكمهم على الفقه الاسلامي حتى نرى منهم طائفة تذكر ان الفقه اعتمد اعتمادا كبيرا على الاجتهادات التي تجعله بذلك دينا مصفيا ، كما أنهم وعلى رأسهم المستشرق الأمريكي ارنست جارسون في كتابه « The march of faith » يذكرون ان الاسلام ماهو الا عمليات نهائية وهي عبارة عن مزيج مشوه من الاراء والمدركات الخاطئة (٤٢) .

ومن هؤلاء المستشرقين ايضا سالون اسنرتزن الذي تخصص في الفقه والتاريخ الاسلامي ، وكذلك المستشرق الفرنسي دي كوروا التخصص في التشريع الاسلامي والمذاهب الاسلامية وكذلك المستشرق الفرنسي بوتييه الذي درس مذاهب المسلمين ، ببلين الذي ترجم الاجازة في فنون التدريس عند الاسلام في المذهب الحنفي والجهلاد والزكاة والنشارع الاسلامية (٤٣) .

ولكن هناك بعض المنصفين مثل المستشرق الايطالي نلينو الذي كتب موضوعا عن « نظرات في علاقات الفقه الاسلامي بالقانون الروماني وفيه يذكر ان دومنيكو غانيسكي كان اول من زعم ان القانون الاسلامي في جوهره مستمد من القانون الروماني ، ولكنه كان لايعرف العربية ولا التركية بل اهتم بالمسائل القانونية والقضائية » (٤٤) .

(٤٠) محمد الدسوقي « الاسلام والمستشرقون » ص ٤٩-٥٠ .

(٤١) محمد الدسوقي « الاسلام والمستشرقون » ص ٥٠ .

(42) Garrison. The March of faith P. 66.

(٤٣) نجيب العتيقي « المستشرقون » ج ٢ مثيرق .

(٤٤) صلاح الدين المنجد « المتقى في دراسات المستشرقين » ص ٤٦ .

وانتشر هذا الرأي حتى ثابوا ان هناك مقارنة بين قوانين حنين والتشريع الاسلامى ، وزعموا ان القواعد الرومانية دخلت فى الاسلام فى زى الاحاديث الموضوعية التى نسبت الى محمد .

ومن هؤلاء هنرى هيوك الذى قال ان الفقه الاسلامى فى الاساس ليس الا القانون الرومانى بتعديل لا يذكر (٤٥) .

ويذكر الأستاذ نلينو أدلة متينة على خطأ هذه الآراء بين ذلك أنهم يتصيدون بكل جهد التشابهات ويهملون الإشارة الى الاختلافات التى تعتبر محطاً بين قيمة التشابهات وقدرها ، كما أنهم أهملوا الفرق العظيم الذى يوجد بين الغرب القديم وبين العالم الاسلامى فى تصور القانون وفى مصادره ، كما أن الغرب كان يخلط عندما يتكلم عن القانون الوضعى بينه وبين الفقه الاسلامى لأنه لا توجد ترجمة حرفية للانجليزية مثلاً لكلمة فقه الا Law بمعنى قانون وثمان بين الفقه الذى يبحث علاقة المؤمن بالله وبنفسه وبسائر أبناء جنسه وبالعبادات والاحوال الشخصية والوراثة والحقوق المالية والأوقاف والحدود والسير ، ولذلك نجد أن مايفهمه علماء أوربا عن الفقه الاسلامى هو اختلاف بين القضايا الفقهية » (٤٦) .

والحقيقة ان المزايم الضالة التى نادى بها المستشرقون ان دلت على شىء قائماً تدل على جهل الباحثين بحقيقة الشريعة الاسلامية وكنا نعلم هؤلاء المستشرقين لو أن القانون الرومانى والتشريع الاسلامى يتفقان فى المنابع والغايات او يتشابهان فى الحقوق والواجبات او يمتزجان فى المبادئ والعقوبات .

اما الشريعة الاسلامية فهى تناقض القانون الرومانى فى القيم الاخلاقية والاجتماعية وتخالفه مخالفة واسعة الأمد فى النظرة الى الانسان وإلى الحياة كلها ، فان القول باستفادة الفقه الاسلامى من الرومان قول بين البطلان .

فالفقه الاسلامى يستقى أولاً وآخراً من الوحي ، وقد امدد الكتاب

(٤٥) المرجع السابق .

(٤٦) المرجع السابق ص ٤٧ .

والسنة بأحكام كلية وجزئية لا تحصى ، أحكام تتناول الإنسان منذ نعومة أظفاره الى مثواه الأخير (٤٧) .

والمعروف أنه لم توجد في الحضارات القديمة أية كتب في الفقه واشتغلت بالشئون التشريعية الى حد الاسراف مثل ما اثر ذلك عن الحضارة الاسلامية والامة الاسلامية ، فالفقه الروماني لا يعدو ان يكون نظميا ضعيفا خلطه أكثر من صوابه لمجتمع تحكمه علاقات فوق البدائية حينما ودونها حينما آخر . وقد قدم ابن خلدون في مقدمته تفسيراً للفقه الاسلامي بأنه « هو معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والاباحة وهي مقلدة من الكتاب والسنة ، وما نصبه الشارع لمعرفة من الأدلة ، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه ، وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيما بينهم ، ولابد من وقوعه ضرورة أن الأدلة من النصوص وهي بلغة العرب ، وفي اقتضاءات الفاظها الكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف ، وأيضا فالسنة مختلفة الطرق في الثبوت وتعارض في الأكثر أحكامها فتحتاج الى الترجيح ، وهو مختلف أيضا ، فالأدلة من غير النصوص مختلف فيها وأيضا فالوقائع المتجددة لا تنفي بها النصوص وما كان منها غير ظاهر في النصوص فيحمل على نصوص لشابهة بينهما ، وهذه كلها إشارات للخلاف ضرورة الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والائمة من بعدهم » (٤٨) .

ومن هذا النص يتضح لنا أن هناك فرقا واضحا بين الشريعة الاسلامية والفقه الاسلامي فالشريعة هي النصوص المقدسة من الكتاب والسنة والفقه هو استنباطات الفقهاء في دائرة النصوص او فيما لانص فيه . والشريعة ثابتة لا تتغير ولا تتطور أما الفقه فهو من متحرك يتغير ، يتطور والشريعة وحى الله والفقه عمل الانسان اجتهادا لتفسير الشريعة الله وليسكن منها قلنا الفقه من صنع العقل الاسلامي ، فان فقهاء المسلمين كانوا يحرمون حسب طائفتهم على أن يكون اجتهادهم داخل اطار الشريعة ، وتبعاً لما يحاولون التحرر من الأهواء الذاتية ما استطاعوا ولم يهدف الفقهاء في فقههم الا الى ما هدفت اليه الشريعة من رعاية مصالح العباد

(٤٧) محمد الفزالي « دفاع عن العقيدة والشريعة » ص ٨٦

(٤٨) ابن خلدون « المقدمة » ج ١ ص ٨٠٤ .

كما عبر عن ذلك الشاطبي ، لم يهدفوا الى رعاية مصلحة خاصة لطائفة أو فرد أو خليفة ، كيف وكلهم رفضوا المناصب والتربى من الخلفاء وتحملوا الأذى فى سبيل تجردهم العلمى .

رفض أبو حنيفة القضاء ، وتقبل السجن راضيا ، وضرب مالك بالسياط فى سبيل أن يغير أو يكتف رايًا رآه فابى ، وأوذى الشافعى من أجل تجرده وأمانته ، واحتمل أحمد بن حنبل من المذاب مالا يحتمله إلا المؤمنون الأبطال .

وهؤلاء الأئمة الأربعة هم مؤسسو المذاهب السنية المشهورة عند المسلمين . وهذه المذاهب الأربعة وغيرها لا تلزم المسلمين باتباع أحدها ، وإنما هى اجتهادات لأصحابها الذين لم يزعموا لأنفسهم العصمة ، ولم يلزموا الناس بتقليدهم يوما ، ولم ينظر واحد من هؤلاء الفقهاء الى غيره نظرة التعقب أو الخصومة ، بل نظرة ملؤها التسامح والمودة وتقدير آراء الآخرين (٤٩) .

أن فى الفقه الإسلامى ثروة من القواعد والتطبيقات والنظرات العميقة فى كل مجال من مجالات الحياة أسرية ومدنية وجنائية ودستورية ودولية ، اعترفت بقيمتها وصلاحياتها المؤتمرات الدولية التشريعية الحديثة وهناك عديد من المستشرىين ممن يدخلون فى تفاصيل النظم الفقهية الإسلامية يحاولون أن يركزوا على الخلاف الشديد بين السنة والشيعة ، والخلاف بين الشيعة والوهابية محاولين بذلك أن يثبتوا أن الإسلام ليس دينًا موحدًا وأنه لا فرق بينه وبين المسيحية المتعددة المذاهب .

واننا فى هذا المجال لابد أن نقرر أن الخلاف بين المذاهب السنية وبين الشيعة المعتدلة ليس خلافا جوهريا يمتد الى أصول العقيدة ، وإنما وسع الهوية بينهما أهواء الحكم ودسائس خصوم الإسلام ، فالجميع من سنيين وشمعية يؤمنون بالله واحد ، ويقصدون كتابا واحدا ، ويتبعون رسولا واحدا ، ويتجهون الى قبلة واحدة ، هم جميعا يقيمون الصلاة ، ويؤدون

(٤٩). القرضاوى والعسال « المرجع السابق » ص ٣٩ .

الزكاة ، ويصومون رمضان . ويحجون البيت ان استطاعوا الى ذلك
سبيلا (٥٠) .

اما بالنسبة للقانون الرومانى فهو يختلف كلية عن الشريعة الاسلامية .
فلنأخذ مثلا على ذلك بالنسبة لجريمة القتل فى القانون الرومانى . فقد
كان لنظام الطبقات المعروف عند الرومان اثر فى تطبيق العقوبة . فاذا كان
الجائى من الأشراف رُفع عنه القتل واكتفى بنفيه ؛ واذا كان من اوساط
الناس كانت عقوبته قطع الرقبة ، واذا كان من الطبقة الدنيا كانت
عقوبته الصلب ، ثم غيرت بالقائه فى حظيرة حيوان مفترس ثم غير هذا
بالشنق وعلى الجملة فقد مرت الجرائم عند الرومان بأربعة ادوار كان
آخرها تدخل الحكومة تدخلا مباشرا فى المعاقبة على الجرائم باعتبار ان
المصلحة العامة التى تمثلها تقتضى ذلك ، ولم يكن هذا التدخل متصرا على
ان جرائم الماسة بالحكومة كالخيانة العظمى والثورة ، بل كان شاملا للجرائم
الواقعة على الافراد كالقتل والسرقة .

وبذلك جعلت الجرائم الخاصة جرائم عامة ، ووقعت الحكومة عليها
عقابا جسمانيا والغت الدية كما ألغت الثار ، وبمقتضى هذا الوضع الذى
صار الى الجرائم الواقعة على الافراد فى الأمم الحديثة صار العقاب
عليها من خصائص الحكومة أيضا ، ومنحت الدساتير رئيس الدولة حق
العفو وحق تخفيف العقوبة (٥١) .

معنى ذلك ان القانون الرومانى القديم يعطف على الجائى اذا كان
من الأشراف ويقتسو عليه اذا كان من غيرهم ، وكان غير الشريف فى نظرهم
لا يلتقى مع الشريعة فى صلب رجل واحد ، ولا تنتظمها الانسانية الواحدة ،
فهو مع نفسه فى جانب التفريط بالنسبة الى الشريف ، وجانب الافراط
بالنسبة لغيره .

اما الاسلام ، فقد قرر التكافؤ بين الناس جميعا فى الدماء ، ولم
يجعل لدم أحد فضلا على آخر ، ولم ير فى المجموعة البشرية من هذه

(٥٠) المرجع السابق .

(٥١) محمود شلنوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٣٠٧ .

الناحية « شريفا » لاتمس حياته بجريمته « غير شريف » يلقي بجريمته للحيوانات المفترسة .

وهذه التسوية بين السلطان والرعية لا يراها الاسلام فى حقوق العباد خاصة كالقصاص والأموال ، وانما يراها كما سبق فى حقوق الله الخالصة ايضا كحد الزنا والسرقة .

وبهذا الاصل العظيم الذى تنكش امام روعته جميع التشريعات البشرية ، اهدر الاسلام نظام الطبقات الذى كان اساس التشريع عند الرومان ، والذى لايزال الطفيان البشرى يحتفظ ببعض آثاره (٥٢) .

المستشرقون وانتشار الإسلام

ومن بين الأخطاء الدالة على جهل المبشرين ، تأتى سلسلة طويلة من التحامل والافتراء ، واشهرها ان الاسلام انتشر بحد السيف . فقد ذكر المستشرق الانجليزى تلسون « لقد أخضع سيف الاسلام شعوب افريقية وآسيا شعبا بعد شعب » (٥٣) ويزعم آخر وهو لطفى ليفونيان « ان تاريخ الاسلام كان سلسلة مخيفة من سفك الدماء والحروب والمذابح » (٥٤) . ويسر على النسق نفسه المؤرخ الانجليزى توماس كارليل الذى كنا نعتبره الى حد ما منصفاً للمسلمين ، نجده فى مسألة الجهاد يسر على النهج نفسه وعلى السيرة نفسها ، فهو يؤكد ان الاسلام انتشر بالسيف فى النهاية « (٥٥) » .

ولابد لنا ان نرد ردا مقنعا سليما على هذه الادعاءات ونحاول ان نؤيد رأينا ببعض آراء المستشرقين المنصفين الذين كتبوا بالحيدة التامة فنحن نعرف ان الوحي نزل على الرسول الكريم سنة ٦١٠ م وبدا الرسول

(٥٢) المرجع السابق: ص ٣١٢ ، ص ٣١٤ .

(٥٣) مصطفى خالدى « التبشير والاستعمار » ص ٤١ .

(٥٤) مصطفى خالدى. المرجع السابق .

(٥٥) منير البعلبكي « دفاع عن الاسلام » ص ٣٢ .

صلى الله عليه وسلم كفاحه في سبيل الدعوة ، ويحدثنا التاريخ انه صلى الله عليه وسلم لم يسير جيشا ، ولم يعلن حربا ، بل جمع الناس عند الصفا بمكة ووقف في جمعهم لا ليأمنها حربا ، ولا ليعلمها جهادا ، ولا امرا انما وقف يقول :

« يا معشر قريش : ارايتم لو اخبرتكم ان خيلا بسفح هذا الجبل اكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم . انت عندها غير متهم ، وما جرينا عليك كذبا قط ، قال فاني نذير لسكم بين يدي عذاب شديد . يا بني عبد المطلب .. يا بني عبد مناف .. يا بني زهرة .. يا بني تهيم .. يا بني مخزوم .. يا بني اسد .. ان الله امرني ان انذر عشيرتي الاقربين ، واني لا املك لسكم من الدنيا منفعة ، ولا من الاخر نصيبا الا ان تقولوا لا الله الا الله » (٥٦) .

لكنه شأن كل نبي ومصلح كذبه قومه وهجوه وآذوه ، وحاربوه ، بل حاولوا ان يقتلوه بعد ان اعتدوا عليه مرارا . وبالرغم من ذلك لم يشنها حربا ولم يحاول دفع الاذى بمثله بل امر بان يهاجر اتباعه الى الحبشة بعيدا عن الاذى فهاجروا ، وظل رسول الله يدعو ويجاهد في سبيل الله متحملا الايذاء وصابرا على مساءات الكفار ثلاث عشرة سنة حتى بدأ يفكر في رد العدوان وكان الله سبحانه وتعالى قد امره بالقتال في قوله : « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » (٥٧) .

وابتدا الصراع بين جبروت الشرك ودموة الاسلام الذي استقر عدة اعوام وقعت فيها الغزوات المعروفة ، وكانت كلها ردا على عدوان المشركين وغدر اليهود .

وفي الوقت الذي كان فيه الصراع دائرا داخل الجزيرة العربية بين توى الايمان والشرك كانت هناك دولتان استعماريتان كبيرتان تتنازعان العالم اذ ذاك وتفرضان سيطرتهما على اجزاء من بلاد العرب هما دولتا الفرس والروم . ولم يكن المسلمون في هذا الوقت بحيث يفكرون في فتح امبراطوريات ضخمة مثل فارس والروم ، والعدوان عليها ، وانما بسدا هؤلاء بالشر والعدوان وقد حاول الرسول عليه الصلاة والسلام عرض

(٥٦) ابن سعد « الطبقات الكبرى » ج ١ ص ١٨١ .

(٥٧) سورة الحج آية ٣٩ .

(م ٦ - الاستشراق)

الإسلام على هذه الدول المجاورة بالحسنى ، فلم يلق منهم إلا التحدث والتجبر ، بل وقتل المبعوثين وبذات هذه الدول تتحرش بالدولة الإسلامية الناشئة فما كان منها إلا أن بدأت في رد العدوان وحمية الدعوة الإسلامية .

ولم يكن فتح المسلمين للدول المجاورة فتح استعمار أو سلب أو نهب وإنما كان إزالة للسلطات الطاغية ، وتأمينا للحريات ، ونشرا لمبادئ العدل والمساواة .

ومما يؤيد قولنا في أن الإسلام كان يحارب ردا للعدوان ولعمالة الدعوة الإسلامية ونشرها بين أمم الكفر قول الله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (٥٨) .

ويقول كذلك « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٥٩) وفي سورة التوبة يقول سبحانه وتعالى « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين » (٦٠) .

وفي سورة البقرة « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » (٦١) .

وقوله تعالى في سورة الأعراف « ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين » (٦٢) .

وقوله في سورة ق « القيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب » (٦٣) .

ومن أخلاق الإسلام في الحروب أنه قد نهى عن الخيانة فيقول تعالى في سورة الأنفال « وأما تخافن من قوم خيانة ، فأنبذ إليهم على سواء » (٦٤)

-
- ٥٨) سورة البقرة آية ١٩٠ .
 - ٥٩) سورة البقرة آية ١٩٤ .
 - ٦٠) سورة التوبة آية ٣٦ .
 - ٦١) سورة البقرة آية ١٩٣ .
 - ٦٢) سورة الأعراف آية ٥٥ .
 - ٦٣) سورة الأعراف آية ٢٤ .
 - ٦٤) سورة الأنفال آية ٥٨ .

فلا بد اذا من اعلان الهجوم حتى يكونوا والعبيد على سواء في الاستعداد ويتسامى الاسلام في اخلاق الحرب فيطالب بتسامين من طلب الامان فيقول تعالى في سورة التوبة « وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه ما منه ذلك بانهم قوم لا يعلمون » (١٥)

والاسلام دين سلام ، لم يحبز القوة ، ولم يدع للحرب ، بل انه دعا للمسلم فيقول في سورة الانفال « وان جنحوا للمسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » (١٦) .

فالواضح اذن ان الاسلام يحذر من الحرب لغير هذه الاغراض التي ذكرتها فكل ما سوى هذه الاغراض الانسانية الاصلاحية الحق من المقاصد المادية والشخصية او النفعية ، وان الاسلام لا يجيز الحرب من اجلها بحال من الاحوال وذلك واضح كل الوضوح في اضافة الاسلام القتال او الجهاد دائما الى سبيل الله ، فلا نجد واحدة من هاتين الكلمتين في بحث من البحوث الاسلامية الا مقرونة بهذا السبيل ، علي ان القرآن الكريم قد صرح بتحريم كل قتال بغير هذه الاغراض المشروعة ، وأكدت هذا التحريم احاديث النبي صلى الله عليه وسلم وسجل التاريخ ذلك لاصحابه الذين لم يريدوا بقتالهم شيئا ابدا الا وجه الله وتحقيق المقاصد المتقدمة كلها او بعضها وفي ذلك قوله تعالى « يا ايها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن اتى اليكم السلام لست يؤمننا تبغون مرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغنم كثيرة » (١٧) .

هذه هي الاسباب التي دعت الى الحروب التي خاضتها الامة الاسلامية ونشرت بها الدعوة الاسلامية الاصلاحية لصالح الانسانية مما اصابها من غساد وتدهور ، لذلك ساورد هنا بعض آراء لبعض المستشرقين المنصفين منهم المستشرق بودلى الذي يقول « كان القرشيون انفسهم سببا من الاسباب التي دفعت محمدا الى الالتجاء للقوة ، اذ استمر عداء ابي جهل لحمد في درجة الغليان ، فقد كان يغير على جماعات المسلمين المتحركة

(١٥) سورة التوبة آية ٦ .

(١٦) سورة الانفال آية ٦١ .

(١٧) سورة النساء آية ٩٤ .

باستمرار ، ويقاتل اية جماعة منمذلة يكمن لها ، وقد اغار على ضواحي المدينة : واتفق الزرع والحدائق فاطهر لحمد ان شموه لم يتبدل ، وان هدفه لا يزال قتله ، فلم يكن هناك الا حل واحد من وجهة نظر الجانبين وهو القتال « (٦٨) » .

ويتول جيمس متشنر في مقاله « اخترت الدفاع عن الاسلام » .

« لم يحدث في التاريخ ان انتشر دين بهذه السرعة ، فعند وفاة محمد سنة ٦٣٢ م ، كان الاسلام يحتل جانباً كبيراً من شسبه الجزيرة العربية ، ولم يلبث بعد ذلك ان ضم اليها سوريا وبلاد الفرس ومصر والتخوم الجنوبية لروسيا ، وامتد الى شمال افريقيا حتى بلغ مداخل اسبانيا . وفي الزمن الذي جاء بعد ذلك كان تقدم الاسلام باهرا ، واعتقد ان توسع الاسلام ما كان يمكن ان يتم لو لم يعمد المسلمون الى السيف ولكن الباطنيين لم يقبلوا هذا الرأي . فالقرآن صريح في تأييده لحرية العقيدة ، والدليل قوى على ان الاسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان مادام التعاون مع اهل الكتاب أى اليهود والنصارى ، ولا شك ان حروباً قد نشبت بين المسلمين وغيرهم من النصارى واليهود وفي بعض الأحيان وكان سبب ذلك ان اهل هذه الديانات الأخرى اصروا على القتال . وفي القرآن آيات تصور العنف الذي استخدم في هذه الحروب ، ولكن الرهبان تطعموا بأن اهل الكتاب كانوا يعاملون معاملة طيبة ، وكانوا أحراراً في عباداتهم » (٦٩) .

ومما يؤكد صحة هذا القول ان الاسلام امر بأن تكون الدعوة له بالسلم وليست بالحرب ، ولم يشرع الزام الناس بالاسلام بالقوة ، فمن تعاليمه الوارد في القرآن الكريم « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » (٧٠) .

وقوله « من اهتدى قاتماً يهتدى لنفسه » ومن ضل فائماً يضل بها « (٧١) » .

(٦٨) عبد الرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث » ص ٢٨ .

(٦٩) عبد الرزاق نوفل — المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٧٠) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

(٧١) سورة النمل آية ٩٢ .

وقوله تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن » (٧٢)

ومما يشهد لحب الاسلام ونبيه في السلام أن أمره اليومى الأول الذى أصدره عندما اضطر الى الحرب كان « لا تقتلوا امرأة ، ولا وليدا ، ولا شيخا ، ولا تقطعوا شجرة ، ولا تحرقوا نخلا ، ولا تمثلوا بأحد ، ولا تكونوا ناهبين واجتنبوا الوجوه لا تضربوها » (٧٢) .

ومما يؤكد أن الاسلام لم ينتشر مطلقا بالحرب ما ذكره الأستاذان ج. فاج ورولان اوليفر . « من أن الاسلام لم يتخذ طريقه وراء الصحراء بأفريقية الا بعد انحلال دولته الكبرى في المغرب ، وكانت وسيلة الاسلام لهذه البقاع هي الثقافة والفكر والدعوة ، فانتشر الاسلام بين شعوب البربر وبين الزنوج وقامت خلف الصحراء دول اسلامية لعبت في التاريخ دورا كبيرا » (٧٤) .

وتقول الباحثة الألمانية اليس ليكنفس اديستر « ان التخيير ببلاد الفرس والروم لم يكن بين الاسلام والسيف وانما بين الاسلام والجزية وهي الخطة التي استعملت لثأر الاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك في انجلترا ابان حكم الملكة اليصابات » (٧٥) .

ويذكر المؤلف جوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » آراء خيرة ومتعددة حول عملية انتشار الاسلام ، ويؤكد آراءه بأراء لجري لمستشرقين غربيين يقول جوستاف لوبون « العبارات الاتية اقتطفها من كتب الكثيرين منهم تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس خاصا بتنا تال روبرتسون في كتابه « تاريخ شارلمان » « ان المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الفيرة لدينهم وروح التسامح نحو اتباع الأديان الأخرى وانهم مع امتثالهم الحسام نشرا لدينهم ، تركوا من لم يرغبوا فيه أحرارا في التمسك بتعاليمهم الدينية » (٧٦) .

(٧٢) سورة العنكبوت آية ٦١ .

(٧٣) المقرئى « أمتاع الأسماع » ج ١ ص ٥٣٦-٥٣٦ .

(٧٤) Roland oliver. , A short history of Africa. P. 77.

(٧٥) lies. Lictenst , Islam and the modern age , P. 57.

(٧٦) جوستاف لوبون « حضارة العرب » ١٢٨ .

وقال ميشو في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » « ان القرآن الذي امر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى ، وقد اعفى البطارقة والرهبان وخدمهم من الضرائب ، وحرم محمد قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات ، ولم يمس عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس ، مذبح الصليبيون المسلمين وحرقوا اليهود بلا رحمة ، وقتلوا دخلوها » .

ويؤكد جوستاف لوبون ان التاريخ اثبت ان الأديان لا تفرض بالقوة ، فلما تهر النصارى عرب الأندلس فضل هؤلاء القتل والطرده عن آخرهم على ترك الاسلام (٧٧) .

ويستطرد جوستاف لوبون قائلا « ساعد وضوح الاسلام البالغ وما أمر به من العدل والاحسان كل المساعدة على انتشاره في العالم ، ونفس بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للاسلام كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية ، فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الاسلام ، كما نفس السبب في عدم تنصر أية أمة بعد ان رضيت بالاسلام ديناً ، سواء كانت هذه الأمة غالبية ام مغلوبه » (٧٨) .

ومصادقاً لكلامنا هذا حول عملية انتشار الاسلام ، وما حاول المستشرقون المفرضون ان يذيعوه بين الناس من انه لم ينتشر الا بحشد السيف مذكرو السير توماس ارنولد في كتابه « الدعوة الى الاسلام » يقول « اما ولايات الدولة البيزنطية التي سرعان ما تحولت اليها المسلمون ببسالتهم ، فقد وجدت انها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ما شاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية ، فحسد سمع لهم ان يؤدوا شعائر دينهم دون ان يتعرض لهم أحد ، اللهم الا اذا استثنينا بعض القيود التي فرضت عليهم منعا لاثارة أي احتكاك بين أتباع الديانات المتنافسة ، أو اثارة أي تعصب ينشأ عن اظهار الطقوس الدينية في مظهر المفاخرة حتى لا يؤدي ذلك الشعور الاسلامي . ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح الذي يلفت النظر في تاريخ القرن السابع من هذه العهود

(٧٧) جوستاف لوبون « المرجع السابق » ص ١٢٨ .

(٧٨) المرجع السابق .

التي أعطاهم العرب لاهالى المدن التي استولوا عليها ، ونعمهذوا لهم بحماية ارواحهم ودمتكتاتهم واطلاق الحرية الدينية لهم فى مقابل الاذعان ودفع الجزية « (٧٩) .

ويقول توماس ارنولد فى موضع آخر « واذا نظرنا الى التسامح الذى امتد على هذا النحو الى رعايا المسلمين من المسيحيين فى صدر الحكم الاسلامى ظهر ان الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس الى الاسلام بعيدة عن التصديق ، ومن ثم لم يكن بد من الناس بواعث أخرى غير ذلك الباعث الذى اوحى بالاضطهاد .

ونلمس مصداقا لسكلامنا هذا ان اهل الذمة عاشوا عيشة طيبة فى ظل الحكم الاسلامى وناهيك عن أخلاق الخليفة عمر بن الخطاب وموقفه منهم بعد سقوط بيت المقدس وهى المدينة التى يقدسها المسيحيون لمسا بها من آثار دينية وروحانية عظيمة . فنجد اولا أنه أعطاهم عهدا وأمانا به « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وسائر ملتتها ؛ انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم » (٨٠) .

واذا أمعنا النظر فى هذا النص لوجدنا أن الاسلام لم يجبر أحدا على الدخول فيه ، ولو كان بالسيف لفعلوا كما فعل المسيحيون الأوائل لاجبار الناس على الدخول فى المسيحية .

والدليل على سماحة الاسلام بالنسبة لأهل البلاد المفتوحة وأنه لم يجبرهم على الدخول فيه بالسيف أن المسيحيين عاشوا فى مجتمعهم آمنين على حياتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذى منحهم حرية التفكير الدينى « تمتعوا وخاصة فى المدن بحسالة من الرفاهية والرخاء فى الأيام الأولى من الخلافة .

(٧٩) توماس ارنولد « الدعوة الى الاسلام » ترجمة حسن ابراهيم حسن : ص ٧٤ .
(٨٠) المرجع السابق ص ٨٨ .

وقد توسع معاوية ٦٠/٤١ هـ فى الحاق المسيحيين بخدمته وحذا
حذوه فى ذلك افراد آخرون من البيت المسالك ، وطالما شغل المسيحيون
مناصب عالية فى بلاط الخليفة مثل الأخطل وهو عربى نصرانى كان شاعرا
لبلاط ، ومثل أبى القسديس يوحنا الدمشقى مستشار الخليفة
عبد الملك ٨٦/٦٥ هـ .

وكان فى خدمة الخليفة المعتصم ٧٧/٢١٨ هـ اخوان مسيحيان بلغا
منزلة سامية عند امير المؤمنين احدهما يدعى سلموبه ويظهر انه كان يشغل
منصباً قريب الشبه من منصب الوزير فى العصر الحديث ، وكانت الوثائق
الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ الا بعد توقيعه عليها ، على حين عهد الى
اخيه ابراهيم بحفظ خاتم الخليفة كما عهد اليه بخزانة بيوت الاموال فى
البلاد ، وكان المنتظر من طبيعة هذه الاموال وتصريفها ان يوكل امر
الانصراف عليها الى رجل من المسلمين . وقد بلغ من ميل الخليفة الشديد
الى ابراهيم انه عاده من مرضه الأخير وغمره الحزن حين يفاته ، وانه
امر فى يوم تشييع جنازته باحضار جثمانه الى القصر حيث اقيمت له
الطقوس المسيحية فى خشوع مهيب .

واختار عبد الملك عالماً مسيحياً من مدينة الرها يدعى اثناسيوس
وؤديا لآخيه عبد العزيز وقد رافق اثناسيوس هذا تلميذه الى مصر عندما
عين والياً عليها ، وهنالك جمع ثروة طائلة قيل انه امتلك أربعة آلاف
من العبيد ، كما ملك كثيراً من الدور والبساتين (٨١) .

وما ذلك الا دليل على ان المسلمين لم يكرهوا احداً على الدخول فى
دينهم وانما كانوا يسرون على قوله تعالى « ادع الى سبيل ربك بالحكمة
والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن » (٨٢) .

والواقع ان التسامح الاسلامى هذا يخالف ما اتصف به المسيحيون
الأوائل من عنف ووحشية ، فنرى المذابح العنيفة التى قام بها اباطرة
الرومان بدءاً من الامبراطور قسطنطين ليجبروا شعوبهم على الدخول فى
المسيحية بعد ان قبلتها الدولة ديناً رسمياً لها . ولا ادل على مايفعله

(٨١) توماس ارنولد : المرجع السابق ص ٨١ .

(٨٢) سورة النحل آية ١٢٥ .

شارلمان مع المسكنون الوثنيين ليجبرهم على الدخول في المسيحية من المذابح العظيمة التي قام بها ضدهم ، ولا ننسى عصر نسطور جالينوس الإمبراطور البيزنطي الذي سمى عصره بعصر الشهداء وما قلم به الإمبراطور جالينوس من اضطهاد وتعذيب .

أما اليهودية فتاريخها حافل بالمذابح والحروب العنيفة : لا لتهود الناس بل لتجليهم عن أراضيهم وتستولى على ممتلكاتهم فهم يرون أنفسهم شعب الله المختار « قالوا ليس علينا في الأمن سبيل » وبهذا استباحوا دماء الشعوب الأخرى واعتبروهم أتباعا لهم ، أما الإسلام فهو دين الناس عامة ، والناس كلهم فيه سواء . وبهذا نجد أن الإسلام قد سلم من وصمة التعصب كما سلم من وصمة الاكراه .

وأول كتاب حديث قرأنا فيه تفسيرا « سلميا » لأخلاق المسلمين التي يستوحونها من دينهم هو هذا الكتاب وعنوانه « دولة الباكستان » مؤلفه البروفسور وشجروك وليامز صاحب الدراسات الواسعة في شؤون الشرق الأوسط وشؤون الهند والباكستان ، فقد سبقه كثير من كتاب اللغات الأوربية الأخرى إلى تعطيل حركات المسلمين في الهند مع الدولة البريطانية ومع طوائف الوطنيين هناك من غير المسلمين فكانت خلاصة تعليقاتهم لتلك الحركات جميعا أنها وليدة التعصب الديني أو وليدة الروح العدوانية التي انفردوا بها بين أبناء وطنهم ، ولكن مؤلف هذا الكتاب يطل هذه الحركات للمرة الأولى بين أبناء لغته وعقيدته بأنها وليدة البحث : لا عن وطن يستطيع فيه المسلم أن يطلق من قيود المستغلين محسوب بل هي وليدة السعي إلى إقامة بلاد تسود فيها آداب الإسلام وتمنع فيها ظلم الأغنياء للفقراء ، ويتبع فيها الولاة وصايا العدل الاجتماعي التي يتعلمونها من سماحة الشريعة (٨٢) .

ويقول عن تقاليد الإسلام : « إن هذه التقاليد تشمل مبادئ المساواة

(٨٢) عباس العقاد « ما يقال عن الإسلام » ص ١٣٧ .

بين العناصر الانسانية أمام الله وتقرر أوامر وأحوه العالية بين جميع المؤمنين بغير نظر الى العنصر أو اللون ، كما تقرر غريضة الدفاع عن الضعيف وحمايته ممن يجورون عليه ، واغاثة المعوزين والمحرومين ، وبذل الحياة نفسها في سبيل الصراط المستقيم ، ومعاملتهم من ثم للبلاد الأخرى لا تجعلهم حريصين على القلو في اثبات وجودهم والتصلب في املاء تقاليدهم الحرفية أو الوقوف موقف الاحكام والاعتذار (٨٤) .

الإسلام والتجديد

يذكر المستشرق جولدزيهر « أن الاسلام يكره التجديد ، وكل بدعة في نظر الجماعة الاسلامية موضع للشك والشبهة ، وظهورها مدعاة للاسي اذ انها تهدد وحدة الجماعة وتؤدي الى انهيار الشريعة » (١) .

ولم يبين هذا المستشرق مكان البدعة والفقرة المستحدثة اهي في الدين ام في العلوم والافكار .

اما في الدين وفي المعاملات المبنية على قواعد دينية فهذا امر طبيعي لان الاسلام لو اعتنق كل فكرة مستحدثة لا تقرها قواعده ، وأسسها مابقي منه شيء ولا كان ثمة اسلام .

كان الربا متفشيا في الجاهلية ، فحرمه الاسلام ، وفي العصور الحديثة نشط التعامل بالربا وقامت عليه بنوك ومؤسسات ، اذ أن هذا التعامل هو ما منعه الاسلام وقضى عليه . وشاع في الحضارة الأوروبية انتحاذ الخيليات ، وقل أن تجد فتاة لا رفيق لها أو نقي لارفيقة له ، وقد جاء القرآن الكريم بقوله « فأنكحوهن بأذن أهلن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا يتخذات أخدان » (٢) .

فهل يبيح علماء المسلمين لشعوبهم عادة نهى عنها الاسلام ؟ ان فعلوا ذلك خرجوا عن الاسلام ، وقل مثل هذا في ظاهرة التبرج والزينة والرقص ، واختلاط الرجال بالنساء في الشواطئ ، وما الى ذلك من العادات التي يحرمها الاسلام (٣) .

اما الابتكرات في المعارف ومكتشفات العلوم فهذه يشجعها

(١) جولدزيهر « العقيدة والشريعة » ص ٣ ص ٥ ع ٥ .

(٢) سورة النساء آية ٢٥ .

(٣) عبد الجليل شلبي « الاسلام والمستشرقون » ص ٤٦ - ٤٧ .

الاسلام ويدعو لها ، فالاسلام يدعو الى التفكير واعمال العقل ، فأولى آياته تدعو الى العلم « اقرا باسم ربك الذى خلق » (٤) وقوله تعالى « ن والقلم وما يسطرون » (٥) وقوله تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منسكهم والذين أوتوا العلم درجات » (٦) وقوله تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٧) وقوله تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة ، فقد أوتى خيرا كثيرا » (٨) .

والأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تدعو الى طلب العلم منها . « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (٩) . ومنها « اغد عالما أو متعلما أو مستمعا » (١٠) وقول الرسول الكريم « فضل العلم أحب الى من فضل العبادة » (١١) أى أنه فضل العلم على العبادة فيها منفعة خاصة أما العلم ففيسه نفع للمجتمع ، بل أنه عليه السلام فضل العلم على مازاد على فرض الصلاة ، فقال « لأن تغدو تتعلم بابا من العلم خير لك من أن تصلى مائة ركعة » (١٢) .

وكذلك رغبة فى نشر العلم ومنع كتمانها ، قال الرسول « من سئل من علم فكلمه ، ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » (١٣) .

والدليل العملى على اهتمام الرسول بالعلم والبحث العلمى هو أنه جعل فداء الأسرى فى غزوة بدر تعليم عشرة من أبناء المسلمين ، وذلك يتقوا على الجهل حتى تصبح دولة الاسلام هى دولة العلماء .

والدين الاسلامى يحث دائما على التفكير والبحث ، واعمال العقل ، وليست مصادفة أن تتكرر فى القرآن الكريم آيات الدعوة المريحة

(٤) سورة العلق آية ١ .

(٥) سورة القلم آية ١ .

(٦) سورة المجادلة آية ١١ .

(٧) سورة الزمر آية ٩ .

(٨) سورة البقرة آية ٢٦٩ .

(٩) رواه بن ماجه ، وابن عبد البر .

(١٠) رواه البيهقى .

(١١) رواه الطبرانى فى الأوسط .

(١٢) رواه بن ماجه والطبرانى بسند صحيح .

(١٣) رواه بن ماجه .

الى النظر فى خلق السموات والأرض وما فيها قال تعالى « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما ننش الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (١٤) وقوله تعالى « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ؛ وما خلق الله من شئ » (١٥) وقوله تعالى « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » (١٦) .

وتتعدد الآيات التى تدعوا الى النظر والعلم والتحقيق ، وسأترك لذلك شرحا وافيا مفصلا فى كلامى عن الاسلام والحضارة العلمية .

وبالنسبة للتجديد الذى يقصده المستشرق فنجد ان المجتمع الاسلامى بطرا عليه تعديل من حين الى حين . وتحدث له مشكلات جديدة ما عرفها السلف فلا بد ان يجد لها المجتمع ، على ضوء مبادئ الاسلام ، حلولا ليبقى المجتمع الاسلامى هائسا ، ولا يجد المؤمنون عبرا ، ولا مشقة ولا حرجا فيما استحدث فى مجتمعهم من تطور حضارى ومادى ، لذلك جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها » (١٧) اى يدلها على احكام ما استحدث فى المجتمع ويصلح ما أهمل من الدين ، ومما اضيف عليه مما هو ليس منه .

وهذا التجديد ضرورى لحياة المجتمع وضرورى لحماية الدين نفسه لأن التجديد سنة الحياة ، وكان المجتهدون موجودين فى كل عصر من العصور السابقة ليواجهوا الأمور الاضطرارية (١٨) ، قال تعالى « وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه » (١٩) ، قال رسول الله

(١٤) سورة يونس آية ١٠١ .

(١٥) سورة الأعراف آية ١٨٥ .

(١٦) سورة ق آية ٦ .

(١٧) رواه ابو داود عن أبى هريرة .

(١٨) صلاح الدين المنجد « المجتمع الاسلامى » ص ٦٤ .

(١٩) سورة الأنعام آية ١١٩ .

صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل حين ولاء على اليمين : بم تقضى ؟ قال : بكتاب الله . قال : فان لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله . قال : فان لم تجد . قال : اجتهد رأيي ، فأقره الرسول على ذلك ، وكتب عمر بن الخطاب الى ابي موسى الأشعري في هذا الشأن « الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك ، مما ليس في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم اعرف الاشباه والأمثال ، فقم الأمور عند ذلك بنظائرها ، واعمد الى اقربها الى الله واشبهها بالحق » (٢٠) .

وهذا الاجتهاد للتجديد واجب لأن الدين جاء لرعاية مصالح الناس وتوجيههم وتحسين احوال معاشهم ، والأمور المستحدثة دائماً ، فلا بد من الاجتهاد على أن يراعى فيه العدل والمصلحة .

وهذا الأمر هو الذى دفع ابن قيم الجوزية الى القول « يجب ان تنتهى من قول العلماء الذين يقولون ، هذا لا يوافق الشرع ، وهذا لم يقل به الرسول وان نتبع سياسة المصلحة أى ما يوافق الناس ويكون فيه صلاحهم » (٢١) ولابد ان نشير في هذا المجال الى ان التاريخ الاسلامى منذ نشأته الى يومنا هذا يؤكد على الاهتمام بالتجديد والابتكار والبحث العلمى ، وهل ورث التاريخ في غير الأمة الاسلامية هذا العدد من الكتب التى كتبها المسلمون على اختلاف الاقطار والعصور ، وهل يعرف التاريخ لغير المسلمين هذا القدر من العلماء الذين سجلت سيرهم في كتب الطبقات ، وتاريخ البلاد والتراجم العامة ، ثم هل عهد التاريخ من قبل المسلمين امة حصلت ونفذت وحقت ، ودقت كما فعل المسلمون في الاحاديث ورواتها ثم في علوم اللغة ، وعلوم الشريعة ، وعلوم الطبيعة وغيرها وأخرجت من حفظة القرآن وائمة الشريعة حكماء ورياضيين وفلكيين وأطباء .

(٢٠) ابن حزم « جمهرة انساب العرب » ج ١ ص ٢٥٥ .

(٢١) ابن القيم الجوزية « الطرق الحكيمة » ص ١٤ .

ومما تميز به المسلمون في طلب العلم وتلقي الأخبار التحري والتثبت ، وبذل الجهد في النقد ، وتمييز الزائف من الصحيح والحق من الباطل .

وكان خلفاء المسلمون وأمرأؤهم وكبرأؤهم يتنافسون في دعوة العلماء والأدباء اليهم ، ويتفاخرون بهم تضم مجالسهم من كبار العلماء ونابهي الأدباء وقد جعل الاسلام الأرض كلها للمسلم مسجدا وطهورا ، جعل الأرض كلها دار تعلم وتعليم ، فالمسلم مأمور أن ينظر في السموات والأرض وآثار الأمم وسيرها ، وإن يطلب العلم حيث كان ويتلفظ الحكمة أين وجدها فهو يتعلم في الحضر والسفر ، وفي المسجد والدار .

وكانت مساجد المسلمين منذ انشئت دار تعليم منذ جلس المعلم الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم ، يعلم أصحابه في مسجد المدينة الى يومنا هذا (٢٢) .

ودور العلماء كذلك كانت مقصد طلاب العلم يتلقونه عن تبع منه وعرف به ويقطعون اليه الفياض والقفار . ولما بنى المسلمون دورا للعلم خاصة لم تختلف هذه الدور عن المساجد الا بمساكن المعلمين والطلبة فيها ، ولم يبعد التعليم عن المساجد بعد بنائها ، فالمدرسة مسجد والمسجد مدرسة .

وكثير من مساجد المسلمين التي نراها اليوم سميت في التاريخ مدرسة ، اذ لم يفرق المسلمون بين العبادة بالصلاة والعبادة بالتعليم والتعلم ، فكانوا يبنون الابنية فهي مساجد للصلاة ، وهي مدارس للعلم (٢٣) .

(٢٢) عبد الوهاب عزام « الاسلام والعلم » ص ١٤٣ .

(٢٣) المرجع السابق ص ١٤٤ .

أثر حق العلم في البيئة الإسلامية :

وقد كان لتقرير الإسلام في هذا الحق الثابت لجميع الناس آثار بعيدة في المجتمع الإسلامي نذكر منها :

١ — ان العلم كان يشمل جميع الفئات ، حيث كان يبدأ من الفرد ثم يعم الأسرة ، فقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (٢٤) .

ومسئولية الرجل في أهله تشمل تاديب اولاده ، وتعليم زوجته وهدايتهم الى سبل الخير والفلاح ، قال على رضى الله عنه في تفسير قوله تعالى « قوا انفسكم وأهليكم نارا » علموا اهليكم الخير (٢٥) .

٢ — ان العلم كان مشاعا في المجتمع ميسرا لكل انسان ، في المسجد وفي المدرسة وفي الحلقات العلمية ، وفي المكتبات العامة ، فلم يعرف المجتمع الاسلامي ارسقراطية العلم او انحصاره في فئة معينة ، كما كان محصورا في رجال الدين عند أكثر الأمم القديمة وخاصة عند الغربيين حتى عصر النهضة .

٣ — سارت الحضارة والعلم مع الدين جنباً الى جنب في تاريخ الحضارة الإسلامية ، حتى اعترف بعض مؤرخي الغرب بأن «دينة قرطبة في ايام ازدهارها ، كانت تحتوى على ملىسونى نسمة ليس فيهم امل واحد (٢٦) » .

٤ — بعد افول شمس الحضارة الإسلامية ، لم تقف حركة العلم ، بل استمرت ولو في نطاق ضيق — حتى عصر نهضتنا الحاضرة ، ونعني بذلك استمرار اتبال الناس على العلوم الشرعية خاصة من تفسير وحديث وفقه وأصول وعقيدة وغيرها . وعلى العلوم الأدبية كاللغة

(٢٤) رواه البخارى ومسلم .

(٢٥) رواه الحاكم .

(٢٦) مصطفى السباعى « من روائع حضارتنا » ص ٩٨ .

والادب والتاريخ وسواها ، وبعض العلوم الرياضية كالحساب
والفلك والهندسة (٢٧) .

لقد استمرت المساجد والمدارس والمكتبات تؤدي رسالتها في نشر
هذه العلوم ، ونشير هنا بصورة خاصة الى علم الفقه . فاعقل
الاسلامى رغم ركوده بعد عصور الحضارة الاسلامية الزاهرة لم
ينقطع عن التفكير في التشريع في اية بيئة اسلامية كانت سواء في
العواصم او القرى وسواء في مراكز الحضارة او الاماكن النائية ،
كاليمن او نجد او حضرموت او اواسط افريقيا لم تنقطع ابدا حركة التأليف
في الفقه على مختلف المذاهب ، وبذلك أصبح الفقه الاسلامى ثروة نامية
لا مثيل لها في امة من امم العالم .

(٢٧) مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام » ص ٧٠ .

(م ٧ - الاستشراق) .

الفصل الرابع

المستشرقون والنظم الإسلامية

المستشرقون ونظم الحكم فى الاسلام

لم يسلم نظام الحكم فى الاسلام من اقلام المستشرقين المغسولين الذين حاولوا أن يشككوا المسلمين فى عدل النظم السياسيه التى جاء بها الاسلام ، بل وارادوا أن يجرّدوا الشريعة الاسلامية من الصفة الكبرى التى اتصفت بها وهى أنها دين ودولة . فهذا كتاب صدر سنة ١٩٦٢ م الفه ه/ب شرابى وهو استاذ مساعد بجامعة جورج تاون وعنوانه « الحكومات والسياسة بالشرق الأوسط فى القرن العشرين » .

يقول المؤلف عن موقف الشريعة من نظم الحكم « اذا دققنا فى القول لم نجد فى الاسلام نظرية مستقلة للحكومة ، اذ كل ما يرتبط بالحكومة والدولة يدخل فى نطاق الديانة ، فلا فاصل بين الدينيات والدنيويات ، والمسلم الذى يدين بالله وبرسالة نبيه محمد عضو من اعضاء الجماعة الاسلامية بحق الانتماء الى الديانة فقط ، لا بحق القرابة او اللغة او العنصر ، ومن الوجهة السياسية تنسم الجماعة الاسلامية ، او الدولة الاسلامية بسمات أربع وهى :

١ — أن الله رأسها والقرآن كما تنزل على النبى دستورها الوحيد .
٢ — أن كلمات الله هى الشرع الوحيد وليس للجماعة أن تجرى لها شرها غيره .

٣ — أن وظيفة دستور الحكومة وشكلها واحكامها ابدية ، ولا يمكن تغييرها كيفما اختلف الزمان والمكان .

٤ — أن الغاية من الحكومة هى اقامة الدين وتنفيذ كلمات الله قال :
« ويتضح من هذا أن الشريعة — وهى جملة الاوامر الالهية — ليست لنا بالمعنى المفهوم من القائلون فى العصر الحديث ، وليكنها قضايا

معصومة ترسم للمسلم احكام سلوكه فى حياته كلها دينيا وسياسيا واجتماعيا وفى الاسرة والبيت « (١) .

معنى ذلك ان هذا المستشرق يحاول ان يشوه حقيقة الشرع الاسلامى بالنسبة للحكومة الاسلامية ، بل وينفى عنه انه جاء بشيء لتنظيم الحياة الانسانية ، بل وجعل الحكومة حكومة ثيوقراطية بمعنى الكلمة ، اى انها لا تمس النواحي الدنيوية ، ولا يستطيع المسلم او يضيف الى هذه الشريعة شيئا يتلاءم مع تطورات العصر اى انها شريعة دينية جامدة .

ونسكتنا لا بد ان نوضح لهذه الفئة من المستشرقين حقيقة الحكومة الاسلامية ، وطبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم فيها .

للاسلام دين ودولة ، لانه نظم شئون الدين والدنيا معا ، فكلما تكلم عن الملائكة والانبياء والجنة والنار والمبساتات وغيرها من شئون الدين ، تكلم كذلك عن البيع والشراء والزواج والطلاق والميراث وغيرها من شئون الدنيا ، ووضع الاسلام لهذه وتلك القوانين والنظم ، والزم المسلمين باتباعها ، وحدد عقوبة المخالفين .

يذكر جولدزيهر ، مرة اخرى وهى « ان سلطة الخليفة كانت مطلقة فى كل مكان ، ولم يكن هناك نظام يتدخل بين الحاكم ورعاياه لتقييد سلطته » (٢) .

اذا اردنا ان نفند هذا الاتهام ، فعلينا ان ننظر الى الدولة الاسلامية عامة ، والى اول خلفائها ابنى بكر الصديق الذى يعتبر مثالا يحتذى فى الحكومة الاسلامية المثلى فقد طبق ما جاء به الشرع فى شئون الناس الدينية والدنيوية .

كان هذا الخليفة الحاكم راس الدولة ، اختير من بين صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، واشترط فى اختياره امور شرعية كثيرة ، منها العلم ، والعدل ، والكفاية وسلامة الحواس ، والنسب القرشى .

(١) عباس العقاد « مايقال عن الاسلام » ص ١٣١ .

(٢) جولدزيهر « العقيدة والشريعة » ج ٢ ص ٥٤٥ .

وإذا استعرضنا مجموع خلفاء الاسلام — حسب الراسخين — نجد انهم نماذج مشرفة لتطبيق سياسة الدين والدنيا ، وحسبنا في ذلك عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان وعلى بن ابي طالب ، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم من الخلفاء .

فهؤلاء الخلفاء اذن ليسوا خلفاء دينيين فقط ، وانما هم خلفاء دين ودنيا ، فليست النظم الاسلامية مثل النظم الغربية تتجلى بين السلطتين ، فلا يعرف الاسلام سلطة الكهنوت ، ولا يعرف العصمة لاحد الا المرسلين (٢) .

والحاكم والخليفة ليس معصوما من الخطأ في تصرفاته ، وليس له قداسة مرفوعة عن مستوى الناس ، كيف وهو فرد من الامة جاء عن طريق الاختيار والبيعة وعليه ان يستشيرها ، ويأخذ برأي اهل الحل والعقد فيها .

معنى ذلك ان الحكم في الاسلام قائم على اساس الشورى ، وماهى الا المسمى الحديث « الديمقراطية » قال تعالى « وأمرهم شورى بينهم » (٤) وقوله تعالى « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ونسأورهم في الامر » (٥) .

وهاتان الآيتان تبينان ان اختيار الحكومة ليس معناه تسليم كل الامور اليها ، وانقطاع رأي الناس ، بل توضيح ان واجب الحاكم ان يستشير ليس فقط ، اهل الحل والعقد ، بل جماعات اوسع من المسلمين ، بل المسلمين جميعا في مهام الامور اذا أمكن ذلك بطريق الاستفتاء العام او اى طريق آخر ، والآية الاولى تصوغ هذه الفكرة صياغة رائعة فهي لا تتجه الى اسلوب الامر بالمشاورة ، وانما توضح ان المشكلات انما هى مشكلات الامة ، وان الامور امورها فطرح هذه المشكلات للامة للتشاور

(٣) القرضاوى والعسالى « الاسلام بين شبهات الضالين » ص ٢٩

(٤) سورة الشورى آية ٣٨ .

(٥) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

ولرغبة الوصول الى حل سليم امر عادى ، هو فى الحقيقة وضع الامور فى نصابها واعطاء الحق لصاحبه .

اما الآية الثانية ، فلم تكف بالأمر بالمشاورة ، وانما رسمت اخلاق الاسلام وروحه التى يجب ان يتحلّى بها الحاكم ، فأوصفته بالرحمة ولين الجانب والعفو والتسامح والدماء للمسلمين بالمغفرة ، وكل هذه المظاهر تمهد للمشاورة (٦) .

معنى ذلك ان الحكومة فى الاسلام تتميز بصفتين :

١ - الحرية السياسية ، وهذه تتجلى كما ذكرنا فى مبدأ الشورى ، فلا استبداد فى الراى من قبل الحاكم ولا قلة تتحكم فى السكثرة .

٢ - هناك حرية فى التفكير والنصح والنقد وابداء الراى فالحرية بصانة ، وكل مسلم له الحق فى ان يبدي رايه فى اعمال الحاكم واعمال اخوانه اذا كان فيها ضرر على المجتمع الاسلامى ، وله ان ينبه على الخطا ويحل على الطريق الحسن ، وهذا هو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر يفعل ذلك دون ان يخاف ظملا او تعسفا او سجفا (٧) .

وكذلك فان له ان يقترح على الحاكم ما فيه الخير للمجتمع .
خطب عمر بن الخطاب فى الناس عندما اراد القنول من طاعون عبواس فقال : « من علم شيئا ينبغى العمل به فليعلمنا نعمل به ان شاء الله (٨) » .

٣ - هناك حرية التملك فانت تستطيع ان تملك ما تشاء بالحق أى بسمعك ومالك ، ليس بالسرقة او الرشوة او الاغتصاب ولا يحق لأحد من الناس ولا للحاكم ان ينزع حق التملك منك ، ولا ان يأخذ من مالك الا برضاك ليس غصباً ولا سرقة ، ولا تأمياً قال رسول الله صلى عليه

(٦) أحمد شلبى « مقارنة الأيمان » ص ٢٥٤ ح ٣ .

(٧) صلاح الدين المنجد « المجتمع الاسلامى » ص ٣٤ .

(٨) ابن كثير « البداية والنهاية » ص ٧٩ .

وسلم « كل المسلم على المسلم حرام — دمه وماله وعرضه » (٩) ولا تقيد الملكية الا اذا أدى استعمالها الى الاضرار بالغير .

واذا تركنا ذلك ونظرنا الى العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى الاسلام نجدها فى قوله تعالى « اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (١٠) فالحاكم الذى يبايعه المسلمون لضمان حقوقهم ومراجعتهم فى واجباتهم له عليهم حق السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، وهذا يعنى مؤازرة الحاكم فى كل شئ مادام يتقيد بالشرع او مادام متصفا بشروط الامامة فاذا خرج عن الشرع او فقد شروط الامامة فلا طاعة له (١١) .

وهناك نماذج مشرفة فى الاسلام لهذه العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ولا يفوتنسا أننا نتوه هنا بعهد الخليفة العظيم عمر بن الخطاب الذى ضرب أروع مثل فى هذه العلاقة الحرة الديمقراطية ، حتى لنراه يوما يصعد المنبر خطيبا فيقول على حسب رواية بن الجوزى « لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعمائة درهم من زاد القيت الزيادة فى بيت المال » ثم غادر المنبر فلتبريت اليه امرأة من صف النساء تقول « ما ذلك لك » فسألها ولم ؟ فأجابت لأن الله تعالى قال « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا تأخذونه بهتانا وإثما مبينا » فقتل عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر ، ثم رجع الى المنبر فقال : أيها الناس كنت نهيتكم أن لاتزيدوا النساء فى صحتقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب وطابت به نفسه فليفعل (١٢) .

هذا دليل بسيط على ديمقراطية الاسلام ، وكيف كانت العلاقة بين

(٩) خطبة حجة الوداع . انظر بن هشام « السيرة النبوية » ج ٤

ص ١٩٢ — ١٩٣ .

(١٠) سورة النساء آية ٥٩ .

(١١) محمد الدنى « المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء »

ص ١١٥ .

(١٢) عائشة عبدالرحمن « المرأة المسلمة بين الأمر واليوم » ص ٨٦

الحاكم والمحكوم ليس هناك حجابا يحجب بينهم ، ولا مانع يمنع أحدا من مجادلة الخليفة بما يراه فى مصلحة الاسلام ، وليس هناك ما يمنع انسانا من ان يأخذ حقه من الخليفة سواء اكان هذا الحق حقا ماديا ام معنويا ، فالاسلام هو دين الديمقراطية الحقة .

وقد افرد بن عبيد ربه فى كتابه « العقد الفريد » كتابا للمواعظ والزهد وهو ملء بما وعظ به العباد رجال الحكم من الخلفاء .

ويكفى ان نثبت صلاحية الحكم فى الاسلام بما يثبت من تقدم الشعب ورفاهيته فى عهد الخلفاء الراشدين فالفساد الذى طرأ فى عهد متأخر لا يرجع الى تآتون الاسلام ، وانما الى التخلّى عنه .

ويكفى ان نؤيد رايضا هذا برأى فيليب حتى المستشرق المعسدى للاسلام ، والذى عاب من قبل شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه انصف الحكومة الاسلامية فى قوله : « لم تكد تمر مائة عام على وفاة مؤسس الاسلام ، حتى صار اتباعه سادة امبراطورية اعظم من امبراطورية روما ابان مجدها ، امبراطورية امتدت من خليج بسكاي الى نهر السند ، ومن تخوم الصين وبحر آرال الى الهندل انغليسا من الفيل » وكان اسم النبی العربى مقترنا بلفظ الجلالة ، تردده الالفنة خمس مرات فى اليوم من آلاف المآذن المتناثرة فوق جنوب أوربا وشمال افريقيا ، وغرب آسيا ووسطها (١٢) .

حقيقة ان الدين الاسلامى لم يهمل النظم السياسية التى سيساس بها العالم ، فقد قرر هذا الدين فى محكم آياته مبدأ المساواة بين الناس

نامية ، والمرأة والرجل والصغير والكبير ، والغنى والفقير والوالى والمساكين كلهم متساوون مساواة تامة ، والله سبحانه وتعالى هو الذى جعل الناس شعوبا وتبائل مختلفة متعددة : والجميع متساوون امام الله واكرمهم عند الله اتقاهم (١٤) .

قال تعالى : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وتبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (١٥) وقوله تعالى : « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » (١٦) .

وبهذا اقر الاسلام بان الخلق ابنساء اب واحد وام واحدة فى اصلهم فمهما كان موطن مولدهم ، ومهما كان وضع طبقتهم فهم متساوون ، فلا تفاخر بالانساب ولا تباهى بالالقباب ، يقول تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا بالالقباب » (١٧) .

ولم تكن المساواة معروفة قبل الاسلام . بل كان يسود المجتمعات البشرية نظام الطبقات ، والتفرقة الكبيرة بين الطبقة والاخرى بل بين افراد الطبقة الواحدة ، فكان اذا قتل لقبيلة عبد اجتمع افرادها ليقرروا ما يساوى عبدهم من افراد القبيلة . وقد جزم القرآن الكريم بالتصاوص فى سورة البقرة « يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم التصاوص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى » (١٨) .

(١٤) عبد الرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث » ص ١١٣ .

(١٥) سورة الحجرات آية ١٣ .

(١٦) سورة النساء آية ١ .

(١٧) سورة الحجرات آية ٤٩ .

(١٨) سورة البقرة آية ١٧٨ .

وبهذه المساواة التامة بين أفراد الجنس البشرى حصن المسلمون
ضد الانقسامات التي نشاهدها في معظم بلاد العالم ، ولعل ما يعترى
العالم على فترات الزمن من جور الأمم بعضها على بعض % وبقي
الأفراد بعضهم على بعض يرجع كله الى عدم المساواة ، فما زالت بعض
الأمم تعتبر أفرادها من جنس مفضل على جنس أفراد غيرها ، وما زالت
الفرقة العنصرية واختلاف الأصل بين الدول الكبرى سببا في اندلاع
الثورات وعدم الاستقرار .

المستشرقون والنظم الاقتصادية في الاسلام

لاقت النظم المالية في الاسلام من زكاة وصدقة وماء وغنم وجزية وخراج وضرائب متنوعة وجهات نظر ، وآراء هدامه من قبل المستشرقين ، فمنهم من بين قيمة هذه النظم ، وانها نظم عادلة لم تجاف الحق ، ولم تنظم احدا ، ومنهم من تجنى عليها وربما بالقصور والظلم ، وذكر « ان الاسلام ليس الا دين تشريع ومعاملات ، ولم يأت للناس بنظام منفصل للشئون الاقتصادية والحياة السياسية » (١) .

وهناك ماكتبه ماكس بريثم العالم السويسري في حديث مجحف يجافى الحقائق التاريخية ، فقد انتهى فيه الى ان نظام الجزية في الاسلام اضطر الكثير الى الدخول في الاسلام تخلصا من الضرائب الثقيلة التي فرضت عليهم ، واعفى منها المسلمون ، وايضا لتكون لهم المسكنة الاجتماعية التي يتمتع بها المسلمون دونهم « ولم يخل كلامه من تضارب واضطراب (٢) .

وهناك رأى لأحد المستشرقين يدعى فيليب فوتداس خاص بالزكاة في الاسلام ، يقول « ان الاموال المادية في نظر الاسلام هي من اصل نجس شيطاني ، ويحل للمسلم ان يتمتع بهذه الاموال شريطة ان يطهرها » وذلك بارجاع هذه الاموال الى الله . ويظهر ان الشارح اخذ من قوله تعالى : « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (٣) . أي — على

(١) محمد غلاب « نظرات استشرافية » ص ٥٨ .
(٢) عبد الجليل شلبي « الاسلام والمستشرقون » ص ٩٧ .
(٣) سورة التوبة آية ٣٠ .

اعتقادهم — ان الاموال نجسة في اصلها، واذن فالزكاة وسيلة لتطهيرها، وبذلك فهم التطهير لها حربيا او حسيا (٤) .

ورأيت قبل ان افند افتراءات المستشرقين ، وارد شبهاتهم ان انكر بعضا من آراء المنصفين منهم ، فالسير توماس ارنولد يقول في موضوع الجزية « لم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين ، كما يريد بعض الباحثين على الظن — لونا من الوان العقاب لامتناعهم عن قبول الاسلام وانما كانوا يؤدونها مع سائر اهل الذمة ، وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سسيوف المسلمين ، ولما قدم اهل الحيرة المسال المتفق عليه ذكروا صراحة انهم انما دفعوا هذه الجزية على شريطة ان يمنعونا واميرهم البغي من المسلمين وغيرهم ، وكذلك حدث ان سجل خالد في المعاهدة التي ابرمها مع بعض اهالي المدن المجاورة للحيرة قوله « فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا » .

ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعت في حكم الخليفة عمر ، لما حشد الامم، راطور هرقل جيشا ضخما لصد قوات المسلمين المحتلة ، كان لزاما على المسلمين نتيجة لما حدث ان يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي احدثت بهم ، فلما علم بذلك ابو عبيدة قائد العرب كتب الى عمال المدن المفتوحة من الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبي من الجزية من هذه المدن وكتب الى الناس يقول « انما رددنا عليكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم ، وانا لانقدر على ذلك » وقد رددنا عليكم ما اخذنا منكم ، ونحن لسكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم » وبذلك وردت مبالغ طائلة من مال الدولة ، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين ، وقالوا : ردكم الله علينا

(٤) محمد البهي « الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار » ص ٥٢ نقلا عن فيليب فونداس « دراسة عن الاسلام في افريقيا السوداء »

ونصرهم عليهم . « أى الروم » فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا ، وأخذوا كل شيء بقى لنا ، ويستطرد توماس أرنولد قائلا : ان الجزية فرضت على القسادين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التى كانوا يطلبون بأدائها لو كانوا مسلمين (٥) .

والى جانب رأى توماس أرنولد نضيف ماذكره المؤرخ فيليب حتى فى هذا الصدد — على الرغم من عدائه للاسلام — « كان اهل الذمة يتمتعون فى نظير دفع الجزية والخراج بحظ كبير من التسامح الدينى ، وكانوا يخضعون حتى فى الأمور المدنية والقانونية جميعا الى رؤسائهم الرئيسيين » (٦) .

والمعروف ان الجزية وجبت على اهل الذمة ، كما وجبت الزكاة على المسلمين ، حتى يتكافأ الفريقان ، وهما رعية لدولة واحدة فى المسئولية ، كما تكافأ فى التمتع بالحقوق وتساويا فى الانتفاع بالاموال العامة للدولة ، فليست الجزية دينا على الذمى يستوفى منه بالوسائل التى تستوفى بها الديون ، فمن وجبت عليه الجزية ومات او اسلم قبل دفعها لم تؤخذ من تركته ، ولم يطالب بها ورثته (٧) .

وانما تجب الجزية على الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء القادرين على الدفع ، ولا تؤخذ جزية من مسكين يتصدق عليه ، ولا من لا قدرة له على العمل ، ولا من الأعمى ، او المتعد او المجنون وغيرهم من ذوى العاهات ولا من احد من المترهبين فى الأديرة وأهل الصوامع الا ان كان غنيا .

وبلاحظ أن الشرع لم يفرض الجزية الا على الأشخاص الذين يجب

(٥) توماس أرنولد « الدعوة الى الاسلام » ص ٧١ .

(٦) فيليب حتى « تاريخ العرب » ص ٢٣٣ .

(٧) أبو يوسف « كتاب الخراج » ص ١٣٢ .

عليهم الجهاد ، وكانوا مسلمين ، وأنه اعنى منها الاشخاص الذين يعفيهم من القتال .

وفى ذلك يقول الماوردى « واسمها مشتق من الجزاء ، فيجب على اولى الامر ان يضعوا الجزية على رقاب من دخل الذمة من اهل الكتاب ليقرأوا « يستقروا » بها دار الاسلام ويلتزم لها ببذلها بحقين ، احدهما الكف عنهم ، والثانى الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين » (٨) .

أما مقدار الجزية فقد قسمها أبو حنيفة ثلاثة أقسام :

- ١ - أغنياء يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهما .
- ٢ - ومتوسطون يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهما .
- ٣ - وفقراء يكسبون ويؤخذ منهم اثنا عشر درهما .

وأما جباية الجزية فقد أوصى صاحب الشرع وقادة الاسلام بالرفق والانصاف فى جبايتها من اهل الكتاب وصيانة ارواحهم واموالهم من عبث الجبساء والولاه ، وتقضى القاعدة الفقهية أو دستور الاسلام فيما يتعلق بطريقة أخذ الجزية من دائعها بأن « لا يضرب أحد من اهل الذمة فى استيلائهم الجزية » أى لحصلهم على ادائها ، ولا يقاوموا فى الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم فى ابدانهم شئ من المسكاره ، ولكن برفق يحبسون حتى يؤدوا ما عليهم » (٩) .

ويمتدح هذه النظم نجسدا أنها نظما عادلة راعت حالة الشعب الاقتصادية ، ولو قارنا ذلك بأحوال هذه البلاد فى العهدين الرومانى والبيزنطى ، فقد كانت هناك نظم جائرة ، فقد كان الروم يجبون منها

(٨) الماوردى « الأحكام السلطانية » ص ٢٦٣ .

(٩) أبو يوسف « كتاب الخراج » ص ١٣٣ .

عشرين ألف ألف دينار ، وإن الفراعنة كانوا يجيئون تسعين ألف ألف .

أما عن الخراج ، فقد وضع أنه ضريبة على الأرض التي يفتحها المسلمون فتصبح فينا لهم ، والواقع أن المسلمين بدأوا أولا بالسلم وبعرض الاسلام على اهل البلاد المفتوحة ، فإذا لم يجيبوا الى الاسلام فالحرب بينهم ، وبذلك تصبح أراضيهم من جملة الفء ، وقد ذكر ابو يوسف في كتاب الخراج أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى سعد بن أبي وقاص حين افتتح العراق « أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم فيهم مغنمهم ، وما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابى هذا ، فانظر ما اجلب الناس عليك به الى العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك فى اعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء ، وقد كنت امرتك أن تدعو من لقيت الى الاسلام قبل القتال ، فمن اجاب الى ذلك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم ، وله سهم فى الاسلام ، ومن اجاب بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين ، وما له لاهل الاسلام لانهم قد احرزوه قبل اسلامهم فهذا امرى وعهدى اليك » (١٠) .

من هذا النص يتضح لنا مدى سماحة الاسلام ، وكيف ان المسلمين كانوا يراعون اهل الذمة ، وكيف ان الذمى اذا دخل فى الاسلام اخذ نفس حقوق المسلمين لم ينقص منه شيء ، وان هناك اراضى تترك لأصحابها يدفعون عنها الخراج الذى قرره عمر بن الخطاب بعد ان اسس جعاعة من المسلمين ، وجميعهم كانوا يرغبون فى أن تؤخذ هذه الاراضى من اصحابها ، وتصبح ملكا لهم ، ولكنه قال : « رأيت ان احبس الأرضين بملوجها واضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فينا للمسلمين المقاتلة والذرية لى يأتى بعدهم » .

(١٠) ابو يوسف « كتاب الخراج » ص ٢٦ .

(م ٨ — الاستثنائى)

وبذلك مسح عمر أرض السواد « العراق » فبلغ ستة وثلاثين ألف ألف جريب . وبلغ على جريب الزرع درهما وفتيزا وعلى السكر عشر دراهم وعلى الرطب خمسة دراهم ، وعلى الرجل اثني عشر درهما وأربعة وعشرين درهما ، وثمانية وأربعين درهما (١١) .

والذكره أبو يوسف في كتاب « الخراج » ، واذ حللنا هذا النص نجد فيه مدى عدل الخليفة عمر ، فإنه لم يجعل الخراج مبلغا مساويا من المال يفرض على الأرض عامة ، ولكنه راعى في هذه الأرض نوعها ، ونوع المحصول الذي تنتجه ، ثم قدر بعد ذلك ، كما أنه راعى أمورا كثيرة منها سهولة ربا وتربيا وبعدها للعمار ، كما راعى ظروف الذامين ، فلم يجعل الجزية متساوية ، ولكنها قسمها طبقا لأحوال الفرد المالية .

وقد حاول المستشرق ماكس بريشم أن يدس اتهاما آخر ، وهو أن الذامين « بدأوا يقبلون على الإسلام هربا من هذه الالتزامات المالية الكبيرة التي فرضها عليهم الإسلام » (١٢) .

والحقيقة أن هذا الرأي خاطيء ، خاصة وأن المسلمين اضطروا في فترة من تاريخهم إلى ابتداء الجزية على من أسلم ومع ذلك فلم تقل حركة الدخول في الإسلام بل كانت تزداد يوما بعد يوم ، فقد حدث أن رأى الحجاج بن يوسف وإلى العراق أن إيرادات بيت المال تنناقص من جراء دخول عدد كبير من أهل الذمة في الإسلام ، لذلك خالف سنة ابن الخطاب وأبقى الجزية على من أسلم وسار الولاة من بعده على هذا العيل ، فلم تقل حركة الدخول في الإسلام فقد حاول الوالى على مصر أن يفعل ذلك غير عهد عمر بن عبد العزيز ، فرد عليه بقوله « فضع الجزية عن أسلم تبع الله ربك ، أنا بعث الله محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا » (١٣) ورفع الجزية عن أسلم مرة أخرى .

(١١) أبو يوسف « المصدر السابق » ص ٤١ .

(١٢) عبد الجليل شاذلي « الإسلام والمستشرقون » ص ٩٧ .

(١٣) الطبري . « تاريخ الرسل والملوك » ج ٦ ص ٢٠٣ .

الاسلام والملكية

اعترف الاسلام بالملكية الفردية الناشئة عن سبب مشروع ، ليشجع بذلك الدوافع الفطرية في حب التملك والادخار ، ولكنه لا يشجع الملكية الفردية اذا نشأت عن سبب مشروع ، فقد سمح بمصادرة هذه الاموال مهما طال عليها الزمن .

وقد شجع الاسلام الانسان ليحصل المال وينتفع به ، تأمر بتحصيله عن طريق التجارة وبالرحلة اليمينية والشامية اللتين يسرهما الله لقرش في تجارتها يمن عليهم ويذكرهم بفضلهم ونعيمه ، وأمر بتحصيله عن طريق الزراعة التي بها حياة الأرض واستثمارها ، وبتحصيله من الصناعة والصناعة اقوى العمد التي تقوم عليها الحضارات وفي القرآن الكريم اشارات كثيرة الى جملة من الصناعات مثل الحديد (١٤) .

أمر القرآن بتحصيل الاموال عن هذه الطرق وسمى طلبها **البتقاء** من فضل الله ، وقد بلغت عنايته بالاموال أن طلب السعي في تحصيلها بمجرد الفراغ من أداء العبادات الاسبوعية المفروضة ، وانه لم يأمر بالانصراف عن تحصيلها الا لخصوص هذه العبادة ، يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسسعوا الى ذكر الله وذروا البيع » (١٥) .

معنى ذلك أن المال ليس غاية في ذاته ، وانما هو وسيلة من وسائل تبادل المنافع وقضاء الحوائج ، فمن استعمله في هذا السبيل كان المال في يده خيرا له وللمجتمع ومن استعمله على انه غاية ولذا انقلب الى شهوة تورث صاحبه المهالك وتفتح على الناس ابوابا من الفساد .

هذا موقف الشرع من المال ، اما موقفه بالنسبة للانتفاع به فقد أمر بالاعتدال في صرفه ، وقرر بالنهي عن الاسراف فيه ، وبالنهي عن الضن به وجعل الاعتدال في صرفه من صفات المثريين عباد الرحمن ، وجعل الاسراف فيه ، والضن به عن الحقوق والواجبات مما يوقع في الحيرة

(١٤) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٥٠-٢٥١ .

(١٥) سورة الجمعة آية ٩ .

والملزمة (١٦) فالإنسان في الإسلام ليس مالكا حقيقيا يتصرف في المال كيف يشاء لأن المال مال الله ، ومعنى هذه العبارة ، أنه مال الجماعة والفنى مرهف على رعابته وانفاقه بما يوافق صالح الجماعة « وأغثوا مهاجرتكم مستخلفين فيه » (١٧) وقوله تعالى « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (١٨) .

فالملكية اذا وظيفة اجتماعية ، والغنى اذن مطالب ازاء مجتمعه بواجبات مالية أدناها الزكاة ، وهى ليست تبرعا ولا احسانا يعطيه الغنى للفقير فيشعر بالاستعلاء ، ويشعر الفقير بالمذلة والهوان ، بل هى حق معلوم وضريبة مفروضة تأخذها الدولة بواسطة الجباه العاملين عليها ، وتنفقها على المحتاجين ، وعلى المصالح العامة . قال تعالى :

« انما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها والمؤلفة لطلبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » (١٩) .

وقد نص الامام الشافعى على أن للفقير احقية استحقاق المال حتى صار بمنزلة المشترك بين صاحبه ، وبين الفقير ، ويجوز للفقير أن يأخذ مقدار الزكاة اذا ظفر به ، وكان صاحبه قد امتنع عن أدائه ، وفى هذا اخراج للزكاة عن أن تكون مظنة للذل والمهانة للفقير ، كما يتوهم بعض الناس (٢٠) .

والنسبة المفروضة من زكاة المال هى ٢.٥٪ وهى نسبة مقبولة تسخو بها النفس طواعية ، واختيارا وهى مع ذلك تجمع حصيلة كبيرة جدا لأنها نسبة من رأس المال والربح الناشئ عنه خلال السنة كلها ، كما أن الزكاة عامل من عوامل توزيع الثروة وانتقالها من ايدى الناس

(١٦) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٥٢ .

(١٧) سورة الحديد آية ٧ .

(١٨) سورة النور آية ٣٣ .

(١٩) سورة التوبة آية ٦٠ .

(٢٠) مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام » ص ١٢٨ .

خلال سنوات محدوده بحيث يكون ما يملكه الانسان بعدها ثروة جديدة انشاها بجهده وعمله (٢١) .

وقد اشاع بعض المستشرقين كلاما مرذولا حول بيت المال الذى تجمع فيه الزكاة والموارد الأخرى ، وأن بيت المال ان هو الا خزينة خاصة ينفقون منها كيف شاءوا ، دون معقب (٢٢) .

هذا رأى بعض المتفالمين والحاقددين على الاسلام ، حاولت ان اعارضه برأى لمستشرق آخر منصفى هذا الموضوع بالذات وهو المستشرق ساسينيون قال « ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد فى تحقيق فكرة المساواة ، وذلك بفرض الزكاة التى يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو يناهض الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التى تفرض على الحاجات الاولى الضرورية ، ويقف فى نفس الوقت الى جانب الملكية الفردية ورأس المال التجارى ، وبذا يحل الاسلام مرة اخرى مكانا وسطا بين نظريات الرأسمالية والبورجوازية ، ونظريات البلشفية والشيوعية » (٢٣) .

ولابد ان نرد هذه الشبهات عن الاسلام ، فالذى يعرفه كل دارس للشريعة الاسلامية وتاريخها ان بيت المال ليس ملكا للخليفة ، وانما هو ملك للامة جميعها ، والخليفة انما هو خازن أمين ليس له منه الا راتبه بالمعروف كما قال أبو بكر رضى الله عنه : « أعطونى كأوسس رجل من قريش » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « انما انا وهذا المال كولى اليتيم ان استغنيت استعفت ، وان افتقرت اكلت بالمعروف » وأبى على ابن أبى طالب ان يأخذ من بيت المال شيئا لنفسه وأهله ! (٢٤) .

هذا مسلك الراشدين من حكام المسلمين ، وخلفائهم ، أما انحرافات بعض الحكام ، فليس حجة على الاسلام ولا يسأل عنها .

واذا كان الاسلام قد سمح بالملكية الفردية الا انه وضع عليها قيودا بل وسمح لولى الأمر ان يعمل جهده بما يحقق للامة الانتفاع بها

(٢١) مصطفى السباعى « الرجوع السابق » ص ١٢٩ .

(٢٢) القرضاوى والعسال « الاسلام بين شبهات الضالين » ص ٢٣

(٢٣) محمد على « مولانا » الاسلام والنظام العالمى الجديد ص ٤٥

(٢٤) الطبرى « تاريخ الامم والملوك » ج ٤ ، ص ١٧٥ ، ٢٠٣ .

تعالى : « وإن يعمل على تسييقها بحيث لا يترك الأموال تتكسفن في تركيز عنصر واحد منها دون سواه . فلا عليه أن يحول بعضها من الأراضي الزراعية إلى رؤس الأموال تجارية أو شركات صناعية ، على حسب حاجة البلاد المبنية على تقدير مصالحها : ويتم بذلك تسييقها على الوجه الذي يجعلها غنية بنفسها عن غيرها (٢٥) . »

وقد عني القرآن الكريم عناية كاملة بالحث على البذل للفقراء المساكين والاتفاق في سبيل الله .

كما القرآن عمل على تحقيق الانتفاع بالمسال لخير الجميع . وتطهيرا للنفوس من بواعث الأثرة منها . وحارب الاسلام في المالكين لها والقائمين عليها خلق الشح الذي يمنع من البذل والاتفاق . كما جارب السفه الذي يؤدي بالمال في غير وجوه النفع . واقامة المصالح يقول الله تعالى « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (٢٦) .

وقد ارشد القرآن الكريم الى أن الضن بالأموال عن اداء الواجبات واقامته المصالح القاء بالنفس الى التهلكة .

وكما وقف القرآن وبجانبه اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم من الشح بالأموال هذا الموقف : وقف أيضا الموقف عينه من التبذير فيها ، واضاعتها فيما لا يعود بخير على الأمة « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » (٢٧) . وبعد أن أفرد القرآن كلا من الضن والتبذير بما يصور بسوء عاقبة جمعها في اطار واحد وارشد الى الطريق السوي الذي يسلكه ارباب الأموال في اموالهم ، فيحفظ عليهم حياتهم ، ويمكنهم من اقامتها على عمسدة قوية ثابتة (٢٨) قال تعالى :

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد

(٢٥) محمود شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٥٥ .

(٢٦) سورة التغابن آية ١٦ .

(٢٧) سورة الاسراء آية ٢٧ .

(٢٨) شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٥٨ .

ملوما محسورا » (٣٩) وقد حظر القرآن التعامل بالربا تشبها وكثيرة ، واعتبر أكل الربا محاربا لله ورسوله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين » (٢٠) .

وحرم عليهم الاحتكار الذى هو سمة الرأسمالية فقد قال صلى الله عليه وسلم « الجالب مرزوق والمحتر ملعون » (٢١) .

وقد حرم الاسلام الوان الترف التى تفسد الأفراد ، فالخمر ممنوعة ، وأوانى الذهب والفضة محظورة ، ولبس الذهب والحريز للرجال محرم

قال تعالى « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترغيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٢٢) .

من ذلك نرى أن النظم الاقتصادية الإسلامية نظم عالمية متحضرة ، فقد اقام الاسلام قواعد الاقتصادية على : منع الاستغلال بغير عمل ، وإن يتداول المجتمع الثروة حتى لا تكون دولة بين الأغنياء ، وقرر أن تسكون للضعفاء والمحرومين حصصة سنوية ، وهى حق معلوم للسائل والمحروم ، قد يزداد عليها بأمر الإقامة وإحسان المحسنين .

فإذا كان المسلمون قد دفعوا الزكاة ، فقد دفع الذايمون الجزية ، فالمسلم لابد أن يتركى من ماله حتى لا يجبسه ، ويجب أن يتداول هذا المال فى التجارة والصناعة والعمل (٢٣) .

من هذا العرض نرى أن الاسلام يشجع تداول رأس المال ، وتشغيله فإذا حبسه الانسان حولا كاملا ، وجبت عليه الزكاة وهى ٢٪ كذلك فرضت الى جانب زكاة المال زكاة الثمار والزررع ، وزكاة الأرض والثمار والذهب والفضة ، فالمجتمع الاسلامى هذا مجتمع متكامل متضامن ، ولا

(٢٩) سورة الاسراء آية ٢٩ .

(٣٠) سورة البقرة آية ٢٧٨ .

(٣١) القرضائى والعسال « المرجع السابق » ص ٢٤ .

(٣٢) سورة الاسراء آية ١٦ .

(٣٣) عباسى العقائد « ما يقال عن الاسلام » ص ١٨٨ .

ولا اظن ان النظم الاجتماعية الحديثة من تكافل وتضامن ورعايه اجتماعية الا شيئا قليلا مما اقره الاسلام .

واعتقد ان هذا رد كاف على المستشرق المتغالى الذى تصور ان اهل ائمة قد اسلموا هربا من الضغوط المالية ، كيف ذلك وهذه هي نظم الاسلام المالية .

فالنظم الاسلامية نظم عادلة : ومهما رفع دعاة الاشتراكية رؤوسهم ونادوا بمبادئهم ونظمهم ، فليس فى نظمهم وقوانينهم مثل هذه الاشتراكية النابعة من ضمير الانسان ، والتي جعلها الاسلام ديننا تقتزن به دعواه من صلاة ، وشهادة ، وتوحيد ، والمال كله ملك للامة تحفظ اليد المستخلصة فيه وتنميه ، ثم تنفع به كلها ، يخرج من احد جانبيها ويقع فى الجانب الآخر فهو منها كلها ، وهو اليها كلها ، وما اليد المعطية ، واليد الآخذة الا يدان لشخصية واحدة كلتاهما تعمل لخدمة تلك الشخصية ، وهى شخصية المجتمع الذى لا قوام له الا بتكافل هاتين اليدين على خيره وبقيائه ، ولعل معنى الوسيطة التى حل بها الاسلام المشكلة المالية تظهر بذلك ، تلکم المشكلة التى ظل بها العالم فى امسه وحاضره متردد بين طرفى الامراط بالطغيان المالى والتفريط بالغاء الملكية الفردية ، وبذلك تقطعت ارواصر الرحم الانسانى ، وسخر الاغنياء الفقراء ، وثار الفقراء على الاغنياء ، ونشبت الحروب المدمرة ، وانفست دعاوى المدعين السفين بخدمون انفسهم من واقع الامر ، ويتظاهرون بخدمة المجتمع الانسانى ، وما ربك بغافل عما يعملون (٢٤) .

المستشرقون والنظم الاجتماعية فى الاسلام

لم يهمل المستشرقون بابا فى النظم الاسلامية الا تدارسوه ، وبدلوا من اصدار الاحكام الجائرة عليه ، وكما بينت فى كلامى السابق ان مرجع كل هذا هو العداء الصريح للاسلام والجهل به ، ولذلك فمن الموضوعات التى شغلت افكار واقلام طائفة المستشرقين المهادين للاسلام كانت النظم الاجتماعية فى الاسلام ، واهم قضاياها . الفقر ، التعاون ، المرأة وما يخصها من موضوعات : الرق فى الاسلام .

وسأتناول كل قضية من هذه القضايا على حده . متعرضة لآراء المستشرقين فيها ، مع تقديم الردود المؤيدة بالقرآن والسنة .

وسأبدا بمشكلة الفقر التى حاول هؤلاء المستشرقون ان ينسبوها الى بلاد الاسلام متخذين من سوء الاحوال الاقتصادية الموجودة فى كثير من البلدان الاسلامية سببا فى ترديد هذا الرأى متخذين من النظم الاقتصادية الاسلامية سببا لهذه المشكلة .

والدارس للاسلام يرى ان الفقر مرض اجتماعى ، وليس قدرا مقدورا . لا حيلة فى دفعه بسمى او كسب ، لقد أمر القرآن بالسعى فى الارض قال « هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشسوا فى مناسكبها ، وكلوا من رزقه » (١) فلا يكون الفقر بعد ذلك الا لاحد امرين اما كسل او خمول وهذا لا يقره الاسلام ، واما العجز عن العمل ، ومثل هذا الفقر الذى لا حيلة للانسان فى دفعه ، هو الذى وضع له الاسلام من قوانين التكافل الاجتماعى ما يدفع بؤسه ويحفظ للفقر كرامته .

ومما يدل على نفرة الشريعة من الفقر قوله صلى الله عليه وسلم « كاد الفقر ان يكون كفر » (٢) وكان من دعائه عليه السلام « اللهم انى

(١) سورة الملك آية ٥١ .

(٢) رواه ابو نعيم فى الحلية .

اعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل ، واعوذ بك من الفقر والكره والفسوق . واعوذ بك من الصمم والبكم والجنون وسوء الاستقام » (٢) وفى دعاء آخر للرسول عليه السلام « اللهم انى أسالك التقى والهدى والعفاف والغنى » (٤) .

وهذا انتقال من موقف السلبية ، تجاه الفقر الى الايجابية من عكسه وهو الغنى ، وان فى طلب الرسول للغنى وهو قوة الزهاد فى الدنيا لدلالة بعيدة الأثر فى هذا المقام (٥) .

وقد عمل الاسلام على حل مشكلة الفقر ، فشرع تشريعات تعمل على الحد من هذا المرض الاجتماعى الخطير ، فقد رأينا فى دراستنا للزكاة التى فرضها الله سبحانه وتعالى على عباده القادرين حلا أمثل لهذه المشكلة ، فقد جعلها الله اذن لقومير العيش والعلمانية للناسين والمحتاجين ، واذا امتنع الغنى عن اخراجها أخذتها الدولة منه قهرا ، وجاز لها أن تعلن الحرب عليه .

وقد جاء الاسلام بنظام الارث . وذلك للتضاء على تكديس الثروات فى يد واحدة ، وهو من عناصر الطغيان المالى الذى يثير فى الجماعة حرب الطبقات ، ويعطى بذلك فرصة متكافئة للفقراء ليتقوا مع الأغنياء ، وفتح لهم باب العمل والكسب : ولم يجعله محررا لطائفة : ولا مسدودا أمام احد فمن احيا أرضا ميتة فهى له ومن طرق باب تجارة فربحها فهى له ، ومن عثر فى باطن الأرض على ركاز (٧) ، يدفع الخمس منه والباقى له (٨) .

ومن لم يجد عملا وجب على ولى الأمر ان يبيىء له عملا ، فان لم

(٢) رواه الحاكم والبيهقى .

(٤) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

(٥) مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام » ص ٨٢ .

(٦) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشرعية » ص ٢٤٥ .

(٧) ركاز : ماركزه الله تعالى فى الأرض من المعادن فى حالتها الطبيعية ، والسكنز والمال . انظر المعجم الوسيط .

(٨) القرضاوى والعسال « المرجع السابق » ص ٢٥ .

بأنه عباد الله عباد أو كان عاجزاً عن العمل أو كان أجراً . . . عنه . . . كان واجباً على ولي الأمر أن يرعاه . . . وأن يبين له ما هو حق لستار . . . مسلم أو ذمى في ظل دولة الاسلام .

وقد جعل الاسلام نفقة الفقير العاجز واجبة على قريبه الغنى ، وللحاكم اذا لم تكن الزكاة كافية لسد هذه الحاجات ان يفرض على اغنياء اذا لم تكن الزكاة كافية لسد هذه الحاجات ان يفرض على اغنياء المسلمين الضرائب الكافية التي تقيم مصالح المسلمين (٩) .

وقد قرر علماء المسلمين هذا المبدأ ، فاذا احتاج المسلمون . . . فلا مال لاحد كذلك اوجب الاسلام على اهل كل قرية ان يلتزموا بسد حاجة فقرائها ، ان لم تكف الزكاة ، وقد قرر ابن حزم « ان من ولي الامر يلزم الاغنياء من اهل كل قرية بذلك في هذه الحال » (١٠) . وهكذا اقام الاسلام العلاقة بين الغنى والفقير على اساس المساواة والعدل .

فهو يسوى بين الجميع في الحقوق والواجبات العامة ، ويتيح الفرصة للجميع ليتكسبوا ، ويقول للاغنياء « انفقوا من طيبات ما نسبتم » (١١) ويقول لولى الامر « خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (١٢) ويقول للفقير لا تحقد ، ولا تحسد « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجنا منهم » (١٣) ثم يقول للجميع ، كونوا عباد الله اخوانا .

والمعروف ان الاسلام اعطى للفقراء مالم يعطه دين آخر ، واهتم بهم اهتماماً بالفاس لم يهتم به اى نظام اقتصادى عرف من قبل . محاولاً بذلك رفع الفقر عنهم لئلا يفسد المجتمع الاسلامى بوجود عناصر حاكمة محرومة غيه فالفقر يدفع الى الكفر ، ولذا نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يشير الى الفقراء في اكثر من موضع ، قال صلى الله عليه

-
- (٩) محمد ابو زهرة « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٣٠ .
(١٠) المرجع السابق .
(١١) سورة البقرة آية ٢٦٧ .
(١٢) سورة التوبة آية ١٠٣ .
(١٣) سورة الحجر آية ٨٨ .

وسلم « شر الطعام الوليمه يدعى لها الاغنياء ويترك الفقراء (١٤) » ، وقال « افضل الصدقة أن تشبع كبدا جائعا » (١٥) .

وقال عليه السلام « من منح منيحة لبن أو ورق أو أهدي زقاقا كان له مثل عتق رقبة » وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الكثيرة يفضل الفقير على الغنى ، ليخفف من شأن الغنى في المجتمع ، وليجعل الشأن للعمل النافع وللإيمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لأبي ذر أتري كثرة المال هو الغنى ، قال نعم يا رسول الله ، قال فتري قلة المال هو الفقر ؟ قال نعم يا رسول الله ، فقال الرسول : « انما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب » ، وفي حديث آخر « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكى الغنى غنى النفس » (١٦) .

وكان الرسول عليه السلام يحارب مظاهر الغنى حتى لا تؤذى نفوس الفقراء معنى الحديث « لاتشربوا في آنية الذهب والفضة ، ولا تلبسوا الحرير والديباج » (١٧) وفي حديث آخر « من لبس الحرير في الدنيا ، لم يلبسه في الآخرة » (١٨) وكان عليه السلام يأمر الفقراء ألا ينظروا إلى من فوقهم ، ولسكن إلى الذين دونهم ، كيلا يعمل الحقد غنى نفوسهم .

وقد أمر الإسلام باخفاء الصدقات التطوعية وعدم اظهارها أو المن بها ابتغاء الشهرة والظهور والا بطل ثوابها ، قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » (١٩) .

والمعروف أن التعاون من أهم الوسائل التي تقضى على ظاهرة الفقر في مجتمع من المجتمعات ، لأن التعاون والتكافل يؤديان إلى خلق مجتمع سليم ، وانما نرى اليوم في المجتمعات الحديثة مؤسسات تعاونية، ودور اجتماعية هدفها ربط الناس وتكافلهم بعضهم ببعض .

(١٤) رواه الشيخان .

(١٥) رواه البيهقي .

(١٦) رواه البخاري ومسلم .

(١٧) رواه الشيخان .

(١٨) رواه الشيخان .

(١٩) سورة البقرة آية ٢٦٤ .

وإذا كانت هذه النظم الحثيثة تدعو إلى ذلك ، فالدين الإسلامي هو دين المساواة والتكافل الاجتماعي ، والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هو أول استاذ لهذه النظريات في العالم .

وتعتبر دعوة الاسلام هذه اقدم دعوة في تاريخ العالم من ١٤٠٠ سنة ، والقرآن الكريم يقول في سورة المائدة محمدا التعاون على البر ، وقد جاء البر في القرآن بمعنى حسن المعاملة وطيب المعشرة ومكارم الاخلاق ، والبعد عن الطغيان .

وفيه ورد قوله تعالى « وبرا بوالدي ، ولم يجعلني جبارا شقيا » (٢٠)

وجاء البر بمعنى الانفاق والبذل في سبيل الله وهو طريق للحق والخير والنفع ، وورد قوله تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (٢١) .

وجاء البر بمعنى العبادة من صلاة وزكاة ، وفيه ورد قوله تعالى بعد ان امر بنى اسرائيل باقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة « اتأخرون الناس بالبر وتنسون انفسكم ، وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون » (٢٢) .

وجاء البر بمعنى مجموعة من الفضائل النفسية والاعتقادية والخلقية ، وفيه ورد قوله تعالى « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر والملائكة ، والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين وفى الرقاب واقام الصلاة ، وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى الباس والضراء وحين الباس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (٢٣) .

كما جاء البر أيضا بالدعوة إلى التضامن فى اعمال الخير ، وعندهم

-
- (٢٠) سورة مريم آية ٣٢ .
(٢١) سورة آل عمران آية ٩٢ .
(٢٢) سورة البقرة آية ٤٤ .
(٢٣) سورة البقرة آية ١٧٧ .

التضامن في أعمال العدوان في قوله تعالى « وتعاونوا على إبر والتتوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » (٧٤) وإلى جانب البر نجد الإسلام أعلن عن مبادئ كثيرة للتكافل الاجتماعي في نصوص كثيرة من القرآن والسنة ، فمن القرآن الكريم قوله تعالى « إنما المؤمنون أخوة » (٧٥)

إن إعلان الإخاء بين أفراد مجتمع ما يوجب التكافل بينهم لأمى الطعام والشراب وحاجيات الجسم فقط ، بل في كل حاجة من حاجيات الحياة .

فالدعوة التعاونية في الإسلام قد عمت أكثر من ذلك ، غامر بأن يكون الأخير بلا تحديد في نواحيه هو هدف المجتمع التعاوني ، كما أمر بالعبد عن الإثم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ونرى الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع أحاديثه يدعو إلى هذا المسداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه » (٢٦) وقوله عليه السلام « من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته » ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة » (٢٧) وقوله عليه السلام « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » (٢٨) وقوله « مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » (٢٩) .

وبذلك تتنوع أنواع التكافل في الإسلام ، فهناك التكافل الأدبي ، وذلك أن يشعر كل واحد نحن الآخرين بشعور الحب وحسن المعاملة والتعاون في سراء الحياة وضرائها ، وقد دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم « أحب لأخيك ما تحب لنفسك » (٣٠) .

(٢٤) سورة المسائدة آية ٢ .

(٢٥) سورة الحجرات آية ١٠ .

(٢٦) رواه الشيخان .

(٢٧) رواه البخاري ومسلم .

(٢٨) رواه الشيخان .

(٢٩) رواه الشيخان .

(٣٠) رواه الحاكم والطبراني .

وهناك التكافل العلمى ، فقد أوجب رسول الله صلى الله عليه وسلم
على العالم أن يعلم الجاهل ، وعلى الجاهل أن يتعلم من العالم . ويدخل
فى ذلك الا يضمن العالم بعلمه على الناس ، وان يكتم ما أدركه من اسرار
الشريعة او الكون ، لكى يتفرد بالرئاسة او التميز العلمى ، وقد جاء فى
ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « من كتم علما لجمه الله بلجام من نار يوم
القيامة » (٣١) .

وهناك تكافل سياسى . فقد قرر الاسلام أن لكل مواطن حقه
السياسى وحقه فى المراتبة والنصح لأولياء الأمور ، لأنه مسئول عن مستقبل
الامة وما كان كذلك ، فالمجتمع كله متكافل فى تأييد السياسة الرشيدة ،
وانكار الفساد والانحراف فيها ، ويدخل ذلك تحت عموم قوله صلى الله
وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (٣٢) .

وهناك تكافل دفاعى . وذلك ان كل مسلم فى الدولة عليه ان يتكافل
مع بقية مواطنيه بالدفاع عن سلامة البلاد ، وعليه النفير اذا اغار عدو
او مغير على ناحية منها بحيث أصبحت الامة فى حالة استنفار . وفى ذلك
نزل قوله تعالى « اتقوا خفافا وثقالا » (٣٣) ولا يعفيه من هذا الواجب
مقام ولا منزلة الا ان يكون به عذر او مرض (٣٤) .

وبذلك نرى ان الاسلام دين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويهدف
الى تكوين مجتمع صالح متعاون متكافل ، متراحم متواص بالخير ، متواص
بالرحمة له ولافراده ، لهم المجد والفلاح فى الدنيا والفوز والنجاح فى
الآخرة . واذا كانت بعض المجتمعات الانسانية تسير الآن فى ظروف
معتربة فيها الفقر والحاجة ، مما جعل اعداء الاسلام يتهالون على نظم
الاسلام ويتممونها ، فائنا بما قدمنا نكون قد اثبتنا أن المسئول عن هذه
المشكلة ليس الاسلام ، ولكن سوء تطبيق نظام الاسلام .

(٣١) رواه ابو داود الترمذى .

(٣٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣٣) سورة التوبة آية ٤١ .

(٣٤) مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام » ص ١١٨ .

المرأة المسلمة في نظر المستشرقين

وجه المستشرقون اتهامات كثيرة حول قضية « المرأة في الاسلام » وحاولوا ان يشوهوا الصورة الكريمة الى رسمها القرآن الكريم للمرأة، ورددوا شبهات واهية ، وصورا مكنوبة .

فقد زعم زاعمون منهم ان الاسلام اهتضم حق المرأة واسقط منزلتها وجعلها متاعا في يد الرجل يتصرف فيها كما شاء بما يشاء .

والحقيقة ان المسألة لا ترجع الى حق يريدون تقريره او باطل يريدون تزيفه ، وانما هي العصبية الدينية او الفتنة بالتقليد الاجنبى عن طريق استحسان ما يستحسنه القوي ، ولو كان قبيحا منكرا واستقباح ما يستقبحه الضعيف ولو كان حسنا معروفا ، وهذا شأن درج عليه الناس في استحسان ما يستحسنون واستقباح ما يستقبحون (١) .

والحقيقة ان الاسلام قد شمل المرأة في جميع تشاريعه الخاصة بنظام الأسرة برعاية كريمة وعطف كبير ، وسما بها الى مستوى رفيع لم تصل الى ماله ولا الى ما يقرب منه اية شريعة اخرى من شرائع العالم القديمة والحديثة .

فقد رأينا كيف كانت تعامل المرأة قبل الاسلام معاملة مهينة ، فتسد كانت تعامل كأنها سقط متاع ، فهي لا تشارك في الرأي أو الحرب ، ولا تدفع الاذى عن قبيلتها (٢) .

يقول ابن عباس رضى الله عنه « كانت الحوامل اذا قربت ولادتها حفرمت حفرة ، فمخضت على رأسها ، فاذا كان المولود انثى قذفت بها

(١) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢١٨ .
(٢) عبد الرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث » ص ٩٠ .

فى الحفرة واذا كان ذكرا استبقته فى حنان وعزه . وكان هناك طريقتة
أخرى للواد وهى أن الرجل يترك البنث حتى السادسة من عمرها . فان
أراد النخلص منها قال لأمها طيبيها وزينيها . ثم يذهب الى بئر حفرها فى
الصحراء ويقول لها أنظري هذا البئر . ويهيل عليها التراب « (٢) » .

يقول الله تعالى « ويجعلون لله البنسات سبحانه . ولهم مايشتهون
واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم : ينوارى من القوم
من سوء مايشتر به . أيهسكه على عون أم يدسه فى التراب الا ساء
ما يحكمون » (٤) .

وفى الغرب كانت المرأة فى ظل الحكم الرومانى تعال معاملة الرقيق .
وتمنهن كرامتها وعفتها . وليس هنسك أى تشريع عندهم يرفع من شأنها .
وقد اجتمع فى روما مجمع كبير وبحث شئون المرأة ؛ فقرر أنها كائن لانفس
له ، وأنها لهذا لن ترث الحياة الأخرية . وأنها رجسى يجب . الا تأكل
اللحم والا تضحك . وعليها أن نمضى وقتها فى الصلاة والعبادة والخدمة .
وليس لها الحق فى ان تتكلم ؛ ولنعما من الكلام وضعوا على فمها قفلا
من الحديد ؛ فكانت المرأة من أعلى الأسر تروح وتغدو فى الطريق أو فى
دارها وعلى فمها قفل ؛ هذا غير العقوبات البدنية التى كانت توتغ عليها
باعتبارها أداة الاغواء يستخدمها الشيطان لاغواء القلوب (٥) .

والعجيب ان أهل الغرب الذين أصبحت نساؤهم تعيش تحت ظل
المدنية الزائفة هم الذين يتكلمون عن مكانة المرأة فى الاسلام . ويقولون
ان حقها هضم ؛ وان منزلتها أسقطت وجعلها الاسلام متاعا فى يد الرجل .
فيالاسلام جعل المرأة شريكة الرجل حينما تحدث عن الأصل الذى تفرغ منه
الإنسان . فكان الرجل أبا والمرأة أبا فلا تفاضل بينهما فى جانب الإنسانية .
بقول الله تعالى « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم
شعوبا وقبائل لتعارفوا ؛ ان أكرمكم عند الله اتقاكم » (٦) .

(٣) المرجع السابق .

(٤) سورة النحل آية ٥٨ — ٥٩ .

(٥) عقيف طباره « روح الدين الاسلامى » ص ٢٨١ .

(٦) سورة الحجرات آية ١٣ .

كما عنى الاسلام ببيان وحدة الزوجين وتساويهما من الناحية النفسية ليقضى على جميع النظريات الخاطئة التي كانت تزعم ان المرأة جنس منحط بذاته عن جنس الرجل (٧) . ويؤيد ذلك ما افترسه اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » ان الرجل يتمسك بالاسلام اشد من تمسك المرأة المسلمة بالاسلام ويعلل هذا الافتراض على انه ظاهرة فى الحياة الاسلامية ، وبانه يرجع الى اختلاف وضعية كل من الرجل المرأة فى الاسلام (٨) .

والرد على ذلك قوله تعالى « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء » (٩) .

فالاسلام يؤكد وحدة الزوجين ، وتساويهما من ناحية علاقتهم بربهما وجزائهما عنده « فاستجاب لهم ربهم ان لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او اُنثى بعضهم من بعض » (١٠) .

وليتف التامل عند هذا التعبير الالهى « بعضهم من بعض » ليعرف كيف سما الاسلام بالمرأة حتى جعلها بعضا من الرجل ، وكيف حسد من طغيان الرجل فجعله بعضا من المرأة ، وليس فى الامكان ما يؤدى به معنى المساواة اوضح ولا اهل من هذه الكلمة التى تفيض بها طبيعة الرجل والمرأة ، والتى تتبنى فى حياتهما المشتركة دون تفاضل وسلطان قال تعالى « للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن » (١١) واذا كانت المرأة مسئولة مسئولية خاصة فيما يختص بعبادتها ونفسها فى نظر الاسلام أيضا مسئولة مسئولية عامة فيما يختص بالدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والأرشاد الى الفضائل والتحذير من الرذائل .

اضف الى ذلك ان الاسلام احترم رأى المرأة فيما تبدو وجاهته شأن رأى الرجل تماما سواء بسواء ، واذا كان الاسلام جاء باختيار آراء

(٧) سيد قطب « الاسام ومشكلات الحضارة » ص ٦٤ .

(٨) محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث » ص ٥٣ .

(٩) سورة النساء آية ١ .

(١٠) سورة آل عمران آية ١٩٥ .

(١١) سورة النساء آية ٣٢ .

بعض الرجال . فقد جاء أيضا باختيار رأى بعض النساء ، وذلك ملما
بحدث عندما تحاورت خولة بنت ثعلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
بشأن زوجها الذى ظاهرها ، فسمع الله تحاورهما وانزل سبحانه ومعنى
الآية الكريمة « قد سمع الله قول الذى تجادلك فى زوجها وتشنكى الى
الله ، والله يسمع تحوركما . ان الله سميع بصير » (١٢) فترى كيف رفع
الله شأن المرأة ، وكيف احترم رأيها . وجعلها مجادلة ومحاور للرسول
وجمعها واياه فى خطاب واحد ، « والله يسمع تحاوركما » وكيف قرر
رأيها وجعله تشريعا عاما (١٣) .

والى جانب مذكرناه ، فان الاسلام لم يسلب المرأة حق التعليم فقد
امرها ان تتعلم كل ما يمكنها من القيام بهذه المسؤولية على الوجه الذى
حددت فيه ، وطلب منها عليه وهو تحرى الخير والصلاح والبعد عن الشر
والفساد ومن هنا اوجب الاسلام عليها - كما اوجب على الرجل معرفة
المقائد والعبادات ومعرفة الحلال والحرام فى المأكول والمشروب وسائر
النصرفات ، ولا تعرف بينها وبين الرجل فارقا دينيا فى التكليف واهليته
سوى ان التكليف يلحقها قبل ان يلحق الرجل ، وذلك لوصولها بطبيعتها
الى مناط التكليف وهو البلوغ قبل ان يصل الرجل اليه ، وفى ميدان الجهاد
فقد سمح للمرأة بالاشتراك فيه بدون تكليف ، وقد وضع الاسلام ذلك
وفرره من اول يوم دخل فيه ميدان الحرب والجهاد ، غير ان اختلاف
النظم وتبدل الأحوال والشئون يوجب فى هذه الأيام حفظا لكرامة
المرأة اذا ارادت ان تساهم فى هذا الواجب العام ان يتخذ لها الوضع
الذى يصونها ، ويقيها شر العابثين مرضى القلوب السفين لا يسلم منهم
جيش ولا مجتمع (١٤) .

وخلاصة ذلك ان الاسلام منح المرأة انسانيتها المساوية لانسانية
الرجل ، وظهر ذلك فى كثير من نواحي التشريع الاسلامى ، فكان دينا
مساويا لدنه والحكم فيهما واحد وهو القصاص ، قال تعالى « وكتبنا عليهم
فيها ان النفس بالنفس » (١٥) وبذلك كان الجزاء الاخرى فى الاعتداء

(١٢) سورة المجادلة آية ١ .

(١٣) عائشة عبد الرحمن « المرأة المسلمة بين أمس واليوم » ص ٧٥

(١٤) محمود شلقوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٢٧ .

على حياة المرأة من نوع الجزاء في الاعتداء على حياة الرجل ، كما أن القرآن نزل واحداً في مسألة قتل الرجل خطأ ، وقتل المرأة خطأ « ومن تمل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى اهله » (١٦) .
موضح انه لا فرق في وجوب الدية بالقتل الخطأ بين الذكر والأنثى (١٧) .

وكذلك نجد أن القرآن الكريم لا يفرق بين الذكر والأنثى حينما حث الأبناء على البر بالوالدين « وتضي ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا » (١٨) .
واذا انتقلنا من القرآن الكريم الى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجد انه ميز المرأة أكثر من الرجل ، فقد أجاب على سؤال أحد الرجال عن أحق الناس بحسن الصحبة فقال أمك ، وكررها ثلاث مرات ، ثم قال في الرابعة أبوك .

والواقع أن الاسلام لم يحرم المرأة من الحقوق المدنية : فأباح لها التملك والتصرف فيما تملك ، وأباح لها توكيل غيرها فيما لا تريد مباشرته بنفسها وأباح لها أن تضمن غيرها وأن يضمها غيرها .

وهذه منزلة تزد منحتها الاسلام للمرأة باعتبارها انساناً كاملاً الانسانية منذ أن اشرقت الأرض بنسوره ، في حين أن المرأة الغربية في عصر الحضارة ، وحقوق الانسان — كما يقولون — لم تصل الى التمتع بهذا الحق الانساني الذي تمتعت به المرأة في ظل الاسلام (١٩) .

واذا نظرنا الى الحقوق التي منحها الله سبحانه وتعالى للمرأة في موضوع زواجها ، نرى أنها حقوق تثبت مدى تقدير الشريعة للمرأة ، وكيف أن لها حقوقاً قبل الزواج وفي فترة الزوجية ، وعند فسخ العلاقة بين الطرفين .

فإذا ما جاء المرأة دور زواجها وهي بالغة عاقلة ، فإن لها أن تختار الزوج الذي تريده اختياراً حراً ، على أن يشترك معها وليها بالرأي

(١٥) سورة المسائدة آية ٥٥ .

(١٦) سورة النساء آية ٩٢ .

(١٧) شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٣٧ .

(١٨) سورة الاسراء آية ٢٣ .

(١٩) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٦٦—٦٧ .

والمشورة فيمن تختاره . وليسكن ليس له أن يجبرها على وزوج معين وأن
اختار هو زوجها لا يتم زواجها به إلا برضاها .

ويلزم الاسلام الزوج ان يقوم بتقديم مقدم صداق للمرأة ، ويعد
منزل الزوجية ولا يحرم الاسلام ان تجهز المرأة بغاخر الثياب والزينة ولا
ان يزود منزلها بالثمين من الاثاث والمقتات قال تعالى « قل من حرم زينة
الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٢٠) .

اما في مرحلة الزوجية ، فقد اعفى الاسلام المرأة من اعباء المعيشة،
والتأها جميعا على كاهل الرجل ، واحتفظ للمرأة مع ذلك بحقوقها المدنية
كاملة غير منقوصة ، فللمرأة المتزوجة في الاسلام شخصيتها الكالة و ثروتها
الخاصة المستقلتان عن شخصية زوجها و ثروته ، ولا يجبر الاسلام للزوج
ان يأخذ شيئا من مال زوجته قل أو كثر (٢١) قال تعالى : « وان اردتم
استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن مئطرا فلا اخذوا منه
شيئا » (٢٢) وهذه المنزلة في المساواة بين الرجل والمرأة لم يصل الى
مثلها بعد احدث القوانين في الأمم الديمقراطية المدنية (٢٣) .

وفي مرحلة الزوجية يعطى الاسلام الرجل الحق في انقواه على
زوجته واسرته وقد بنى ذلك على سببين رئيسيين :

احدهما ان الرجل مكلف بالاتفاق على الأسرة ، ولا يستقيم مع العدالة
في شيء ان يكلف فرد الانفاق على هيئة ما بدون أن تكون له التوامة عليها
والاشراف على شؤونها .

والسبب الثاني : ان المرأة مرهفة العاطفة ، قوية الانفعال ، وان
ناحية الوجدان لديها تسيطر سيطرة كبيرة على مختلف نواحي حياتها
النفسية ، وقد سوى الله المرأة على هذا الوضع حتى يكون لها طبيعتها
ما يتيح لها القيام بوظيفتها الأساسية ، وهي الأمومة والحضانة على خير

(٢٠) سورة الاصراف آية ٣٢ .

(٢١) عبد الواحد وافي « نظام الأسرة في الاسلام » ص ١٦٧ .

(٢٢) سورة النساء آية ٢٠ .

(٢٣) سيد قطب « المرجع السابق » ص ٦٦ .

وجه ، فلا يخفى أن هذه الوظيفة تحتاج الى عاطفة مرهقة ووجدان رقيق أكثر مما تحتاج الى التفكير والادراك والتأمل (٢٤) يشير القرآن الكريم الى ذلك « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما انفقوا من اموالهم » (٢٥) .

وقد حاول بعض المستشرقين ان يبنوا فكرة قسامة الرجل على المرأة بفكرة التفوق Superiority ويجعل منه دلالة على نظرة الاسلام الى وضع كل من الرجل والمرأة في الحياة ، فهو يسمو بالرجل الى ذرى الرفعة بينما يهبط بالمرأة الى هاوية الضعة ، أما عن طاعة المرأة للرجل فتعرض على أنها نوع من الازلال ، وسبب لفرض الرق والعبودية على نصف البشرية الى غير ذلك مما يترتب على هذا الشرح المغرض (٢٦) .

ولابد ان نبين ان هذه الآراء جاءت من أجل تشويه الاسلام ، لان الاسلام قد جعل قسامة الرجال في الأسرة قسامة رحمة قائمة على المودة والمحبة والارشاد ، وتقيدها بقيود كثيرة تحفظ للمرأة كرامتها ، وبذلك منع المرأة مجال العلم ، ومجال العمل ، فقد تعلمت المرأة فعرفنا المرأة العاملة، والأديبة ، والطبيبة ، والفقيهة ، والمتصوفة القانتة ، وما اليهن من كل ما عرف مثله عن أخيها الرجل .

شهادة المرأة وميراثها :

يرى كثير من المستشرقين الأجانب أن المرأة في الاسلام قد اهدرت إنسانيتها ، لأنها ترث نصف حظ الرجل، كما ان شهادتها كذلك تعتبر نصف شهادة الرجل ، وذلك في قوله تعالى « للذكر مثل حظ الأنثيين » (٢٧) وقوله « فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان » (٢٨) .

والواقع ان السبب في تفضيل الرجل بالميراث انه مطالب بنفقات المعيشة ومطالب بدفع المهر لزوجته، وعليه نفقتها وكسوتها وجميع ما تحتاج

(٢٤) عبد الواحد وافي « المرجع السابق » ص ١٧٠ .

(٢٥) سورة النساء آية ٣٤ .

(٢٦) محمد البهي « الفكر الاسلامي الحديث » ص ٥٣ .

(٢٧) سورة النساء آية ١٧٦ .

(٢٨) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

اليه بالمعروف ببيتها حتى أوجب الشهادة بالخائفين . وأوجب عليه أن يدفع العدة إذا ما طلق زوجته . فهو إذا مطالب بتفقتة على نفسه وأولاده ، وعليها : ومكلف بوالديه وأقاربه . إذا كانوا ضعفا أو مفراة إذا فبماذا يتميز الرجل عنها ؟ الرجل مطالب بتل شيء والمرأة لانتطالب بشيء (٢٦) .

أما موضوع الشهادة في قوله تعالى « فإن لم يكونا رجيين فرجل وامرأتان » فليس واردا في تمام الشهادة التي يقضى بها أمام القاضي ويحكم وإنما هو وارد في مقام الإرشاد الى طرق الاستيفاء والإطمئنان على الحقوق بين المتعاملين وقت التعامل . فالمقسام مقام استيفاء الحقوق لا مقام قضائي .

ليس معنى هذا أن شهادة المرأة الواحدة أو شهادة النساء اللاتي ليس معهن رجل لا يثبت بها الحق ، ولا يحكم بها القاضي ، فإن اتضى ما يطلب القضاء هو البينة ، وقد حقق العلامة ابن الجوزي أن البينة في الشرع أهم من الشهادة ، وأن كل ما يثبت به الحق ويظهره هي بينه يقضى بها القاضي ويحكم (٢٧) .

الاسلام وتعدد الزوجات :

لم تلق أى مسألة من مسائل الاسلام مالاقتته هذه المسألة بالذات من طعن المستشرقين في الديانة الاسلامية فقد بثوا دعايات مسمومة ضد هذا الموضوع وحركوا الفكر الغربي ، بل والفكر الشرقي لينظر في هذا الموضوع لأنه يعدد امتهانا لكرامة المرأة واشعارا لها بعدم اهميتها في الأسرة ، وأن ذلك يؤدي الى مشاكل اجتماعية وخيمة والى تشريد للأطفال والى قطع أواصر الرحمة والقرابة ومن الآراء التي أمامي الآن رأى الكاتبة الألمانية « اليس ليختنستادتر » (٢٨) تقول « انه من الأمثلة التي طال بحثها واشتهر أمرها مثل النظام الذي يبيع تعدد الزوجات ، فليس في البلاد الاسلامية ماعدا البلاد التركية قانون يحرم هذا النظام بحكم القضاء

-
- (٢٩) شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٣٨ ، محمد أبو زهرة « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٣٣ .
(٣٠) شلتوت « المرجع السابق » ص ٢٤٠ ، أبو زهرة « نفسه » .
(٣١) عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ٢١ .

السام أو القضاء الخاص بالأحوال الشرقية والمحاكمات الشرعية : فلا يزال تعدد الزوجات عملاً مشروعاً في ج.ع.م والباكستان وإيران والعراق واندونيسيا وأن العرف ليجته ، بتأثير القدوة العربية وتأثير متاعب تعدد الزوجات إلى النفور منه ، ويزداد هذا النفور مع الزمن ، فنظر المسلم المصطر إلى البناء بأكثر من زوجة واحدة كأنه طراز عتيق ، وتختلف هذه النظرة بشيء من الترفع لأنه عمل يكاد أن ينحصر في الطبقة الرضيعة وأن المصلحين ليجدون السند الأقوى للاكتفاء بالزوجة الواحدة في آيات الكتاب إذ تدل الكلمات الأخيرة من الآية المشهورة في السورة الرابعة ، على أن الزواج المفضل هو البناء بزوجة واحدة .

والحقيقة أن الإسلام سمح بتعدد الزواج لأغراض عمرانية سامية وأغراض إنسانية نبيلة ، وأباح ذلك لضرورات حيوية لايسع مشرع حكيم إلا أن يقيم لوزنها أكبر وزن في تشريعته وخاصة إذا كان يشرع لجميع شعوب العالم كما هو الشأن في الإسلام .

فمن الأبحاث التي أتمها علماء الاجتماع أمثال جينزبرج وويستر مارك أن تعدد الزوجات كان النظام المتبع في الشعوب المتدينة في حين كان نظام الزوجة الواحدة هو النظام المتبع عند الشعوب المتأخرة وأن الشعوب التي كانت تحرم الزواج بأكثر من واحدة ، إنما كانت تتبع تقاليد لا تتصل بالدين ، كما أن الشعوب التي أجازت الزواج بأكثر من واحدة ، إنما أجازته طبقاً لما رأت فيه من فوائد اقتصادية أو عمرانية دون النظر إلى ذلك الدين ، فلم يرد في الإنجيل نص صريح يدل على تحريم الزواج بأكثر من واحدة ، وأن الإسلام في إباحته تعدد الزوجات قد أباحه في حدود معينها وظروف حددها وبقيود تجعل من العسير الأخذ به إلا في حالات اضطرارية (٣٢) .

كما أنه ثبت من علم الإحصاء أن نسبة الوفيات من الذكور أكثر منها في الإناث وذلك من ساعات الولادة حتى أول مراحل الشباب الأمر الذي يؤدي إلى زيادة نسبة الأحياء من الإناث على الذكور وهي مرحلة الشباب

تظل النسبة ثابتة ، اذ يموت من الشبان أكثر من الشابات وذلك يرجع أولا الى الحروب والى اخطار الأعمال التى يقوم بها الرجال فى المصانع والمعامل حيث نجد الوفيسات بين الرجال أكثر منها بين النساء وكذلك فان كثافة الأعمال التى تسبب الأمراض الخطيرة والموت المفاجئ والحوادث القاتلة يتعرض لها الرجال مثل رجال المظافئ والغواصون ورجال الانقاذ ورجال الملاحة وغيرهم مما يجعل نسبة الأحياء من النساء أكثر من الرجال (٢٣)

واذا فرضنا جدلا أن جيلا من الأجيال انعدمت فيه الحروب والحوادث ونسأوت نسبة الأحياء من الذكور والإناث فى العمر حتى مرحلة الشباب فان كل فتاة فى سن الزواج لن تجد الفتى الذى يلائمها فى العمر على درجة الاستعداد للزواج نسبة لتكاليف المعيشة والزواج (٢٤) .

وبمناسبة هذه الأسباب الإنسانية العامة التى تبرز نظام تعدد الزوجات كثيرا ما نظروا على الحياة الزوجية أسباب خاصة تجعل التعدد ضرورة لازمة فقد تكون الزوجة عقيما أصليا أو قد تصاب بالعقم بعد زواجها ، فلا تحقق فى كلتا الحالتين أهم غرض من أغراض الزواج ، وقد نصبح على اثر اصابتها بمرض جسمى أو عصبى أو بعاهة غير صالحة للحياة الزوجية فى أخص شسئونها وفى هذه الأحوال وأحوال أخرى كثيرة من نوعها ، يكون زواج الرجل بغير زوجته ضرورة لازمة لضمان الاستقرار العائلى ، وتحقيق الأغراض العمرانية من الزواج وللوقاية من الوقوع فى الرذيلة (٢٥) .

وقد أوجب الإسلام على الزوج فى حالة تعدد زوجاته أن يعدل بينهم واشترط على من يريد تعدد الزوجات أن يكون واثقا بقدرته على هذا العدل وأمره فى حالة خشيته من الجور أن يقتصر على واحدة قال تعالى « وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى لما نكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى الا تعدلوا » (٢٦) .

(٢٣) عبد الواحد وافى « الأسرة والمجتمع » ص ٤٣ .

(٢٤) عبد الرزاق نوفل « الإسلام والعلم الحديث » ص ٩٣ .

(٢٥) عبد الواحد وافى « نظام الأسرة فى الإسلام » ص ١٧٦ .

(٢٦) سورة النساء آية ٣ .

ولكن العدل الذى امر الله به مقصور على الأمور التى يستطيع الرجل أن يعدل فيها بين زوجاته كالأمور المتعلقة بالمأكل والمشرب والملبس والسكن والمبيت والوقت الذى يقضيه الرجل مع كل زوجة من زوجاته أما الأمور التى لا يستطيع الرجل بحسب طبيعته البشرية أن يعدل فيها كالميل النفسى والحب ، وما يترتب على ذلك من آثار فى العلاقات الخاصة بين الزوج وزوجته ، فلا تدخل فى نطاق العدل المأمور به .

وهذا هو ما وضحه الكتاب الكريم اذ يقول « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ، وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما » (٣٧)

ومعنى ذلك أن الرجل لا يستطيع سبيلا الى العدل المطلق بين زوجاته مهما حرص على تحقيقه ، لأن ثمة أمورا لا سلطان للإنسان عليها كالحب والميل النفسى فلا يستطيع تبعا لذلك سبيلا الى العدل فيها بحسب طبيعته البشرية ، وليس الرجال مكلفين بالعدل فى هذه الأمور لأن البشر لا يكفون الا ما يستطيعون القيام به ، وهم مكلفون بالعدل بين زوجاتهم فيما يستطيعون العدل فيه (٣٨) .

المرأة المسلمة والطلاق :

يعتبر موضوع الطلاق من الموضوعات الهامة التى بدأ الغرب، يصوب اتهاماته نحوها ، ويذكرون أن المسلمين يستخدمون هذا الشريعة الإلهية أسوا استغلال ، ويتزوجون النساء ويطلقون بدون أسباب أو مبررات ، مما أدى الى تدهور الحياة الاجتماعية بين الشعوب الإسلامية .

والحقيقة أن الإسلام شرع الطلاق من أجل استقرار حياة الإنسان لأن كثيرا ما يحدث فى هذه الحياة ما يقتضى الطلاق ، بل ما يجعله ضرورة لازمة ووسيلة معينة للاستقرار العائلى والاجتماعى .

ولكن الإسلام لم يبحه على الإطلاق ، بل قيده بقيود تكفل تحقيق

(٣٧) سنن أبي داود ١٢٩ .

(٣٨) محمود شلتوت « الإسلام عقيدة وشريعة » ص ١٨٤ .

المصالح العام ومصالح الأسرة نفسها ، ومكفل تحقيق التوازن في حقوق كل من الزوجين وواجباته والمساواة بين كفتيهما في هذه الشؤون .

ولذلك بغض الاسلام الناس في الطلاق ، وصورة في ابشع صورة ، وحث المسلمين على اتقائه ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وفي هذا يقول الرسول عليه الصلاة السلام « ابغض الحلال الى الله الطلاق » (٢٩) « تزوجوا ولا تطلقوا ، فان الطلاق يهتز له عرش الرحمن » (٤٠) .

ولم يكتف الاسلام بهذا الزجر وهذا الوعيد ، بل اتخذ من النظم في شئون الأسرة مايكفل تحاشي الطلاق الا لأسباب قوية قاهرة .

فقرر انه لا يصح الالتجاء الى الطلاق لأسباب يمكن علاجها أو لأمر يمكن ان تتغير في المستقبل أو لا تحول بطبيعتها دون استقرار الحياة الزوجية على وجه ما . وحتى الأمور التي تتعلق بعاطفة الزوج نحو زوجته أو بكراهيته لبعض أحوالها لا يعدها الاسلام من مبررات الطلاق .

وفي هذا المعنى يقول الله تعالى « وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (٤١) .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا يفرك مؤمن مؤمنة ان كره منها خلقا رضى منها آخر » (٤٢) .

ومن النظم التي قررها الاسلام لتحاشي الطلاق انه أمر الزوجين عندما يحدث بينهما شقاق أو نفور ان يعملوا على ازالته بإثارة دواعي الرحمة والوئام (٤٣) وفي هذا يقول الله تعالى « وان امرأة خافت من بعلها نشوزا

(٣٩) رواه البخاري باب الطلاق .

(٤٠) ذكره الكاساني في كتابه « بدائع الصنائع » باب الطلاق .

(٤١) سورة النساء آية ١٩ .

(٤٢) رواه مسلم في صحيحه .

(٤٣) عبد الواحد وأبي « نظام الأسرة في الاسلام » ص ١٨٤ .

او اعراضا . فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا والصلح خير » (٤٤) .

ومن النظم التي قررها الاسلام كذلك لتحاثي الطلاق . انه اوجب على الزوجين اذا لم يستطيعا ان يصلحا ما بينهما بنفسيهما وبوسائلهما الخاصة ان يعرضا امرهما على مجلس عائلي يتألف من حكيمين ، حكم من اهل المرأة ، وحكم من اهل الرجل ، اى من رجلين لا يرى كساد الزوجين غضاضة في الاغضاء اليهما بذات نفسيهما وبأسباب شقاقهما ،

وهما يعملان على بحث اسباب الشقاق والنوفيق بين رغباب الزوجين حتى يحل الصفاء والوئام (٤٥) .

يقول الله تعالى « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها ان يريدوا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا » (٤٦) .

ومن الامور التي قررها الاسلام لنحاثي الطلاق انه قد رسب عليه من الناحيتين المالية والاجتماعية نتائج خطيرة والتي بسببه على كاهل الزوج اعباء ثقيلة . وان من شأن هذه النتائج والاعباء ان تحمل الزوج على ضبط النفس وتدبير الامور قبل الطلاق . فقد قرر انه يجب على الزوج اذا طلق زوجته ان يوفيقها مؤجل صداقتها ويقوم بنفقتها من مآكل وشرب وملبس ومسكن مادامت في العدة . وتكون حضانة اولادها الصغار لها ولقريبانها حتى يكبروا ، ويقوم بنفقة اولادها منه واجور حضانتهم ورضاعتهم ، حتى لو كانت الأم نفسها هي التي تقوم بذلك (٤٧) قال تعالى « فان ارضعن لكم فأتوهن اجورهن » (٤٨) .

فاذا لم يستطع مجلس التحكيم ان يوفق بين الزوجين ، ولم تجد الوسائل السابقة جميعا ، ولم تنل الزوج عن عزمه على الفرقة كان في ذلك دليل على قيام حالة خطيرة تهدد استقرار الأسرة .

(٤٤) سورة النساء آية ١٢٨ .

(٤٥) شلتوت المرجع السابق ص ١٦٨ .

(٤٦) سورة النساء آية ٣٥ .

(٤٧) عبد الواحد وافي « نظام الأسرة » ص ١٨٦ .

(٤٨) سورة الطلاق آية ٦ .

عندئذ يجيز الاسلام للزوج الطلاق لمصلحة الأسرة ، ولتحقيق الصالح العام .

وحتى في هذه الحالة قد احاط الاسلام بالامر فوضع لالطلاق نظماً تتيح للزوج في أثناء استراعات الفترة فريسة طريفة لمراجع نفسه ، ويعدل عما شرع فيه . ان كان ثمة سبيل للبقاء على الحياة الزوجية فأباح للزوج ان يراجع زوجته بعد كل من الطلاقين الأولين .

فاذا تكرر الطلاق مرة ثالثة كان ذلك دليلاً على ان الحياة الزوجية قد أصبحت غير محتملة بين الزوجين وانهما حاولا جبراً اختل عليهما نظامهما ، فحينئذ يقرر الاسلام الفرقة بينهما نهائياً ، ولا تحل له بعد ذلك حتى تنحى آثار العقد الأول والحياة الزوجية الأولى انحاءاً تاماً ذلك لا يكون الا اذا تزوجت من شخص آخر ، وانتهى الأمر بطلاقها منه طلاقاً عادياً ، ورأى كلاهما بعد هذه المدة الطويلة ، وبعد تغير الأحوال على هذا الوجه انه من الممكن استعادة الحياة الأولى على وضع احوالهما (٤٩) .

وفي هذا يقول الله تعالى « الطلاق مرتان فامسك بمعروف أو تسريح بإحسان » (٥٠) الى ان قال « تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » (٥١) فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ، فان طلقها هذا الزوج طلاقاً عادياً « فلا جناح عليهما ان يتراجعا ان ظننا ان يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » (٥٢) .

هذا ولم يدخر الاسلام وسعاً في احاطة المرأة المطلقة بعطف كريم ورعاية كريمة وفي العمل على حفظ حقوقها وحمايتها من الأضرار بها ، وذلك بما سنه من نظم رشيدة في النفقة والحضانة والعدة والأرضاع وطرق ايقاع الطلاق وزمنه وما الى ذلك .

هذه هي تعاليم الاسلام والسمة التي تعمل على المحافظة على الأسرة

-
- (٤٩) المرجع السابق ، ص ١٨٧ .
 - (٥٠) سورة البقرة آية ٢٢٩ .
 - (٥١) سورة البقرة آية ٢٢٩ .
 - (٥٢) سورة البقرة آية ٢٢٠ .

قوية متماسكة منجوبة . فإذا اختل بنسائها وتماسكها أوجد الحلول ، فإذا عجزت أوجب الطلاق كما رأينا إيعيد البناء والتماسك .

وإذا كانت هذه القضية قد شغلت بال الغرب ، وبدأوا يتخذونها مادة لهجومهم على الاسلام ، لذلك أثرت أن أتى برد على هذه الاتهامات من قبل مستشرق انجليزي منصف من رجال القانون يسمى مستر بننام في كتابه « اصول الشرائع » وفيه ينقد النظام الكنسي المسيحي الذي يمنع الطلاق ، جاء فيه « حقا أن الزواج الأبدى هو الأليق بالانسان والملائم لحاجته ، والأوفق لأحوال الأسرة ، والأولى الأخذ به ، ولكن أن اشترطت المرأة على الرجل ألا تفصل عنه ، حتى لو حلت في طلبها الكراهية الشديدة مكان الحب والثقة لسكان ذلك أمرا منكرا لا يستسيغه أحد من الناس ، على أن هذا الشرط موجود بدون أن تطلبه المرأة ، إذ القسانون الكنسي يحكم به ، فيتدخل بين العائدين حال التعاقد ويقول لهما ، أنتما تقتربا لتكوبا سعيدين ، فلتعلما أنكما تدخلان سجننا سيحكم غلق بابيه ، ولن أسمح بخروجكما ، وأن تقتاتلتما بسلاح العداوة والبغضاء (٥٣) .

ويعلق المستر بننام على هذا بقوله « ولو كان الموت وحده هو المخلص من زواج هذا شأنه لفتوت صنوف القتل ، واتسعت مذاهبه ، ولكن لحسن الحظ استحدث المسيحيون من القوانين مايفتح لهما أبواب الطلاق ، ويعفيهم من أن يلجأوا إلى القتل أو الانتحار للخروج من هذا السجن » (٥٤) .

لذلك رأينا أن القوانين الوضعية في الغرب بدأت تشرع الطلاق لتقضي على كثير من الانهيار والفساد الذي عم الأمر الغربية ، ولكن جميع هذه الحالات من الطلاق لا ترضى عنها الكنيسة ، ولكنها تقف صامدة أمامها ، فنجد أن آلاما من حالات الطلاق وزواج المطلقين والمطلقات الذين يعدون في نظر الكنيسة زناه ، تحكم بها المحاكم الأوروبية والأمريكية . وتنفذها الهيئات المدنية في مختلف شعوب الغرب المسيحي على مرأى من الكنيسة ومسمع من رجال الدين ، دون أن تحرك ساكنا .

(٥٣) منير البعلبكي « دفاع عن الاسلام » ص ١٢٥ .
(٥٤) المرجع السابق .

الرق في الاسلام :

يذكر الاستاذ عباس العقاد في كتابه « ما يقال عن الاسلام » ان مسألة الرق في الاسلام موضوع حملة من اقوى الحملات العصرية يتأمر عليها الذين لايتفقون على شيء فيما عدا هذه الحملات وهم الماديون المنكرون للاديان وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة الى هذا الدين او ذاك (٥٥) .

والواقع ان الرق كان أمرا شائعا منذ قديم الزمان ، ولم يذكر التاريخ بداية استعباد الانسان لأخيه الانسان واسترقاقه الا انه عرف ان الهند كانت من قديم الزمان تعيش على الحكمة التي تقول « من ليسر برهميا فهو عبد للبرهمي » كما ان الفراعنة بنوا الأهرام بسواعد الرقيق (٥٦) .

والرق كان معروفا عند جميع الأمم القديمة خاصة عند اليونان والرومان ، كما ان التوراه إباحة الاسترقاق بطريق الشراء او سبيا في الحرب ، وكذلك المسيحية ، فقد سمحت بالرق ، ويؤكد ذلك قول توما الأكويني في ان الرق حال من الحالات التي خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ، وليس مما يناقض الايمان ان يفتع الانسان من الدنيا بأهون نصيب (٥٧) .

وقد انتشر الرق عند العرب قبل الاسلام انتشارا كبيرا ، وكانت الحروب التي لا تنقطع في الجزيرة العربية ، وكان الغالب يأسر من المغلوبين من يستطيع ليصبحوا عبيدا ، ومن وسائل الرق عند العرب القوة فإذا قابلت قبيلة قوية قبيلة ضعيفة استسلمت القبيلة الضعيفة للقوية ، وخضعت لها وأصبح أفرادها عبيدا .

ومن وسائل الرق عند العرب الهجوم السريع ، فالشخص الذي يهشى وحده أو الجماعة من الناس التي تمشى دون أن تستطيع حماية نفسها كانت عرضة للخطف نتيجة هجوم سريع فيصبحون بذلك عبيدا (٥٨)

(٥٥) عباس العقاد « ما يقال عن الاسلام » ص ١٥١ .

(٥٦) أحمد زكي « الرق في الاسلام » ص ٩٨ .

(٥٧) العقاد « حقائق الاسلام وأباطيل خصومه » ص ٢١٥ .

(٥٨) أحمد شلبي « مقارنة الأديان » ص ٣٣٥ .

والرقيق يعتبر مملوكا لسيدده اذا اشتراه كمتاعه . له الحق في بيعه أو قتله واذا كانت أنثى فله ان يستمتع بها كيف شاء ، وليس للرقيق قبل سيده ولا قبل المجموعة . ولا الدولة أى حق ، بل عليه كل الواجبات مشروعة أو غير مشروعة كانت في الاستطاعة أم لم تكن ، بل بلغ من الانخفاف بأمر هؤلاء الرقيق أن كانت الفلاسفة والحكماء يقررون أن ارواح الرقيق غير خالدة (٥٩) .

وجاء الاسلام الذي صوره المستشرقون على أنه أباح الرق . وأباح استرقاق الأسرى وقتلهم ، كما أنه جعل هذا النظام نظاما مشروعا . فهذا كتاب يحمل اسم « الاسلام في اثيوبيا » يقول كاتبه « وتجارة الرقيق ، وما تدره من أرباح تفوق حد التصور . تغرى كثيرين على احترامها . ولهذا اشتغل بها عدد كبير من العرب . فبمكنا اذن أن نتصور العدد الكثير من العرب الذى اشتغل بهذه التجارة ، وكون المراكز التجارية الكبيرة والصغيرة ، واستقر في هذه المراكز المنتشرة بين قرى شرق افريقية صغيرها وكبيرها » (٦٠) .

وهكذا يحصر مؤلف هذا الكتاب تجارة الرقيق في العالم كله في افريقيا ، ثم يحصرها في العرب ، كأن الرقيق لم يكن يسود العالم كله .

ثم يستطرد فيقول : « ولسكن الاسلام وحد بين العرب وحسد من خصوماتهم ، وأوقف غزواتهم التي كانوا يشنونها على بعضهم ، كما حرم أن يسترق مسلم مسلما وبذلك نقص مورد من موارد الرقيق الذى كان يعتمد عليه العرب في حراسة قوافلهم وزراعة أرضهم وخدمتهم وليس هناك من مكان يستطيع أن يسد هذا النقص سوى الساحل الأفريقى للبحر الأحمر ، وما يسكنه — من مورد لا ينقطع — من شعوب سوداء » (٦١) .

وبذلك يعمد المؤلف الى الوقعية بين المسلمين والأفريقيين الذين يريدون اعتناق الاسلام .

(٥٩) المرجع السابق .

(٦٠) عبد الكريم الخطيب « الاسلام في مواجهة الملحدين والماديين »

ص ١٦٣ .

(٦١) المرجع السابق .

والحقيقة التي لاشك فيها أن الإسلام حرر البشرية من عبودية الرق ، وأوصى بتحرير الرقيق ، وكما هي سنة الإسلام بعدم الأخذ ببدا الطفره فقد عالج مشكلة الرق بمحاولة الغائها على مراحل ، لأن المجتمع العربي كان يعترف بهذا النظام ويسير عليه ، ومن الصعب أن يجيء الإسلام ويلغى هذا النظام ويحرج جميع العبيد الموجودين في العالم الإسلامي دفعة واحدة مما يؤدي الى ثورات السادة الكبار ، وتخلخل المجتمع وخلق مشكلة جديدة ازاء هذه الفئة المحررة .

لذلك تضمنت الحكمة الالهية بأن يتدرج الالفاء ، ورسمت له خطة محكمة تتألف من النقاط التالية :

١ — لا يرد في القرآن الذي هو النصوص الأصلية الأساسية ، أي فصل يدل على الأمر بالاسترقاق أو اتخاذ الاماء سرارى ، ان كان ذلك لا يمنع ان يتحدث القرآن عن هذا حديث من يعرفه ويقره كواقع ويرتب الاحكام التشريعية على أساس واقعته التي تقضى الحكمة بأن تترك مؤقتا (١٣) .

٢ — تتكفل النصوص من الكتاب والسنة ببيان أن الرق واقع مكروه ، وتشريع مايكفل تصفيته من العتق في مناسبات متعددة ، لما عرض في سوق المعارضات مايسمح كل من في يدهم رقيق ليحرره وليأخضوا العوض المجزى لهم ، من صور تلك المعاضات .

(أ) العوض المالي :

وذلك بأن يشتري العبد نفسه من سيده ، ومالك رقبته نظير مال بتفقان عليه ، فان اتفقا على الثمن المطلوب ، أعطى السيد عبده كتابا بهذا يحدد فيه المال الذي كاتب عبده عليه ، ويسمى الرقيق في تلك الحال مكاتباً ، لايتحرر من الرق حتى يؤدي المال الذي كوتب عليه . وقد دعا الإسلام الى هذه المسكافية ، وجعلها امراً ملزماً للمالك الرقيق اذا طلب

محمد المدنى « المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء »

(م ١٠ — الاسترقاق)

الرقيق ذلك منه فقال تعالى « والذين يبتغون السكاتب مما بائكت ايماكم فكانوا هم ان عليهم غيبهم خرا » (٦٣) وهى دعوة الى مالك الرقيق ان ينظر فى حاله ، وأن يتحرى قسدرته على الحياة ، اذا هو تحرر من اسر الرق ، فان بعض الأرقاء قد افسد الرق وجودهم الانسانى وفى خروجهم من يد بائعهم ضياع لهم .

ولما كان الرقيق المكاتب لا يملك مالا ، فقد جاء أمر الاسلام الى المسلمين ان يخفوا لمساعدته ، وتخليصه من قيد الرق بتقسيم المال المطلوب منه فقال تعالى « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (٦٤) وقال سبحانه « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب » (٦٥) .

وقال جل شأنه « فلا اقتحم العقبة ، وما ادراك ماالعقبة ، فك رقبة ، او اطعام فى يوم ذى منغية ، يقيمها ذا مثرية او مسكينا ذا مثرية » (٦٦) .

ولم يكف الاسلام فى شأن الرقيق المكاتب بهذا ، بل جعل فى الزكاة المفروضة فى مال اصحاب المال من المسلمين نصيبا لبؤلاء المكاتبين ، فقال تعالى « اما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين علىها والمؤلفة تسلوبهم ، وفى الرقاب والغنارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » فريضة من الله » (٦٧) .

(ب) العوض بما يقابل المال والجهد :

وهناك أعمال ، ارتكبها المسلم مخالفا فيها شريعة الله ، ثم اذا اراد ان يكفر عنها كان كفارة ذلك مالا تنفقه فى سبيل الله ، وعيدا يعتقه او

- ٦٣) سورة النور آية ٣٣ .
- ٦٤) سورة النور آية ٣٣ .
- ٦٥) سورة البقرة آية ١٧٧ .
- ٦٦) سورة البلد آية ١١ — ١٦ .
- ٦٧) سورة التوبة آية ٦٠ .

أياماً معدودات يصومها فمن ذلك : الحنث في اليمين وكفارته كما يقول القرآن « اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة » فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة إيمانكم إذا حلفتكم « (١٨) .

وهناك القتل الخطأ ، وكفارته كما نص القرآن الكريم « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا . فإن كان من قوم عدو لكم ، وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة . وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق ، فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين « (١٩) .

وهناك الظهار ، وهو أن يقول الرجل لزوجته « أنت على كظهر أمي ، يريد تطبيقها وتحريمها بهذا البدع من القول ، وفي هذا يقول الله تعالى « والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يمودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلك توعظون به ، والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا » فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا « (٧٠) .

فهذه ثلاثة وجوه ملزمة للمسلمين ، فتحتها الاسلام لتحرير العبيد من أسر العبودية ، وقد كان لهذه الوجوه اثر ظاهر في تحرير اممداد لاحصر لها من الرقيق (٧١) .

٣ — يقصر الاسلام مورد الرزق على الأسر في حرب لاعلاء كلمة الله تعالى ، وفي هذه الحرب لا يجوز للمسلمين أن يتخذوا أسرى حتى تأسروا أي حتى يظهروا فيها ، وتعلوا كلمة الحق والتوحيد ، وإذا أسخنوا في حرب وانتصروا كان لهم أن يأسروا حينئذ ، ثم كان لأولياء الأمر الخيار المقرر بقوله تعالى « فأما منا بعد وأما فداء » أي فأما أن تمنوا عليهم منا ؟

(٦٨) سورة المائدة آية ٨٩

(٦٩) سورة النساء آية ٩٢

(٧٠) سورة المجادلة آية ٣ ، ٤

(٧١) عبد الكريم الخطيب « الاسلام في مواجهة السائين المحدثين »

تطلقوهم تفضلاً عليهم واحساناً بغير مقابل ، واما أن تتخذوا منهم فداء أى تطلقوهم بمقابل ، وعلى هذا فلا ذكر صراحة للاسترقاق ، واما يتكلف بعضهم فيجعل الاسترقاق داخلاً فى المن لأن المن اما أن يكون كاملاً بإطلاقهم دون أى مقابل ، واما أن يكون جزئياً باعفائهم من القتل مع استرقاقهم ، وبعضهم يحاول ادخال الاسترقاق تحت الفداء فيقول ان فداء حياتهم اما أن يكون بمقابل ما يذلونه أو بنفس الأسير حيث يستعبد ويسترق ثمننا لبقائه حياً دون قتله (٧٢) .

والخلاصة التى ننتهى اليها أن هذا النص هو الوحيد المتضمن حكم الأسرى وسائر النصوص تتضمن حالات أخرى غير حالة الأسرى . وانه هو الأصل الدائم للمسألة ، وما وقع بالفعل خارجاً عنه كله لمواجهة حالات خاصة وأوضاع وقتية ، فقتل بعض الأسرى كان فى حالات فردية يمكن أن يكون لها دائماً نظائر ، وقد أخذوا بأعمال سابقة على الأسرى ، لا بمجرد خروجهم للقتال ، ومثال ذلك أن يقع جاسوس أسيراً فيحكم على الجاسوسية لا على أنه أسير ، واما كان الأسير مجرد وسيلة للقبض عليه .

ويبقى الاسترقاق الذى كان لمواجهة أوضاع عالية قائمة ، وتقاليد فى الحرب عامة ، ولم يكن ممكناً أن يطبق الاسلام فى جميع الحالات النص العام « فاما منا بعد واما فداء » فى الوقت الذى يسترق أعداء الاسلام من يأسرونهم من المسلمين ، ومن ثم طبقه الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعض الحالات فأطلق بعض الأسارى منا ، وفادى ببعضهم أسرى المسلمين ، وفادى بعضهم بالمال وفى حالات أخرى وتم الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لاتعالج بغير هذا الاجراء (٧٣) .

تلك هى الخطة التى وضعها الاسلام لتصفية الرق ، وتضييق مداخله وتوسيع مخرجه ، ولا ينبغي أن يؤخذ الاسلام بفعل المسلمين ، فيها بعد حينما كان الاسترقاق خارجاً على هذه الخطة ، وكان الخلفاء من أمويين وعباسيين وغيرهم من الأغنياء يتخذون السرارى بغير تقييد

(٧٢) المدنى « المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء » ص ١٤٨.

(٧٣) سيد قطب « فى ظلال القرآن » ج ٦ ص ٣٢٨٥ .

بل يتوسع واسراف فان ذلك كله مناف لروح الاسلام ، وان ادخل على النصوص بالاراء والأقوال وتأويل الرجال .

وقد رأينا فيما ذكرناه من آيات أن الأرقاء تسد فتح الله أمامهم باب العتق لأن الاسلام يعتبر أن الرق ماهو إلا أمرا عارضا .

أما موقف الاسلام من الأرقاء في حالة استرقاقهم فقد كان موقفا كريما أصيلا .

فقد ذكرت أحاديث كثيرة للرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن منها جاء في الحديث « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين » ذكرتهم « ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاها ثم أدبها فأحسن تأديبها ، ثم اعتقها وتزوجها » (٧٤) وقوله صلى الله عليه وسلم « من لطم مملوكا له أو ضربه مكفارته عتقه » (٧٥) وقوله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بشراركم : قالوا نعم يا رسول الله ، قال من أكل وحده ، ومنع رده ، وجلد عبده » (٧٦)

وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرقيق حيرا قال : « اتقوا الله في الضعيفين المرأة والرقيق » (٧٧) .

ويؤيد هذا الكلام مستشرق هو ستانلى لين بول وهو يتحدث عن الأرقاء بأسبانيا عقب الفتح الاسلامى للانطلس قال : أما فرج العبيد بما طرا على نظام الحكم من التغيير فقد كان عظيما حقا ، يمسد أن لا تقوا من ضروب العنف والقسوة من القوط والرومان ما تنقشعر له الأبداء ، فان الرق في رأى المسلمين نظام انساني رقيق ، حتى أن النبي « صلى الله عليه وسلم » حينما لم يجد بدا من الإبقاء على هذا النظام العتيق الذي يعارض مبادئ الاسلام بذل كل جهد لتخفيف ويلاتة في كثير من الوصايا والأحاديث (٧٨) .

(٧٤) رواه البخارى ج ٨ .

(٧٥) رواه مسلم وابو داود .

(٧٦) رواه الطبرانى .

(٧٧) رواه ابن ماجه .

(٧٨) لين بول « العرب في اسبانيا » ص ٤٠ .

ونرى مصداقاً لجميع هذه الآراء ماعرضه المستشرق جوستاف لوبون بقوله « واعترف جميع السياح الذين درسوا الرق في الشرق درساً جديداً بأن الضجة المفروضة التي أحدثها حوله بعض الأوروبيين لا تقوم على أساس صحيح ، وأحسن دليل يقال تأييداً لهذا هو أن الموالى الذين يرغبون في التحرر بمصر يتألمونه بإبداء رغبتهم منه أمام أحد القضاة ، وأنهم لا يلجأون إلى حقهم هذا » . قال المسيو أبير مشيراً إلى ذلك « يجب عد الرقيق في الإسلام منجوتاً على قدر الامكان » (٧٩) ويذكر السير توماس أرنولد ، ما يؤكد كلامنا هذا بقوله « كان للرقيق كما كان لسائر المواطنين حقوقهم ، بل قيل انه كان للعبد أن يقاضى سيده إذا أساء معاملته وأنه إذا تحقق القاضى من اختلاف طبيعتهما اختلافاً بينا إلى حد تعذر الاتقان بينهما ، فله أن يرغم السيد على بيعه » (٨٠) .

وقد أوصى الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بحسن معاملة الرقيق « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » (٨١) .

ويقول الأستاذ العقاد في هذا الموضوع (٨٢) « ان الأديان جميعاً تبطل الإسلام أباحت الرق ، والزمت الأرقاء طاعة سادتهم وتسخيرهم في خدمتهم وخدمة ذويهم واعتبره بعض الدعاة قضاة مبرما يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ويضلون عن سبيله ، فشرع العتق ولم يشرع الرق ، وقد تدب المسلمين إلى فك الأسارى عن الأسرى فجعله فريضة من التكفير عن ذنوب كثيرة .

أوجب الإسلام قبول الفداء مع استحسان فك الأسارى بتقير فداء وغرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ، ومن يحنث في يمينه ، ومن بظاهر من زوجه ، ومن يؤدي الزكاة في مزارعها ومنها غدية الرقاب .

-
- (٧٩) جوستاف لوبون « حضارة العرب » ص ٣٧٧ .
(٨٠) توماس أرنولد « الدعوة إلى الإسلام » ص ٢٠٠ .
(٨١) سورة النساء آية ٣٦ .
(٨٢) عباس العقاد « ما يقال عن الإسلام » ص ١٥٤ .

ولم يبق الاسلام من قيود الرق الا ما هو باقى الى اليوم لاتفاق الدول وسيبقى بعد اليوم الى ان يشاء الله .

فالقوانين الدولية اليوم تبيح تسخير الأسرى واعتقالهم الى ان يتم الفداء بتبادل الأسرى او ببذل التعويض الذى تفرضه الدولة الغالبة . وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل ان تنتظم : بمعاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الاسلام . وأوجبه على الدول الإسلامية ، وهى تتولى صرف الزكاة « فى الرقاب » .

فاذا كانت الدول غير الإسلامية ، لم تعرف لها نظاما : تمنع لاطلاق اسراها من الرق ، فهى المسئولة عن هذا التصير ، وليس : فى الاسلام ار الدولة الإسلامية ملامة فيسه ، وقد نعود الى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الإسلامية ، وغيرها فنسظم ان هذه الدول الأخرى تسد تعلمته من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الأرقاء منذ اشتبكت بالحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى ، وحكومات المسلمين التى تجاورها . ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد ، كما وجدت عند الحكومة الإسلامية لتقدم العالم كله فى تضيئة الأسرى والرق أكثر من عشرة قرون .

ولنسأل ادعاء التحرير فى العصور الحديثة ، ماذا يحدث فى هذا العصر . لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقاً عليها بين ائتلافين ؟ ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟ هل تعفيهم من العمل ؟ هل تعامل اعداءها المأسورين معاملة المواطنين اصحاب الحقوق ؟ هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند اعدائهم ؟ هل تصنع بهم ما نبيعا أكثر من صنع الاسلام يوم اوجب على المسلمين ان يمنوا بالتسريح أو يقبلوا الفداء والعق أو يوجبوه فى مقام التكفير والاحسان .

ان صنيع الاسلام الذى اوجبه قبل أربعة عشر قرناً هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم فى انصاف اسراها وأسرى اعدائها ، فأما ان يكون ، ولا كيف يأتى لنظام من النظم الدولية أن يستقر عليه .

على ان دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الاسلامى : ثريعات الرق ، استثناء دولة منها فى احدث تشريعاتها الإنسانية كما تسجيا ، أما

الإسلام فقد أنصف الأرقاء ابتداء بغير اضطرار الى الاتصاف انتساء لثورة سياسية أو منازعة اقتصادية أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح .

ان اول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة الى تحرير الأرقاء جاءت على اثر النزاع بين اصحاب الصناعات الكبرى في بلاد تنفق الأجور الوفيرة على الصناع ، وبين اصحاب الصناعات حيث تدار بأيدي الأرقاء ، ولا تنفق عليها أجور ، فان اصحاب الأموال والصناع معا حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة ، واستجابوا لداعى المنفعة قبل ان يستجيبوا لداعى الكرامة الانسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية يوم احتاجت الدول الى العبيد لتجنيدهم أو لصنع السلاح في غيبة المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت ، وجاءت بعدها آخر الخطى يوم نهضت القارة الامريكية نهضتها تحررت شعوبها من سادتها وخاف أولئك السادة أن يسبhal السود الى معسكر أعدائهم في سباق التنافس على التحرير واجتذاب قلوب المستضعفين الى هذا الفريق أو ذاك الفريق ، فلما وصلت الحضارة الأوروبية الى هذا المدى بعد طول التمرن والمحال ، لم تكن قضية الرق بمندها قضية سماحة وانصاف وكذا كانت ولا تزال قضية مساومة واضطرار وحيلة من حيل السياسة والادارة ، وخطة من خطط التأخير والاستغلال .

والفارق الأكبر في مسألة الرق من جانب الواقع التاريخي هو ذاك الفارق الذي تحصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء في البلاد الاسلامية وعددهم في البلاد الغربية حيث يعيشون اليوم بين الأمريكتين " فان الأرقاء من الزوج لم يزدوا في البلاد الاسلامية — بعد ثلاثة عشر قرنا — على ثلاثة ملايين أو نحو هذا العدد القليل بالقياس الى سعة البلاد وطول الزمان واقتراب المكان ولكن عدد السود في الأمريكتين قد يبلغ العشرين مليوناً ولما لم يمض على قيسام الحكم الأبيض هناك أكثر من ثلاثة قرون . وبعد من هذا الفارق في العدد فارق في المعاملة التي لقيها الأرقاء في البلاد الاسلامية والمعاملة التي لقيها اخوانهم في الأمريكتين ، فلا وجسه للمقارنة بين المساواة في النسب والمصاهرة ، وحقوق الدم والمال وبين

تحريم المساكنة والمصاهرة ، واستباحة الدم انتقاما من الأسود الذي يرفع
هذه الحواجز بينه وبين ساداته البيض .

ان مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الاسلامية
والأمم الأفريقية التي تتحرر من قيودها وتتلنس سبيلها الى عثيدة مثلى ،
وحضارة يصلح لها وتخطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للاسلام ، وليست
بالدعاية التي يحارب بها الاسلام ، فاذا انعكست الآية ، وذهب بها
سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الاسلام ، بوسع
ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين « (٨٢) .

الفصل الخامس

الإسلام والعلوم الحديثة

الإسلام والعلوم الحديثة

يعجب المسلم عندما يقرأ ماكتبه الغربيون المستشرقون عن الإسلام والمسلمين وموقفهم من العلوم العلمية .

فهذا هو المسيو رينان أحد أعضاء جمعية المعارف بفرنسا في جامعة السوربون ببإريس (١) يكتب مقالا عن دين الإسلام والعلم ، وفيه نرى افتراءات واكاذيب وجهلا كبيرا بحقيقة الدين الإسلامي وموقفه من العلوم العلمية .

يقول المسيو رينان في ثانيا مقالة ص ٤ .

« كل من ذهب معنا الى المشرق او الى افريقيا رأى ان عقولهم بلغت من الحق غاية حتى كأن دينهم صار كنانا على قلوبهم فحجبها عن ان تعى شيئا من العلوم والافكار الجديدة ، فلا ترى الا القليل من اولادهم من تشاهد فيه النبهة ، لكن اذا بلغ العشر او الاثنى عشرة سنة وتعلم العقائد صار متعصبا في الدين ، واخذ يختال حقا على غيره ظلتنا ان هذا هو الحق فيعد نفسه سميذا بما اختصه بما هو في الحقيقة سببا لانحطاطه » (٢) .

(١) أرنست رينان أحد أعضاء جمعية المعارف بفرنسا في جامعة السوربون ببإريس له كتاب « الإسلام وآراء العلم والفلسفة » وهناك محاضرة معربة عن دين الإسلام والعلم قام بتعريبها على يوسف .

(٢) أرنست رينان « دين الإسلام والعلم » ص ٤ ..

ويقول في موضع آخر ص ٨ « قال بعض كتاب المشرق المدعو « أبو الفرج » — وهو مسيحي ملطي — في انشاء كلامه عن طباع العرب « ان العلوم التي كانت تفخر بها هذه الأمة « يعنى العرب » هي علوم اللغة والعروض والقياف والانشاء اما من جهة الفلسفة فما عليهم الله منها شيئا وما جعلهم اهلا لها » ويستكمل مسيو رينان كلامه بقوله « وهذا هو نفس الحقيقة اذ البدو وان كانوا اكثر الناس كلاما وهم اقلهم في التأمل والبحث عن الخفى والعربى المتدين يكتفى في تعليل حوادث الكون بقوله : ان الله تعالى خالق العالم هو الذى يدبر الامور مباشرة ، يرسل لنبيا يرشدونا اليه . ولهذا لا ترى في المدة التي كان فيها الاسلام منحصر في الأمة العربية — اعنى مدة الخلفاء الاربعة الاولين ومدة بني امية ادنى فكرة خارجة عن الديانة » .

ويقول رينان في موضع آخر ص ٣٩ .

« ان الدين الاسلامي اخر العقل البشرى وحجبه عن التأمل في حقائق الاشياء بنفوذ زاد منعمول تأثيره عن الاديان الاخرى حتى جعل بعض البلاد التي انتشر فيها كميدان لايعبر البحث عن حقائق الاشياء الذى به يتسع العقل ، وزد على ذلك ان عقول اهل هذه البلاد قاصرة من نفسها ، وما يتميز به المسلم هو بغضه للعلوم ، واعتقاده ان البحث كفر وقسلة عقل لا فائدة فيه » (٣) حتى ان هذا المستشرق يشير الى ان رفاعسة رافع الطوطاوى عندما عاش في باريس اثناء بعثته ثم عاد الى مصر الف كتابا ادعى فيه ان العلوم مضادة للدين الاسلامي .

والى جانب هذه الاتهامات يقول : عندما دخل الاسلام بلاد الفرس اوقف النشاط العلمى حيث كانوا منفردين بالطب وعلى المسام بالفلسفة الاغريقية واساتفتهم كانوا من اهل الهندسة والمنطق فتري قوت قصائد

الفرس التي اشتهروا فيها ووثائق رستم انه كان يدعو جاثليك كلما احتاج لعمل تنظرة ، وهذا الاسم كان يطلق على اساقفة وبطارقة النصارى . حتى انه يقول ان بغداد اُسست عاصمة لهذه الدولة الفارسية ؛ لكن ما أمكن تعويض لغة الفاتحين أى لغة العرب باللغة الفارسية ؛ حتى انه يشك في اسلام الخلفاء المشهورين أعنى المنصور وهارون الرشيد والمأمون المعاصرين للكارلوسيين عندنا فانهم كانوا يعملون ظاهرا لا باطنا بالديانة التي هم رؤساؤها ، وكانوا يميلون لمعرفة كل شيء خصوصا الأشياء الأجنبية وثنية كانت أو هندسية أو فارسية أو اغريقية (٤) .

هذه جملة افتراءات واكاذيب وجهل صدرت عن مستشرق فرنسى في القرن التاسع عشر وابواب القرن العشرين ، يحاول فيها أن يعمد عن الاسلام كل اتجاه علمي — ويرمى الاسلام بالجهود والتخلف ، ويسبب المسلمين ويدعى انهم يحرمون الاشتغال بالعلم .

والحقيقة اننى اخترت واحدا من هؤلاء المستشرقين * لانهم كثر والانحراف في اقوالهم واحكامهم الجاهلة يسيء اليينا ، ولكن لابد لنا من معرفة مايقال عنا وما نتهم به حتى نستطيع ان نقدم الأدلة والبراهين التي نسوقها جميعا من كتاب الله « دستور المسلمين » .

ويرى الشاطبى في الموافقات (٥) ان القرآن يشمل علوم الدين وعلوم الدنيا وهى ما تسمى بالعلوم الكونية ، وما يلحق بها من فنون وعلوم للمتقدمين والمتأخرين لعلم المنطق ، ودليل هذا قول الله في كتابه العزيز : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (٦) وقوله « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » (٧) .

(٤) المرجع السابق ص ١٢٠ .

(٥) الشاطبى « الموافقات » ج ٢ ص ٥٢ .

(٦) سورة الأنعام آية ٢٨ .

(٧) سورة النحل آية ٨٩ .

ولذلك فإن العلوم الحديثة على اختلاف أنواعها وتباين موضوعاتها لم تكن نظرياتها وتوابعها أو قوانينها إلا ترجمة ناطقة بلسان الحقائق الصامته الموجودة في الكون . غداً العلوم ومسمياتها موجودة عند موضوعاتها منذ خلقت الدنيا ، وأنها عمل فيها واضعوها بعد أن استكشفوا حقائقها باستقرار جزئياتها ، عملوا أمرين اثنين :

١ — تسميتها وجمع توابعها وترتيبها .

٢ — تحقيقها ببراهينها وتطبيقها على أفرادها .

ولنضرب لذلك مثلاً الحرارة والبرودة فانهما خلفتا مع السموات والأرض وكذلك الكهرباء الاستاتيكية مخلوطة مع الغمام وتلك شرارة كهربائية تبدو مشاهدة للعالمين كلما برق البرق ودوى الرعد قبل أن يعلم الإنسان علم الكهرباء . والكهرباء الديناميكية موجودة قبل العلم بنظرياتها كلما كان احتكاك بين جسمين صلبين كالصلب والحديد مثلاً ، وهكذا ظاهرتنا الضوء والصوت ، فانهما من الحقائق حين يدا في الكون الضياء والأصوات وأن الذي استطاع الإنسان عمله من ذلك بعد مرور الآلاف من السنين هو أنه اهتدى اليها وكشف غطاء الجهالة عن وجهها فتجلت له نظريات وتوابع ونجارب ومسائل جمعت ورقت فكانت علوماً ، واختص كل علم بما يناسبه من تلك النظريات ، وأن من الخطأ البين القول بأن العلماء أوجدوا باختراعههم طرق تسخير الطبيعة لأرادتهم وتيسير سبل الانتفاع بها بعدد كشفها ، وكذلك نقول في العلوم الاجتماعية كعلم التاريخ مثلاً الذي يقرر الحقائق الماضية التي وقعت في الأزمنة المنقرضة فيجمع المؤرخ شتاتها ويؤلف بينها ويهذب عبارتها ويرتبها فتكون علماً يسمى علم التاريخ إذا تجلّى هذا يتبين لنا أن القرآن الكريم ، حينما يعرض لنظرية من نظريات العلوم التي استكشفت ، ولم يكن للعلماء علم بها من قبل ، فأننا نقول أن استكشاف ذلك العلم الذي منسب تلك النظرية أثبتت شمسها موجوداً في الكون من قديم الزمان (A) .

والحقيقة التي أحب أن أركز عليها في هذا الموضوع هو أن الدين الإسلامي يبحث المسلمين على البحث والإطلاع والدراسة والتتقيب فهو ليس دين جمود ولم يحارب العلم مطلقا ، فكما ذكرت من قبل فإن أولى آياته التي نزلت على رسوله هي « اقرأ باسم ربك الذي خلق — خلق الإنسان من علق » (٩) . وتتكرر آيات القرآن الكريم في الدعوة الصريحة إلى النظر في خلق السموات والأرض ولابد أن هذا حض على البحث العلمي بقوله تعالى (١٠) « قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » .

وقوله تعالى (١١) « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » .

وقوله تعالى (١٢) « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » .

وقوله تعالى (١٣) « فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شققا ، فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا مفاعا لكم ولانعامكم » .

ويقرر القرآن أن الله سبحانه وتعالى علم الإنسان فيقول في سورة الرحمن (١٤) « خلق الإنسان علمه البيان » وفي سورة العلق « علم الإنسان ـ لم يعلم » (١٥) وفي سورة البقرة (١٦) « واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم » .

(٩) سورة العلق آية ١

(١٠) سورة يونس آية ١٠١ .

(١١) سورة الأعراف آية ١٨٥ .

(١٢) سورة ق آية ٦ .

(١٣) سورة عبس آية ٢٤ — ٣٢ .

(١٤) سورة الرحمن آية ٤ .

(١٥) سورة العلق آية ٥ .

(١٦) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

معنى ذلك أن آيات القرآن الكريم كلها تحت على البحث والاستقصاء والتعلم والتفكر ومعرفة أسرار الكون والاطلاع الدائب ، وسنورد أمثلة صريحة لمعظم العلوم العلمية وأن الله سبحانه وتعالى حض الإنسان على الاهتمام بها بل وشرح نظرياتها التي يتصور الغرب أنه صاحب فضل فيها ، وينسى أن للإسلام السابق في ذلك ، فكيف لامة هذا دينها أن ترمى بالقصور والتخلف .

علم الجغرافيا الطبيعية

من نظريات علم الجغرافيا أن الأرض كانت جزءا من الشمس ، ثم انفصلت لأسباب غير معروفة والدليل على ذلك وجود حرارة عظيمة في جوف الأرض تصهر المعادن التي لا تنصهر إلا بحرارة عظمى وتنبعث من باطنها فوارات الماء الحميم مثل ماكان في طوفان نوح عليه السلام . وهذا يرشدنا إلى أن الشمس والأرض كانتا جزءا واحدا وكسذلك الحال بين الشمس والنجوم (١٧) . وفي ذلك يقول الله تعالى (١٨) « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » أي فصل الله تعالى الأرض عن السماء ثم « استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وبالتالي فإن النظريات الحديثة أثبتت أن القبة المضروبة فوق سطح الكرة الأرضية فضاء لم يستطع الإنسان أن يدرك له نهاية، بل عاين بالآلات نجوما وكشموسا لأعداد لها مختلفة في بروجها متباينة في حجومها ويدل على ذلك قول الله تعالى في سورة الفرقان (١٩) « تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا » ، والسراج هنا معناه الشمس .

وهناك مذنبات ذات أذيال ضافية وأفلak متراصة وهنالك كواكب أعظم حجما من الشمس لا تكاد هذه الشمس تذكر بجانبها .

وهناك نجوم تتم دورتها كل مائة سنة ، ومنها مايتم دورته كل ألف سنة ، ومنها مايتم كل مائة سنة والفي سنة ومنها مايتمها كل ثلاثة آلاف

(١٧) جمال الدين الفندى « قصة الكون » ص ٤٩ .

(١٨) سورة الأنبياء آية ٣٠ .

(١٩) سورة الفرقان آية ٦١ .

سنة ومنها مايتمها كل مائة الف سنة ، وقد عرف العلماء ذلك بواسطة حساب المثلثات الكروية (٢٠) .

واذا كان الغرب قد نوصل الى نظرية كروية الارض . وتصور انه اضاف للعلم الجغرافى حقائق جديدة . فان الدين الاسلامى قد اثبت فى دستوره كثيرا من هذه الحقائق التى لم يكن على الانسان الا ان ينتهم معناها ، ولكن كيف ينتهم ذلك الا بسلطان العلم .

قال الله تعالى « والأرض مددناها » « ألم نجعل الأرض مهادا » « الذى جعل لكم الأرض فراشا » ونحو ذلك من الآيات الشريفة الخاصة بالكرة الأرضية .

والله سبحانه وتعالى قد نفى عن الأرض صفة التسطح . فلو كانت الأرض مسطحة ، لما كثر فى الآيات القرآنية قول الله وتذكيره لعباده بأن الأرض « مع كونها كروية » صالحة لمعاشهم ومع كونها كذلك تد جعلها ذلولاً ، نامشوا فى مناكبها آمنين على ظهرها لا تخافون تلقا ولا اضطراباً ، ومهما سرتن فلن تجدوا لها آخر فقد مددناها امامكم ، فلا تعترضكم نهايتها ولا نهاية لها .

واما الجسم المسطح فلا بد ان له نهاية من كل جانب فحينما يتوغل السائر فى ناحية منه وجد آخره فيقلب على عقبه .

ثم يقول الله تعالى فامشوا فى مناكبها ، بدرن ان يحذرهم من المشى فى اطرافها « ان كانت مسطحة » فهذا دليل يصدع بأن الأرض لا اطراف لها والاطراف لازم من لازمات المسطح ونفى اللازم وهو الاطراف يستلزم نفي اللزوم وهو السطح ، فالأرض اذا كروية وليست مسطحة (٢١) .

(٢٠) جمال الفندى « حقيقة الكون » ص ٥١ — ٥٢ .

(٢١) رضوان شافعى « التوفيق العلمى » ص ٦٧—٦٨ .

الإسلام وعلم الفلك :

قال الله تعالى « والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » (٢٢) وقوله تعالى « والقمر ندرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » (٢٣) .

تستمر الشمس طول السنة في قطع محيط دائرة، وهذا المحيط يسمى الفلك وكذلك القمر ، فان له فلكا ، ولكن الشمس تقطع فلكها في سنة كاملة اما القمر فيقطعه خلال شهر واحد . وكل من الشمس والقمر ، وما يتبعهما من النجوم والتوابع في فلك يسبحون أى يسرون بسرعة شديدة، ثم ان فلك الشمس مقسم الى اثني عشر جزءا ، تقطع كل جزء في شهر وفي اثناء سيرها حين تقطع الجزء الأول من الاثني عشر جزءا تكون الشمس موازية لسكواكب مخصوصة أى انها تسامت الكواكب التي فوقها في الشهر الاول ، وهذه المجموعة من الكواكب التي تسامتها الشمس ، وهي جزء من هذه الأجزاء تسمى برجاً ، فاذا تم الشهر تكون الشمس قد انتهت من هذا البرج وانتقلت الى البرج الثاني ، وفي ذلك يقول الله تعالى (٢٤) « والسماء ذات البروج » وقوله تعالى (٢٥) « تبارك الذي جعل في السماء بروجا » .

ثم ان القمر يقطع فلكه في ثلاثين أو تسع وعشرين ليلة كل ليلة يقطع جزءا منه ، ويسامت كواكب كل ليلة غير التي يسامتها في ليلة أخرى من الشهر ، فالقمر مثل الشمس الا أن الليلة بالنسبة للقمر بمثابة الشهر بالنسبة للشمس ، والمجموعة من الكواكب التي تسامت القمر في ليلة واحدة تسمى منزلة ، والجمع منازل ، ولذلك يقول الله تعالى (٢٦) « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل » وقوله (٢٧) « والقمر

-
- (٢٢) سورة يس آية ٣٨ .
 - (٢٣) سورة يس آية ٣٩ .
 - (٢٤) سورة البروج آية ١ .
 - (٢٥) سورة الفرقان آية ٦١ .
 - (٢٦) سورة يونس آية ٥ .
 - (٢٧) سورة يس آية ٣٩ .

قدرناه منازل « فذلك بروج الشمس وهذه منازل القمر . لسمى ذلك المستقر
فى قوله تعالى (٢٨) « والشمس تجري لمستقر لها » .

والجواب اننا اذا قابلنا آية الشمس وهى « والشمس نجري
لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » بآية القمر ، هى « والقمر قدرناه
منازل » نجد ان قوله منازل فى القمر تقابل قوله « لمستقر لها » فى
الشمس والدليل على ذلك انه بمعرض ذكر حركة كل من الشمس والقمر
لقوله « وكل فى ملك يسبحون » ثم ذلك التقدير فى قوله « ذلك تقدير
العزيز العليم » وكما قال فى القمر « قدرناه منازل » أى ان المستقر مقدر
للشمس بتقدير العزيز العليم كما ان المنازل مقدره للقمر أيضا .

وعلى ذلك يكون مستقر الشمس هو برجها . وقد يقال ان المستقر
اسم مكان من استقر والبرج هو طائفة من الكواكب العالية جدا المسماة
للشمس ، فكيف تكون مستقرا للشمس ؟ والجواب ان ذلك مكان اعتبارى
او على حسب النظر ، ولما كان فلك الشمس أكبر من فلك القمر كانت
المسافة التى تقطعها الشمس عظيمة جدا تحتاج فى قطعها الى سرعة ،
ولذلك عبر فى جانب الشمس بلفظ تجرى ليشير الى ان تلك المسافة الطويلة
جدا فرض الله لها مدة تجرى فيها الشمس جريا حتى تتمكن من انمامها
فى موعدها (٢٩) .

وقد قال بعض المفسرين فى قوله تعالى « تجرى لمستقر لها » هذه
اشارة الى دوران الشمس حول محورها وهى الحركة الرجوية . والمستقر
هو محور الشمس ، وهذا بناء على القول بأن الشمس ثابتة فى مكانها
وانما تدور حول محورها دورتها الرجوية . ولكن الظاهر المتبادر من
الآيات التى وردت فى الشمس ان المستقر هو يوم القيامة الذى يستقر فيه
كل متحرك ، وانا لنجزم بأن معنى قوله تعالى « والشمس تجري لمستقر
لها » يساوى قوله تعالى « وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى »
فيكون قوله « تجرى لمستقر » مساويا لقوله « تجرى لأجل » وكل من

(٢٨) سورة يس آية ٣٨ .

(٢٩) رضوان شافعى « التوفيق العلمى » ص ١٠١ — ص ١٠٢ .

اللام فى قوله مستقر واللام فى قوله لأجل للانتهاء أى تجرى الى مستقر وتجرى الى أجل مسمى فاذا جاء الأجل استقرت فى مستقرها .

والحقيقة ان القرآن الكريم يسير سيرا منظما فى شرح علم الفلك وغيره من العلوم التى حاول الناس بعهد ذلك أن يتفهموها ويشرحوا غامضها ويأتوا بنظريات فيها ، وقد شرحها القرآن وبينها ، وبين سطورها معانيها ، ولكن عقلية الانسان هى التى لم تكن لتصل الى هذه الدرجة العالية من العلم لتتفهم كل ماخفى من معجزات القرآن فحينما تنفتح لها نظرية جديدة تتصور أنها قد اضافت جديدا ، أما الحقيقة فهى أنها تفهمت أشياء فى السكون وفى القرآن لم تكن قد وصلت اليه من قبل .

فى الفلك اذن نرى ان القمر يسير بأحكام نظام سيرا دقيقا يتخذه الناس فيما بينهم مواعيت بالايام حين ينزل كل ليلة ، منزلة من منازلها التى قدرها الله له ، ويعرف به الناس مواعيد الحج فى كل عام فكانه ساعة نعرف بها المواعيت كل يوم وكل عام .

وكذلك يسير الله الشمس وسائر الكواكب على ذلك النظام المحكم ، وهذا دلالة على ان الكواكب على اختلاف طبقاتها وتفاوت حجومها خاضعة بأسرها لذلك النظام المبدع وعلى ذلك يكون قول الله تعالى « مواعيت للناس والحج » ، وقوله (٣٠) « وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » وقوله « فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب » (٣١) مرادا به السير بنظام هو غاية فى الأحكام وليس مجرد أخبار .

لذلك فدين الاسلام دين العلم ، وهو الذى حث الانسان على التوغل فى ملكوت السموات والأرض سواء بالدراسة او بالإنفاذ فى الفضاء فى قوله تعالى « يا معشر الجن والإنس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار

(٣٠) سورة يونس آية ٥ .

(٣١) سورة الاسراء آية ١٢ .

السموات والأرض فانفجوا لا تنفخون الا بسلطان « (٢٢) وقد قرر العلماء أن هذا السلطان هو قوة الله سبحانه وتعالى صاحب السلطان ، ولن ينفذ الانسان الا بالعلم . فأين هذا مما يتهنأ به المستشرقون من تأخر وجود .

الاسلام وعلم النبات والحيوان

قال الله تعالى في سورة الانعام « وهو أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخيل من طلعمها قنوان دائية ، وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا الى ثمره اذا اثمره وينعه ان في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (٢٣) .

توضح هذه الآية السكرية ما أثبتته علم وظائف الأعضاء في النبات من انه عندما ينزل الماء من السماء ينبت البذور فتخرج اجنة النباتات من دور الركود الى دور النشاط ، وتبدأ في وظائفها الحيوية ، وينمو النبات ويتخصص اجزاء منه هي الأوراق في انتاج المادة الخضراء « الكلوروفيل » وهي المادة اللازمة لتكوين المادة الغذائية في داخل النبات من عناصر التربة ، ومن عناصر الهواء ثم تنتقل هذه المواد الغذائية ، على هيئة عصارة داخل عروق النبات فتتكون البذور والثمار » (٢٤) .

ويقول الله تعالى في سورة النحل « وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » (٢٥) وقوله تعالى « اولم يروا الى الأرض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم » (٢٦) وقوله تعالى « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » (٢٧) .

هذه بعض آيات القرآن التي تفتح للبشر النظر والبحث ، بل وتأمرهم بدراسة ما غمض فيها ، وتوضح للانسان الاسس الأولى في هذين

(٢٢) سورة الرحمن آية ٣٣ .

(٢٣) سورة الانعام آية ٩٩ .

(٢٤) محمود دياب « الطب والأطباء » ص ١٠٠ .

(٢٥) سورة النحل آية ٦٦ .

(٢٦) سورة الشعراء آية ٧ .

(٢٧) سورة الرعد آية ٣ .

العلمين ، أولهما أن كل مخلوق من مخلوقات الله سواء أكان إنسانا أم حيوانا أو نباتا فهو زوجان ذكر ومؤنث ، يتكاثران ويخرجان أصولهما من نفس نوعيهما .

وقد أمر الله الإنسان أن ينظر الى النبات وكيف توضع بذوره في الأرض وكيف ينمو ويترعرع ، ويخرج لنا حبا وفاكهة مختلفة أنواعها بالرغم من أن الأرض واحدة ، فهذه قدرة الله سبحانه وتعالى ، الى جانب أن الله جل شأنه أوضح للإنسان كيف يعرف ذكر النباتات من مؤنثه لأن ما يظهر منه ومالا يظهر ، الى جانب أن الله أوضح في آياته المحكمات أن النبات يلتحق بواسطة الرياح اللواتح، وتارة يكون بواسطة الحيوان إنسانا أو بهيمة تنتقل من شجرة الى شجرة أو طائرا يهوى من غصن الى غصن (٣٨) ، وحينئذ فلا شك أن كل أنواع النبات لاتخرج عن عموم قوله تعالى « من كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (٣٩) .

واستثمرت عقلية الإنسان في توضيح أسرار علوم النبات واستكشاف غوامضه، حتى وصلوا الى طرق جديدة في الزراعة وزيادة الغلة وتحسين المحصول ، كل ذلك نجد له معان اذا فسرنا آيات القرآن الكريم بعقلية علمية .

لقد كان الإنسان فيما مضى يقرأ هذه الآيات ، وكان يتصور أنها ترمى الى مايقع تحت حسه من أنواع الحيوان والنبات ، فلما تطور علما النبات والحيوان ، وجد أن هذه الآيات تتكشف عن دائرة هامة مترامية الأرجاء وتشمل أصنافا من الحيوان تراها ولا تراها .

أفلا ينظر المغرضون كيف كان دستورالاسلام هو قلعة العلم الحديث ، فكيف اذا لايشجع أبناءه ، ولا يدعوهم الى الكشف عن الكون وما فيه .

(٣٨) رضوان شافعى « التوفيق العلمى بين الحضارة الاسلام »
ص ١١٢ — ١١٣ .
(٣٩) سورة الذاريات آية ٤٩ .

الاسلام وعلم الطب

لاشك ان دين الاسلام يحث على الاهتمام بصحة الانسان وبدنه ، فهو الدين الذى بنى على النظافة والطهارة والوضوء والسواك وتطهير الثياب وعدم القاء الاوساخ فى طرق المسلمين ، وعدم البصاق ، وعدم الافراط فى الأكل أو ادخال الطعام على الطعام ، وعدم الأكل قبل الجوع ، وعدم الامتلاء واللجوء الى الحمية « لأن المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » (٤٠) .

وهناك احاديث الرسول صلعم كلها تتلاءم مع نظريات الطب الحديث فيذكر المؤرخون ان الرسول صلعم عندما بعث اليه القوقس عظيم القبط نى مصر بالطبيب ، رده اليه قائلا « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » (٤١) وبعد طول السنين وبالدراسات العلمية ثبت ان هذه نظرية طبية وهى أساس صحة الانسان .

ومن احاديث الرسول صلعم التى تدل على الوعي الطبى ، وهو ما نسميه الآن بعمليات الوقاية من الأمراض والحجر المصحى قوله عليه السلام « اذا سمعتم به — أى بالوباء والطاعون — بأرض فلا تقسدموا عليه ، وإذا وقع بأرض روائتم بها فلا تخرجوا فرارا منه » (٤٢) .

فالاسلام يأمر بالوقاية من الأمراض لئلا تنتقل العدوى الى مسائر افراد المجتمع ، وذكر أيضا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك « فر من المجذوم كما تفر من الأسد » (٤٣) .

وهناك كثيرا من احاديث الرسول صلعم التى تدل على ان المسلمين اهتموا بالطب والدواء ، فقد جاء اليه صلى الله عليه وسلم يوما بعض الاعراب وسألوه أنتداوى ، قال « تداوا فان الله لم يضع داء الا ووضع له دواء » (٤٤) .

(٤٠) صلاح الدين المنجد « المجتمع الاسلامى فى ظل العدالة » ص ٥٩ .

(٤١) رواه البخارى ..

(٤١) رواه البخارى ومسلم بسند صحيح .

(٤٣) رواه البخارى .

(٤٤) رواه احمد وإسحاق السنن بسند صحيح .

أما إذا أردنا أن نحلل القرآن الكريم ونرى بعض الآيات التي أثبت العلم الحديث صحتها ، وكيف نزلت على الرسول الأسمى في وقت لا يمكن لإنسان أن يحلل هذه الآيات ويفسرها كما فسرتها النظريات العلمية الحديثة . فلنأخذ أولا موضوع خلق الإنسان .

قال الله تعالى في سورة المؤمنون « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة . فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما » (٤٥) .

فمن المعروف أن علم الأجنة يعتبر من العلوم الحديثة ، فإنه لم يصل إلى حقائق تكوين الجنين ، وتصوير أشكاله المختلفة في مراحلها المختلفة إلا بعد أن اكتشفت المجاهر والأشعة حيث عرف التشريح المقارن معرفة تامة ، وحيث وصل العلم إلى الحقائق التي تقررها الآية الكريمة ، خلقناكم من عناصر التراب المختلفة ، ثم خلقناكم بطريق التناسل من حيوان منوي داخل سائل متدفق بواسطة تلقيح الحيوان المنوي لبويضة الأنثى ، ثم تحوت علقة تنمو حتى تصبح شبيهة بقطعة دم تتعلق بجدار الرحم ثم تنمو العلقة حتى تصبح في حجم ما يمكن مضغه .

وفي الجنين توجد الطبقة المتوسطة من طبقات الجرثومية الثلاث وهي تنقسم إلى خلايا يتكون منها العظام والعضلات ، وتتصل خلايا الطبقة الصلبة وتمتد إلى أماكنها الكثيرة ، وتصبح باقى خلايا الطبقة الجرثومية عضلات تسير جنباً إلى جنب مع التعضرف . وفي الأسبوع الثاني يظهر التكلس والتعظم للغضاريف ، وتكون العضلات قد تميزت بسرعة في جميع أنحاء الجسم وأخذت الشكل النهائي لها ، وبعد أن يكسو اللحم العظام يكون الإنسان قد أنشئ خلقاً جديداً وظهرت جميع أعضاء الجسد (٤٦) .

وقد كان المسلمون في القرون الخالية يقرعون تلك الآية وأمثالها قراءاً تعبدية محسب ، ويمرون على ما فيها من علم صادق ويقولون آمناً به كل

(٤٥) سورة المؤمنون آية ١٢ — ١٤ .

(٤٦) محمود دياب « الطب والأطباء » ص ٩٤ — ٩٥ .

من عند ربنا ، حتى جاء علم التشريح ، ووضح هذه النظرية العلمية التي سبق القرآن بها العالم أجمع فقد قال تعالى « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » (٤٧)

وهنالك اعجاز قرآني آخر في مجال الطب في قوله تعالى « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » (٤٨)

نفى هذه الآية يبين الله تعالى عملية خلق الإنسان ، وكيف توضع النواة في رحم الأم ونوعيتها ، وكل ذلك عكف على دراسته العلماء . فوجدوا في القرآن الكريم أساسا لما يدرسون فهو الذي يبين كيفية الحمل ومراحل الخلق وكيفية الوضع ، ثم عملية الرضاعة ، وأهميتها الصحية للإنسان ، ومدتها ، كل هذه آيات محكمات دقيقة الصنع . وما العلماء المحدثون إلا أناس يحاولون تفسير ماغضى (٤٩) .

وإذا أردنا أن نتمعن كيف كان الإسلام هو أساس الطب الحديث . فلننظر إلى تعاليمه التي أمرت المسلم بالوضوء في قوله « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ، وإن كنتم جنبا فاطهروا » (٥٠) .

فللوضوء حكمة بالغة ، فالإنسان ينظف أعضائه الظاهرة ، فكلما نعفر الإنسان وتغبر جاء ميعاد الوضوء فأزال القذارة عن أعضائه فلذلك فهو دين يدعو إلى النظافة التي هي الأساس الأول في علم الطب ، فهي التي تحمي الإنسان من مختلف الأمراض (٥١) .

وإما تعاليمه بالنسبة للصوم : فهو يفيسد الإنسان لعلاج كثير من الأمراض ، ويقلل من وزن الجسم .

(٤٧) سورة هود آية ٤٩ .

(٤٨) سورة الطارق آية ٥ — ٧ .

(٤٩) عبد الرزاق نوفل . ص ٧٦ .

(٥٠) سورة المسعدة آية ٦ .

(٥١) محمود دياب ص ٨١ .

كذلك حرم الله تعالى الميتة والدم ولحم الخنزير ، فالحيوان الميت لا يموت الا لمرض او شيخوخة ، فاذا مات نتيجة لمرض فانه مما لا شك فيه انه مازال يحمل فى جسمه بعد الموت مواد غير طبيعية ، وتسمميه ضارة بجسم الانسان الحى حتى بعد ان تعتم من الجراثيم .

وكذلك الدم . فانه سائل أغلبه وأهم عنصر فيه كريات الدم الحمراء وفيه من افرازات الجسد ما هو معد للافراز بالبول والعرق .

فالدم مزيج من مواد مفيدة للجسم ، ومواد تضر اذا لم يفرز ، واذا كان الحيوان المأخوذ منه الدم ايضا مريضا كان شرب الدم أشد ضررا .

واذا بقى الدم فى الحيوان قبل اكله احدث تفاعلات فى أنسجة الحيوان مثل العضلات وبصبح اكلها غير صالح للانسان .

والميتة بالشيخوخة ضررها كضرر الميتة بالمرض لأن الشيخوخة معناها انحلال احد الأنسجة وذلك متدمة لانحلال آخر حتى تنحل جميعا ويصبح الاكل فى هذه الحالة اكلا لأنسجة مريضة متحللة ، ولحم الخنزير كثيرا ما يصاب بطفيليات ، وينقل من الأمراض التى ثبتت أخيرا مثل التيفيا والبلانتيدوم، كما انه الحيوان الوحيد الذى يصاب بالتركينا وهو نوع خطير من الديدان لانه اذا اصاب به الانسان يحدث تسهما عهوما واسهالا مثل السكوليرا يؤدى الى الوفاة (٥٢) .

وقد حرم الله سبحانه وتعالى الخمر ، فالخمر تسبب الاضرار بكثير من اجهزة الجسم المختلفة ، كالجهاز الهضمى والعصبى والدموى (٥٣) .

وفى مجال الطب والصحة التى أثبت العلم الحديث صحتها وأهميتها قول الله تعالى « ويسألونك عن المحيض ، قل هو اذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » (٥٤) .

ولقد ثبت علميا ان الحيض اذى اى ضرر على الرجل والمرأة على

(٥٢) عبد العزيز اسماعيل « الاسلام والطب الحديث » ص ١٠٤ .

(٥٣) احمد علوش « الخمر والحياة » ص ٦٥ .

(٥٤) سورة البقرة آية ٢٢٢ .

حد سواء فهو يؤدي الى امراض للرجل لأن دم المرأة فى هذه الفترة خليط من خلايا بطانة الرحم وافرازات الغدد وبه كثير من الجراثيم (٥٥) .

وهناك معجزة علمية طبية فى القرآن فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب آية ١٩ « فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يخشى عليه من الموت » (٥٦) .

تشير الآية السكرية الى حقيقة علمية لم يكن سببها معلوما عند نزول القرآن وهى دوران مقلة العين عند اقتراب الموت وعند الخوف ومن اسباب ذلك أن شدة الخوف تذهب الوعى فتعطل الإدراك ، فتعمل المراكز العصبية اللاواعية منطقة مهاد المخ فيصير الخائف فى حالة شبيهة بحالة الذى يغشى عليه من الموت اذ تدور مقلته وتتسع حدقته (٥٧) .

وهناك معجزة أخرى من قوله تعالى فى سورة الحديد آية ٢٥ « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » (٥٨) .

فللحديد منافع جمة للكائنات الحية اذ تدخل مركبات الحديد فى تكوين الكلوروفيل وهو المادة الأساسية فى عمليات التمثيل الضوئى التى ينشأ عنها تنفس النباتات وتكوين البروتوبلازم الحى وهى الطريقة التى يدخل الحديد بها جسم الانسان والحيوان .

ويدخل الحديد فى تركيب بروتينات النواة « المادة الكروماتينية » فى الخلية الحية ، كما انه يوجد فى سائل الجسم مع غيره من العناصر وهى احدى مكونات الهيموجلوبين .

ويقوم بدور هام فى عملية الاحتراق الداخلى للانسجة والتمثيل الحيوى بها أو الحديد يوجد كذلك فى السكند والطحال والسلى والعضل والنخاع الأحمر ، ويحتاج الجسم الى كمية مناسبة من الحديد يجب ان

(٥٥) دياب ص ٩٠ .

(٥٦) سورة الأحزاب آية ١٩ .

(٥٧) دياب ص ٩٩ .

(٥٨) سورة الحديد : آية ٢٥ .

يزود بها من مصادره المختلفة . فإذا نقصت تعرض الانسان لأمراض
أهمها فقر الدم (٥٩) .

الإسلام وعلم الكيمياء :

حاول كثير من المستشرقين أن يغيضوا الطرف عن الدور الذى قام
به المسلمون فى مجال الكيمياء ، هذا المجال الذى يعتبر واحدا من أهم
الميادين العلمية التى اشتغلوا بها ، بعد أن حثهم دينهم الحنيف على العلم
والبحث واستطلاع خبايا الكون .

ومن أول من اتهم المسلمين المستشرق أوليرى فى كتابه « الفكر
العربى ومكانه فى التاريخ » قال ان « الكيمياء العربية تعيد عرض ما قام
به الكيميائيون فى مدرسة الاسكندرية » ويرى المستشرق Rnska
« ان مادة الكيمياء العربية منتولة الى العربية من القبطية ، ولكن
ربما كان بها عنصر خفى مصرى أصيل » فان أوليرى يرجع فيقول « ان
النسخ القبطية فيها يبدو ، انها ترجمت من أصول عربية الأمر الذى يبعد
معه أن يكون اصل الكيمياء العربية ترجمات من القبطية » (٦٠) .

والحقيقة ان العرب فطنوا الى علم الكيمياء منذ صدر الدولة
الإسلامية فى العصر الأموى فقد شغف المسلمون كما نعلم منذ بداية الأمر
بالبحث عن الحقيقة ، فاتبعوا منهجا سليما تتبعوا به سير الظواهر ، ولم
يقبلوا شيئا على أنه الحق ما لم تؤكد به الخبرة والواقع العلمى (٦١) .

ومن أوائل العلماء الذين ظهروا فى ميدان الكيمياء وآثروا ابلغ الأثر
فى تطور هذا العلم ، واقامة دعائمه ، خالد بن يزيد الأموى وجابر بن
جبران وابو بكر الرازى وابن سينا وكثير غيرهم ، الا أن جابرا هو بحق
المثل العظيم للكيمياء الإسلامية فى عهدها المبكر (٦٢) ، وبجهود جابر

(٥٩) دياب ص ١٠١ .

(٦٠) أوليرى « الفكر العربى ومكانه فى التاريخ » ص ١٣٦ .

(٦١) مصطفى لبيب « الكيمياء عند العرب » ص ٢٤ .

(٦٢) Moere " A History, of, Chemistry." p. 23.

والرازي وبفضل عبقريتهما بدأت تتضح مبادئ الكيمياء ويصبح لها منابع العلم الحقيقي ، كما بدأت الحقائق التجريبية تساند النظريات العقلية التأملية وتدعمها ، وتحدد المواد الكيماوية . وصنفت تصنيفا محدد الخصائص كما تقدمت وسائل البحث العلمى وطرق التقطير والتصفيد والحل والعقد والتبلر ، وفهم الفرض منها . وقد بعثت عقلية هؤلاء الرواد من علماء المسلمين عن السحر والخرافة وكانوا أول من طبق المنهج العلمى فى دراسة الظاهرة الكيماوية (٦٢) .

وقد ثار جدل بين مؤرخى العلم حول حقيقة الأصول التى استقى منها المسلمون معارفهم الكيماوية ، وتنوعت حججهم قوة وضعفا فى هذه السبيل ، ويكاد يجمع الغربيون والمسلمون من كتاب التراجم والطبقات على أن خالد بن يزيد هو أول من تكلم فى الكيمياء وأنه تلقى علومه من مصادر يونانية أو على الأرجح مصادر هلينستية على يد واحد من رهبان الاسكندرية يدعى ماريانوس الذى ترجم كتب الكيمياء الى العربية .

والواقع أن المسلمين الأوائل ان كانوا قد ورثوا شيئا من المعلومات الكيماوية التى انتهت اليها جهود المصريين القدماء أو اليونانيين إلا أنهم بحق قد بعثوا عن الارتجال والغموض وأسسوا كما يقول هوليامر « نظاما عمليا عماده الحقائق التى تدعمها التجربة ، وتبعد عن الخيال ، وفى الجانب العملى فى الكيمياء الإسلامية يبدو التنظيم السليم بأوسع مداه » (٦٤) .

وحينما بدأ المسلمون يتشككون فى النظريات الكيماوية القديمة بدأت مرحلة وصولهم الى مستوى عال من التفكير الكيماوى (٦٥) . وإذا كان من الممكن للمرء أن يطلع على علوم الآخرين فإن ذلك ليس ضمانا له بالقدرة على التفكير المبدع ، فالعرب وقد كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان إلا أنهم سرعان ما أدركوا أن التجربة والرصد خير من الف كتاب (٦٦) .

Holmyard. " Makers of Chemistry " p. 56. (٦٣)

Holmyard. " Chemistry to the Time of Dalton " p. 30 (٦٤)

(٦٥) سارتون جورج « مقدمة لتاريخ العلم » ص ٣١ .

(٦٦) لوبون « حضارة العرب » ص ٤٢٥ .

ان تاريخ العلم يؤكد ان المسلمين فى بحوثهم الكيميائية اتبعوا الطريق العلمى بالرغم من معرفتهم ان التجربة لاتوصل الى اليقين الحاسم وليست وثيقة وثاقة البرهان او القياس ولسكنهم وقد كان هذا شأنهم ادركوا تماما ان مطلب اليقين ليس هدف الكيميائى ، او حتى فى متناوله وان نتائج العلم تخضع لاعتبارات الاحتمال والترجيح كمسا لم يروا فى القانون العلمى صبغة مطلقة تحتم ضرورة صدقه فى كل مكان وزمان وتجعل « التنبؤ العلمى » فى المستقبل على نحو ما اظهرته تجربة الماضى والحاضر امرا محتوما . لذلك نرى ان المنهج العلمى فى الكيمياء الاسلامية قام على المشاهدة المضبوطة ، والتجريب المحكم بعكس الطريقة المدرسية التى سادت اوربا بعد ذلك طوال العصر الوسيط ولا يمكن فى واقع الامر ان تظهر قيمة العرب الحقيقية ومكانتهم العلمية الا باظهار الفرق بين المنهجين السالفى الفكر ، فان زملاء العالم الايطالى جاليليو قد رفضوا فى عناد حتى مجرد ان يكلفوا خواطرهم بالنظر فى منظره ليروا ما يتعاقب على اجرام من تغيرات .

فالجانب التجريبي فى الكيمياء العربية من اهم المسائل الجديرة بالاعتبار ، وعلى اساسه استطاعت اوربا ان تجد الاساس السليم ، ونقطة البدء الصحيحة فى هذه الدراسات التى خلفها العرب ، يقول هوليامر ، لقد قدم كيميائيو العرب الجوهر والاساس لهذا العلم الناشئ واستطاعت اوربا ان تبدا بحوثها الكيميائية على اساس واقعى سليم ، وبناء نظرى مشتق وتأكيد لقيمة الكيمياء المباشرة فى حياة الفرد » (١٧).

ان النقاش الطويل حول الطريقة التجريبية ، ومحاولة اسنادها لغرب العرب ليس الا حلقة من حلقات التضليل وليس الا تصحيفا فى فهم المصدر الحقيقى للحضارة الاوربية كما يقول « بريفولت » فالدراسات العلمية التى ظهرت فى اوربا كانت نتيجة لروح جديد فى البحث وطرق حديثة فى الاختبار والفحص ، وكانت كذلك نتيجة للتجارب والملاحظات ودقة المقاييس ، وكل هذه الدعائم لم تكن معرفة للاغريق انها جميعا هدية المسلمين الى اوربا .

الفصل السادس

الإسلام ومشكلات الحضارة والمدنية الحديثة

مشكلات الحضارة

تعرضت الانسانية عامة فى الشرق والغرب لهزات عنيفة بعد الحربين العالميتين الاولى والثانية .

فقد انقلب ميزان القوى فى العالم ، وانتصرت فئة وانهزمت فئة اخرى وعلت جبهة وانخفضت جبهة ، بل ان هنالك من الدول العظمى اننى انكسرت هذه السكرة فى الحرب — مثل المانيا ودول المحور — وكان لابد عليها من أن تعيد بناء نفسها من البداية .

أصبح امام الشعوب مشكلات ضخمة سياسية واقتصادية واجتماعية، وقد أصبح من المحتم على العالم الاسلامى أن يسهم بحظ وانصر من تلك المشكلات ، وان يشارك بتيمة العالم فى التواء القدر الكافى من الاضواء لحلها والاستفادة من نتائجها .

ومن الطبيعى أن العالم الاسلامى يختلف كلية على العالم الغربى فى دينيته وتقاليدته وعاداته وتراثه العلمى ، الذى يختلف مع ما للآخر من نظائر هذه المميزات كل الاختلاف .

ويرجع هذا الاختلاف الى الفترة التى بدأت فيها أوربا عصر النهضة، واذعنت لدعوة الأحرار من مفكرىها ، فانفصلت عن الكنيسة ، واندفعت فى الطريق الذى جعلها تبتعد عن المدنية والحضارة الشرقية شيئاً فشيئاً .

ولقد جعل مفكرو الغرب يمعنون فى توسيع الهوة بين الحضارتين، فأعلنوا جدودهم للروحانيات ، وصرخوا بانكارهم لكل ما لا يعرفون سببه الظاهرى ، ونادوا باستقلال العلوم التجريبية عن الدين ونادوا بصدارتها عليها ، وقرروا أن كل ما لا يخضع للتجربة غير ثابت ، ولا جدير بالتصديق . فقال قائلهم « اذا وضعتم الاله والروح على المشرحة ، وصوبتم اليهما

الميكروسكوب ، فانا مستعد للايمان بهما » (١) . واعلنوا كذلك ان العقل البشرى المعتمد على الحواس هو وحده الوسيلة المثلى للمعرفة ، وجاهروا بأن المعرفة نسبية وبأن مبادئ الأشياء وغاياتها مجهولة او غير قابلة للمعرفة ومعنى هذا انه يجب علينا ان نحصر جهودنا فى دراسة الظواهر الطبيعية ، وما دامت هى وحدها فى متناول عقولنا ، فلم يعد العقل سوى قوة تتعقب تحولات المادة ، لتفتزع منها خواصها .

هذه هى مميزات الروح الغربية التى يسودها العلم التجريبي سيادة تامة . والتى ظفرت فى القرون الأخيرة بنمو وانتشار غير قابلين للتصديق ولقد تغلغلت فى جميع البيئات الدينية ، بل نفست الى أكثر القلوب المسيحية اخلاصا ، واشدها استمساكا بالايمان وحرصا على العقيدة دون ان يبدو لها ما فيها من تناقض مع العقل السليم ، والمنطق السليم (٢)

سلط الغرب افكاره على العالم كله ، ومنها العالم الشرقى الذى بدأت تغفل فى مجتمعاته وبيئاته ، وطالما كان الاجتياح مقصورا على انشئون المادية من الحياة محصورا فى الامور العملية من الوجود ، لم يكن الخطر داهيا ، ولا الدمار محققا ، ولكنه بدأ يتغزو الارواح والنفوس والعقائد والقلوب ، فقد سلط الغرب على الفرد المسلم او « الانسان » فكرا وعادات وعقائد غريبة عنه ، محاولا بذلك تحطيم المفهوم الحقيقى للانسان المسلم والمجتمع الاسلامى ، لكى ينشأ افرادا يكفرون بالاسلام والمجتمعات الاسلامية ويعملون على هدمها .

فالاسلام دين دعوة الى الحياة بنص القرآن الكريم ، نقد جاء فيه قوله تعالى « يا ايها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » (٣) .

وهكذا انفرد الاسلام بطابع دعوة الى الحياة ، ولكنها حياة تقوم على اساس جديدة تكفل الامن والسلامة لجميع بنى الانسان ، فكما ربطنا

(١) محمد غلاب « الاسلام من خلال مبادئه التأسيسية » ص ١٩ .

(٢) محمد غلاب « المرجع السابق » .

(٣) سورة الأنفال : آية ٢٤ .

ما بين دعوة الاسلام وبين مشكلات الحياة التي يعاينها الناس . وجدنا حلولا علمية تضمن لهم حياة انسانية كريمة ، وآمنة .

وكما أغفلنا هذه الصلة ما بين دعوة الاسلام ومشكلات الحياة التي يعاينها الناس ، فقد ابتعدنا عن روح الاسلام .

وانه مما يلفت نظر الدارس لتاريخ الحضارات العالمية المقارن هو ان جميع النهضات المادية في التاريخ — كما هو شأن النهضة في عصورنا الحديثة — وقد تكشف في عز سلطانها عن مشكلة واحدة مشتركة وهي انها هدفت عملا بمبادئها ونظمها الى جعل فئة قليلة من الناس امة من الامم تتحكم في مصير لقمة غيرها من الجماهير والامم ، وفي مصير امنها وسلامتها ، وذلك بما اقتصت به تلك الفئة القليلة او الامة الغالبة نفسها من امتيازات خاصة وحق الوصاية على الغير بما لا يتفق مع مبادئ الوحدة الانسانية ، ولا مع القواعد الاخلاقية ، ولا مع الحقوق الطبيعية . ولكن نهضة واحدة ظهرت في القرون الوسطى ، وهي النهضة الاسلامية الانسانية شذت عن ذلك ، وكانت وحدها بكل مبادئها وقواعد نظامها قائمة على محاربة هذا التحكم بجميع اشكاله والوانه . واستنت نظاما اجتماعيا جديدا يقوم على فكرة الاخاء والتضامن .

والسائد الآن في العصور الحديثة هو انتشار الحضارات المادية التي تحاول ان تقضي على الانسان وتحوله الى آلة ، وتدمر خصائصه فهي تعامله بالماكينات الآلية وبالمقاييس الحيوانية التي امكن دراستها في عالم الحيوان (٤) .

الى جانب ذلك نجد الانسان الان أصبح جاهلا بدوره الذي رسمه الله سبحانه وتعالى في الحياة ، والمعيشة وفي كيفية استقلال طاقات الحياة وكنوزها كلها في التعمير والتنمية والارتقاء ، وفي ان يضع لنفسه نظاما شاملا لجوانب حياته كلها ، يتناسب مع طبيعته وخصائصه ، ويحتفظ بها جميعا في حالة تجدد ونمو وازدهار .

(٤) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٧ .

معنى ذلك أن هذا الإنسان يحتاج قبل كل شيء إلى تقيم بينيه ، وإلى تمسك تام بالشرعية السماوية حتى لا يخرج بحضاراته عن الهدف المقصود منها وحتى لا يجعل من تلك الحضارة أداة تدمير تدمره ، معنويا وجسديا .

معنى ذلك أيضا أن المؤمنين يستطيعون — إذا تحررت عقولهم من أى أفكار هدامة تخرج تحت اسم الحضارة والمدنية — أن ينشئوا أروع الحضارات ، وأن يستلهموا سر الحكمة من الله خالقهم ، وخالق الأكوان ، وأن ينهضوا برسالتهم الكبرى فى الحياة .

على الإنسان أن يقدس نفسه كأنسان خلقه الله سبحانه وتعالى ونفخ فيه من روحه وأنه قد تحول بهذه النفخة القدسية من روح الله إلى كائن عظيم ، له قداسته ومنزلته تسجد له الملائكة بأمر الله ، وسخر له الكون كله (٥) قال تعالى « نذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين : فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (٦) .

فالإسلام قد رفع الإنسان إلى أعلى منزلة وكرمه أعلى تكريم ، وجعله من روح الله ، فهل هناك منزلة أعلى من ذلك .

الى جانب أن الإسلام يؤكد انسانية الإنسان ، ويرتفع بها فوق حيوانيته ، ويؤكد بالتالى القيمة العليا للإنسان فى الوجود كله ، ويؤكد أن مافى حياة الإنسان من دين وعلم . وما للإنسان من حواس وإدراك ، وما لجماعته من تاريخ هو مجموعة مناسقة من طرق المعرفة تنتهى الى غاية واحدة هي سعادة الإنسان .

وعندما لاح نور الإسلام ، وانشأ فى أرجاء العالم أجمع ، حمل معه حضارة ذات خصائص معينة ، كل جانب من جوانبها يعمل على سعادة الإنسان ورخائه ، وعلى تطور عقله وعلمه ، وعلى احترام آدميته ، وعلى أرضاء الله جل وعلى خالقه ، فكانت هي الحضارة الغالبة والسائدة .

(٥) توفيق سبيع « تقيم حضارية فى القرآن الكريم » ص ٩٥ .
(٦) سورة ص آية ٧١ ، ٧٢ .

ولم تقتصر هذه الحضارة الاسلامية على خدمة الفرد المسلم فقط ،
ونسكنها ذاعت وانتشرت وشملت العالمين الشرقي والغربي ، فعندما بدا
الأوروبيون نهضتهم اعتمدوا اعتمادا كبيرا على الحضارة الاسلامية في
نمتى فروعها .

ولعل أهم جانب من جوانب الفكر هو المنهج التجريبي الذي يؤكد
العلماء الغربيون أنه ليس من صنع الغربيين ، ولكنه مأخوذ حصا
عن العلماء المسلمين .»

يقول بريغولت في كتابه « بناء الانسانية » ان روجر بيكون درس
اللغة العربية والعلم العربي والعلوم العربية في مدرسة اكسفورد ، على
خلفاء معلميه العرب في الأندلس وليس لروجر بيكون ، ولا لسميه الذي
جاء بعده الحق في ان ينسب اليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي ،
فلم يكن روجر بيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلاميين الى
أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة
العربية وعلوم العرب ، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة والنقاشات
التي دارت حول واضع المنهج التجريبي ، هي طرف من التحريف الهائل
لاصول الحضارة الأوروبية ، وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر
بيكون قد انتشر انتشارا واسعا ، وانكب الناس في لهف على تحصيله
في ربوع أوربا « (٧) .

وبعد ان انتقل المنهج الاسلامي الواقعي التجريبي الى العقلية
الأوبية ، اتجه الفكر الغربي الى البحوث العلمية التجريبية ، وبدا البحث
العلمي يكشف عن حقائق فلكية وجغرافية وطبيعية ، غير تلك المجموعة
من الأوهام والأساطير والخرافات التي تتبناها الكنيسة ، وتعتبرها حقائق
مقدسة ، وهي ليست من النصرانية في شيء ، وإنما هي مجرد أفكار —
غير علمية كانت شائعة في تلك الأزمان ولم ينزل بها كتاب من عند الله
فتبنتها الكنيسة ، ودافعت عنها بوصفها جزءا من العقيدة .

ولقد وقفت الكنيسة ، وقفة عنيدة في وجه هذا الاتجاه الجديد
المنبثق من منبع الثقافة الاسلامية في الأندلس وفي الشرق كذلك ، وتابلت

(٧) نسيب قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٣٥ .

سائج بحوث الطليعة من العلماء الأوربيين الذين استقوا من ذلك النبع بجفوة وعداء شديدين ، واستخدمت سلطاتها ضدهم بوحشية كان من جرائرها ذلك الشرود من الكنيسة وضمنا من الهها الذى تستطيل باسمه زورا وبهتانا ، ومن كل ظل للدين وللتوجيه الدينى (٨) .

لذلك ضاق المجتمع الأوربى ذرعا بالكنيسة ، وتطلع الى معرفة انقى وعلم أنفع ، فلم يكن بد أمام الأوربيين الا أن يعتمدوا على العقل وحده بعيدا عن أى دين ، لأن الدين فى نظرهم عدو للعظم والحرية والابتكار .

انطلق الفكر الأوربى مزهوا تياها بما أحرز من انتصار على الكنيسة فظن أنه يستطيع أن يبنى حضارته بعيدا عن دين صحيح ، يسبغ عليها السكامة ، ويحفظها من الانزلاق ويعصمها من الهبوط ، لأن الإلحاد هو الأب الطبيعى لكل المساوئ والآفات الحضارية ، ورغم ذلك فقد انطلقت الحضارة الغربية من نقطة الإلحاد لا تلوى على شيء ، ووصلت بهذا الى قمة التفوق المادى (٩) .

وعلى الرغم من أن العالم الغربى قد نجح فى إيجاد عالم صناعى مريح فيه كل ما يفتقر اليه الإنسان المتحضر من الكماليات ، الا أن القوم هناك فى غاية التوتر والقلق ، تغمرهم المشكلات الحساسة ، وتواجههم المتاعب القاسية ، وكأنها الإنسان فى ظل الحضارة قد اعتراه الملل وسئم الأجواء الصناعية المادية ، وتطلع الى لون آخر من الحضارة تفذى مواطنهم وتملا قلوبهم بالأمن والسكينة .

ولو تتبعنا الانعكاسات السيئة التى ترسلها هذه الحضارة لأعياننا الاستقصاء وتكنى وسائل التدمير والتخريب ، وكيف تستعمل فى ترويع الأمن والاعتداء على كرامة الشعوب ، يكفى ما أورثته هذه الحضارة أصحابها من غرور وصالف فقدت معه التوازن ، وتحيزت للظلم وضربت حركات الإيمان فى كل مكان .

ان الحضارات المسادية فى الشرق والغرب ، قامت على أساس

(٨) سيد قطب ، المرجع السابق ص ٣٦ — ٣٧ .

(٩) توفيق سبع « قيم حضارية فى القرآن » ص ١١٣ .

مناهج بشرية تدعى أنها تستطيع أن تلبى حاجات الانسان ا وضمن حياته،
وكانت نتيجتها شقاء وضلال ، لأنها حضارات قامت على جهل مطبق
بطبيعتنا وبحجبتنا وعواطفنا وخصائطنا .

وقد بدأ العالم الغربى يشعر بأزمة ضمير لأنه لم ينطلق بالحضارة
المادية الى افقتها الروحي النبيل ، فيتخذ منها وسائل لرضا الله .
ودعائم لتقوية الايمان ، وإنما اعتبرها فى ذاتها غاية ، فانفصل عن الله
تل الانفصال ، ولم يتجج فى تهيئة هذه الحضارة لخدمة الانسان ،
فاستبعدت هذه الحضارة المادية ضمير الانسان والفت ارادته . وبددت
مطامحه واشواقه ، وجعلته عبدا خاضعا لها لا سيدا مسيطرا عليها .

ومثل هذه الحضارة لا يمكن ان تنجح فى بناء مدنيات غائسة .
لكنها تنجح فى بناء امبراطوريات ضخمة ، تغرى بمظهرها فى حين
ان الباطن خواء لانها دعت الى تخلف الخلق عن العلم فى مضمار
السباق ، وبذلك باعت مثلها وقيمتها فى عالم الأرقام والكميات والحساب .
وصارت حضارة بلا ضمير ، وتلبى الحضارة المثالية الا ان تكون مزاجا
بين الروح والكم بين الغائبة والسببية ، حتى اذا حدث اختلال فى هذا
التوازن هوت المدنية الى الحضيض ، لانها تحيف على فطرة الانسان
ونصادم طبيعته التى جعلها الله مزيجا من المادة والروح .

لذلك غلابد على الانسان المؤمن ان يفجر بالعلم كل ينابيع الحضارة
ويضبط بالايمان مسارها فلا تنحرف أو تضل . وبهذا يتماثل الايمان مع
العلم فى تشييد صروح الحضارات ، ومن غير الايمان بالله : واتباع
منهجه وهواه يقل الانسان وتخطى الحضارة طريقها وتتصارع عناصرها
تصارعا يؤدى الى تدمير الحياة والاحياء « ومن اضل من اتبع هواه
بغير هدى من الله » (١٠) .

وهذه النتائج السيئة للحضارات المادية ليست نظريات للدراسة ،
وانما هى تجارب للذكرى والاتعظ والتدبير .

غالبه قد اهلك اما وافنى حضارات ودمرها على رؤس اصحابها
لانها قد ضلت طريقها ، واخطأت سبيلها حين رفضت ان تخضع لأمر
الله وتحقق منهجه وهداه « فمب عليهم ربك سوط عذاب — ان
ربك لبالمرصاد » (١١) .

وعندما طغت الحضارة المادية على اوريا بهذه الطريقة السريعة ،
فقدت اوريا معها دينها ، وضعف سلطان الدين نهائيا . ، ولذلك بداوا
ينظرون الى الامم الأخرى ليتوسعوا فيها ، وليصرفوا منتجاتهم بعد هذه
الانطلاقة الحضارية المادية ، ولينشروا فكرهم وآراءهم بين الشعوب
المختلفة .

ولعل أهم الشعوب التي ركز الغربيون النظر عليها هي الشعوب
الاسلامية لما بينهم من عدااء ديني ، ولما تتمتع به البلاد الاسلامية من
خيرات وموارد ، وموقع جذب انتباه الغربيين .

لذلك بدأت حركة استعمار الشعوب الاسلامية منذ القرن السابع
عشر الميلادي الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فتمكن
الاستعمار الغربي المسيحي من السيطرة سيطرة تامة على المسلمين في
وسط آسيا وشرقها ، واتخذ له نقطة ارتكاز رئيسية في افريقية ، كما
تمكن من مد نفوذه الى قلب العالم الاسلامي ومركزه الرسمي في منطقة
الشرق الأدنى ، وبذلك طوق العالم الاسلامي من الشرق والغرب ،
وسلط الاغبيه ودسائسه على بقية التجمعات الاسلامية الأخرى بين هذين
الطرفين ، فوهنت هذه التجمعات ، وانحل عقدها بسقط بعضها اثر
بعض تحت نفوذ المستعمر الغربي ، وما جاءت الحرب العالمية الاولى
وانتفضي اجلها حتى اصبح العالم الاسلامي كله تحت نفوذ هذا المستعمر .

وبهذا من هذا الموضوع خطورة تدفق سيل الاجانب على البلاد
الاسلامية وقيامهم بنشر الحضارة المادية بين صفوف المسلمين على
اساس من اضعاف العقيدة الاسلامية وتوهينها ، وتخريج جيل غير مؤمن
بالدين وبالرسالات السماوية .

(١١) توفيق سبع « قيم حضارية في القرآن الكريم » ص ١٥١ .

وبما يؤكد صحة هذه النظرية القتال الذي كنبه المستشرق الفرنسى « هانتوتو » يصف فيه المسلمين وعقيدتهم ؛ ويضع المقترحات الضرورية فى نظره لتوجيهه سياسة فرنسا فى مستعمراتها الاسلامية تحت هذا العنوان (١٢) .

« اخترق المسلمون انحاء آسيا شمال القارة الافريقية بسرعة لاتجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين ؛ ثم تراموا بها الى اوربا . ولسكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع اصلها الى اسيا بل اقرب فى الوصلة الى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم الا وهى المدنية الآرية المسيحية ؛ ولذلك اضطروا الى الوقوف عند الحد الذى اليه وصلوا . واكرهوا على الرجوع الى افريقيا حيث ثبتت اقدامهم احتسابا منعاقبة . ولكن لا يزال الهلال ينتهى طرفاه من جهة بمدينة القسطنطينية . ومن اخرى ببلدة غاس فى المغرب الاقصى معانقا بذلك الغرب كله .

« فى تلك البقعة الافريقية التى اصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة الفرنسية لمساغته — جاء القديس لويس الذى ينهى الى اسبانيا بوالدته — ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس ، وتلاه لويس الرابع عشر فى تهديده الامارات الافريقية الاسلامية . وعاد هذا الخاطر نابليون الاول . فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسيون الا فى القرن التسلسع عشر ، حيث اخنوا على دولة الاسلام التى كانت لاتنى فى متابعة الغارات على القارة الأوروبية . فاصبحت الجزائر فى ايديهم منذ سبعين عاما وكذلك قطر التونسى منذ عشرين عاما .

« ان قد صارت فرنسا بكل مكان فى صلة مع الاسلام ؛ بل صارت فى صدر الاسلام وكبدته ، حيث فتحت اراضيه ، واخضعت لسلطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الاولين ، وهى تدبر اليوم شئونونه وتجبى ضرائبه وتحشد شبابه لخدمة الجندية وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ومواطن القتال » .

(١٢) محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » ج ٢٨ — ٣١ .

نرى من هذا الموضوع أن هانوتو يرى أنه يجب على المسلمين أن ينتقلوا إلى الحضارة الأوروبية الآرية المسيحية ، ويجب على شعوب أوروبا المسيحية الآرية أن تتعاون فيما بينها على دفع الخطر الإسلامى الكامن ضمن الوحدة الإسلامية الفكرية والروحية

معنى ذلك أن الغربيين يعملون على إضعاف المسلمين فى إسلامهم أولا وحضارتهم ثانيا . ونملا استطاع الأوروبيون أن يدخلوا إلى البلاد الإسلامية كثير من المذاهب المسادية والفكر المادى الذى سبب لنا مشكلات حضارية كبيرة ، واغوى شبابنا ، مما يدعونا إلى البحث فى هذه المذاهب والأفكار لتحديد نوعية المشكلات الحضارية . أفكار فلسفية عقائدية مثل فلسفة هيغل والوجودية وأفكار اقتصادية وسياسية مثل التيار الشيوعى الماركسى ، والفكر الرأسمالى ، ومذهب الليبرالية الديمقراطية . وكل هذه الأفكار — كما سنبين فيما بعد — أدت إلى مشكلات حضارية فى المجتمعات الإسلامية ، وخلفت فى هذه المجتمعات أفرادا آمنوا بها — بحكم ضعف إيمانهم — وأفرادا قاوموها ودفعوها ، كما أنها أدت إلى نشأة حركات دينية لهدم مبادئ الإسلام — تحت اسم التقدمية — مثل حركة الأحمدية والقاديانية فى الهند ، والبهائية فى البلاد الإسلامية الأخرى إلى غير ذلك مما سنعرض له .

نظرية دارون

وسنبدا موضوعنا هذا ببحث عن نظرية دارون ، وكيف كانت سببا فى خلق مشكلات فكرية وحضارية عند الشعوب الإسلامية .

والحقيقة أن نظرية دارون تعتبر من أخطر النظريات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، وأوجدت مشكلات حضارية ، وعملت على بليلة الفكر الدينى ، إلى جانب أنها كانت بداية لموجة الألحاد التى سادت فى العصور الحديثة .

ولابد لنا أن نعطى فكرة عن دارون هذا ، فهو عالم بريطانى شهير ، له نظريات علمية من أهمها نظرية التطور والارتقاء ، وخلصتها « أن الحياة الأولى للإنسان والحيوان والنبات بدأت على ظهر هذه الأرض بجرثومة أو جراثيم قليلة تطورت من حال إلى حال تحت تأثير عوامل طبيعية حتى وصلت إلى هذه التنوعات التى نراها وعلى رأسها الإنسان .

وعلى هذا فإن الإنسان عندهم بسدات حيساته على ظهر الأرض بجرثومة صغيرة تحولت الى حيوان صغير ، ثم تدرج هذا الحيوان وارتقى الى حياة حيوانية بدائية ، فالى حيوانات اكبر ، فأكبر ريشيه ومجنحة ، ثم تحولت الى ذوات فقرات ، ثم ارتقت الى حيوان أشبه بالإنسان ، ثم كانت نهاية هذا التطور انسانا اول لا يعقل ولا يدرك ولا يتكلم . ثم انسانا كاملا ، وهو المشهود اليوم بمقتله وتفكيره وإدراكه . ويقولون ان هذه التحولات والتطورات والترقيات جاءت بعد صراع مرير بين هذه الكائنات وعوامل الطبيعة وتقلباتها ، وبين نفس هذه الكائنات الحية بعضها مع بعض عبر آلاف القرون من أجل البقاء (١٢) .

وجه الالتحاد فى هذه النظرية :

لابد من مناقشة الجانب الالحادى الذى حمل لواءه باسم هذه النظرية أرنست هيكل وأوبارين وقبلهما لامارك وغيرهم من مادييين وماركسييين استغلوا اهتمام الناس الشديد « علميا » بهذه النظرية واقتبالهم على الاعتناء بها ودراستها فصاروا يتخذون منها شركا يصطادون بوساطته صغار العقول من البسطاء الذين قل حظهم من الثقافة الدينية فيرمونهم فى هاوية الالتحاد ، وذلك عن طريق تفسيرهم لهذه النظرية تفسيراً يدخلون بوساطته « وباسم العلم » فى روع هؤلاء البسطاء المجردين من الحصانة الروحية والدينية أن واقع الوجود وطبيعة الكائنات الحية وتطورها، وتحول بعضها عن بعض ، واشتقاق بعضها من البعض الآخر ، كما هى « قواعد نظرية التطور والارتقاء » من انتخايب طبقي واصطناع نوعي يجعل من غير الضروري الاعتقاد بوجود خالق يتولى إدارة هذا السكون وتنظيمه لأن المادة — كما يزعمون — بطبيعتها وخصائصها الملزمة لها تقسوم مقاسم الخالق فى ذلك .

فالجناح الالحادى من انصار هذه النظرية يزعم أن الحياة الأولى جاءت نتيجة تفاعل طبيعى بين أجزاء من المادة ، هذه المادة التى يزعمون أنها كانت ولم تزل قادرة بطبيعتها على اعطاء الحياة ، ولهذا فهم ينكرون أن تكون الحياة من صنع قوة فوق الطبيعة .

(١٢) محمد احمد باشمى « الاسلام ونظرية داروين » ص ٢١-٢٢

فهذا الجناح الالهادى — عندما يتحدث عن مراحل التطور والارتقاء يخرج من حسابه قوة ما فوق الطبيعة « وهى القوة الالهية » لأن حالة المادة — بزعمهم لا تحتاج الى هذه القوة ، فالطبيعة ملازمة للمادة بحركتها الدائمة، هى التى تخلق وتبدع وتنوع وتطور وتصفى وتبيد .

بل انهم حاولوا أن يفسروا الطبيعة ويقولون ان ظهور الأحياء الى الوجود قديم بفضل الطبيعة مباشرة . وأن تنوع الأحياء ، إنما حدث بقوة الطبيعة اللازمة للمادة وعلى طريقة النشوء والتحول والارتقاء (١٤) .

ومنطقة الخطر فى نظرية التطور والارتقاء ليست هى كرتها لم تبلغ من الناحية العملية درجة الصحة واليقين . وإنما فيها يتولد عن الإيمان بها — فى محيط تحسار النظر وضعيفى الإيمان — من نزعات الحسادية وميول تحليلية وجودية تربط الإنسان بها على وجسه الأرض من غرائز حيوانية ، وميول بهيمية ، وتقطع صلته بما سواها على اعتبار أن الإنسان — كما هى نظرية دارون — فى الأصل حيوان .

ويذكر الأستاذ محمد تطب « ان العيب الرئيسى لنظرية دارون ليس فى الوقائع العملية التى بسطها فى كتبه ، وتابعه فيها أهوانه ومريدوه ، بقدر ما هو فى إحياءات تلك النظرية التى خلفت طابعها الخطر ، لا فى افكار الجماهير وحدها ، بل فى اتجاه العلماء كذلك منذ عهده الى العصر الأخير » (١٥) .

ومن أهم الاعتراضات التى وجهت لمذهب دارون ما كتبه الأستاذ محمد فريد وجدى فى « دائرة المعارف » (١٦)

١ — عدم مشاهدة أى ارتقاء من أى نوع كان فى الأحياء الأرضية من عهد الوف السنين .

٢ — عدم وجود الصورة المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب

(١٤) باشميل « الاسلام ونظرية داروين » ص ٢٦—٢٧ .
(١٥) محمد تطب « الاسلام بين المادية والاسلام » ص ١٩ .
(١٦) محمد فريد وجدى « دائرة المعارف » ج ٤ ص ٣١ .

التسلسل كأن يوجد مثلا حيوان ارقى من القرد رتبة واحدة وادنى من الانسان رتبة واحدة ايضا .

٣ — طول الزمان اللازم لحصول الترقى بين الاحياء : فان عمر الأرض كما قالوا لا يكفى لاحداث كل مايرى من هذه الاشكال المختلفة غاية الاختلاف .

وهناك راي آخر يدحض هذه النظرية يقول الاستاذ نديم الجسر : ان الحيوانات البحرية الدنيا هي باقية حتى اليوم ، على الحالة التي كانت عليها في ابتداء العالم ولم نجد انها تأثرت بناموس الارتقاء ، وان طوائف الاحياء الكبرى ، الدنيا منها والعليا ، وجدت منها آثار في اسفل طبقات الأرض ، فلو كان ناموس الارتقاء اكيدا لوجب ان يكون الاعلى منها كنزوات الفقرات في اعلى الطبقات واننا نجد كثيرا من الاجناس والطوائف قد كانت في العصور القديمة الاولى اكمل منها اليوم ، ونجد في الطبقات الأرضية بعض حيوانات نقيضة فوق حيوانات عالية جدا (١٧)

والمهم في نظرية دارون هذه انها اتخذت أساسا للمذاهب المسادية المختلفة والفلسفات التي سادت الغرب بعد ذلك ، فقد استندت عليها الشيوعية واستند عليها فرويد في نظريته الى غير ذلك من المذاهب الهدامة .

وقد حاول دارون في كتابه « اصل الانواع » ان يبين ان انواع الاحياء كلها ترجع الى اصل واحد او عدة اصول اوجدها الخالق ، وان الحياة سر يعجز كل البشر عن معرفته . معنى ذلك أن دارون قد اعترف بدون أن يدري — بأن لهذا الكون خالقا بل لقد صرح دارون نفسه بأن بحوثه الخاصة بنظرية التطور والارتقاء لا تستهدف الدعوة الى انكار الخالق، وليس فيها أى خطر على الدين (١٨) .

والمهم في هذا الموضوع — كما يرى الاستاذ العقاد — ان صاحبي مذهب التطور والارتقاء « داروين وولاس تلميذه من بعده » لم يستندا الى

(١٧) نديم الجسر « قصة الايمان » ص ١٦٥ .

(١٨) عباس العقاد « عقائد المفكرين » ص ٥٦ .

هذا المذهب في انكار العقيدة الدينية ، ولم يزعمها انهما يفسران سر الحياة أو سر الكون — واحداهما وهو ولاس — كان مؤمنا بالله وبحكمته في مخلوقاته والاخر وهو دارون كان يأبى أن يوصف بالالحاد ويؤكد في آخر أيامه أن الاستدلال بمذهب التطور على انكار الاله الخالق خطأ كبير .
وادعاء لاسند له من العلم ولا من التفكير الأمين .

هذا من ناحية موقف نظرية دارون الشخصي حيال مايفترية الملحدون من شيوعيين وغيرهم من ادعاء مفاده أن بحوث هؤلاء الأقطاب « حول التطور والارتقاء — تقوم على انكار الخالق سبحانه وتعالى .

أما من ناحية جوهر نظرية التطور والارتقاء ، فإنه بالرجوع الى قواعد هذه النظرية يتضح لكل ذى عقل منزه عن الهوى أنه ليس للملحدين في أي من هذه القواعد سند علمي أو برهان يعتمدون عليه لتأييد نزعتهم الإلحادية الداعية الى انكار وجود الله » .

بل أن بعضا من هذه القواعد إذا ما لمعن الإنسان فيه النظر يجد أنه لا يؤدي الى انكار الله تعالى وإنما يهد الإنسان بروافد من الإيمان بعناية الله ورحمته وحكمته (١٩) .

موقف الاسلام من نظرية دارون :

يجب علينا كمسلمين مؤمنين بالله وبكتابه وسنة نبيه أن نقف موقف الحذر وأن نحكم بالسكفر والخروج عن الدين على من قال واعتقد في :

١ — أن الحياة الاولى التي أشار اليها دارون في نظريته قد وجدت مصادفة وانها حدثت بغير قدرة الله وإرادته ، وانها تولدت من المادة نولدا ذاتيا — وأن كل أدوار التطور والتحول والارتقاء قد حدثت تلقائيا أي بغير قدرة الله وعلمه وإرادته كما زعم الآخرون بهذه النظرية من الملحدين أمثال لامارك وارنست هيكل وأوبارين .

٢ — ان يسلم القبائل بهذه النظرية ان الانسان الاول الذى كان يعقل ولا يدرك ولا يتكلم هو ابونا آدم عليه السلام؛ وهذا لم يرد فى كتاب دارون ولكن قال به من اقتنع بصحة هذه النظرية من علماء الغرب .

ان فى القول الاول انكارا لوجود الله سبحانه وتعالى ؛ وفى القول الثانى تكذيبا صريحا للقرآن الكريم ، لأن . ينفى قصة آدم وحواء — الوارد ذكرها فى القرآن الكريم — نفيا تاما يضاف الى هذا ان قصة وجود انسان اول لا يعقل ولا يدرك ولا يتكلم « كما هى قواعد نظرية دارون » هى قصة مبنية على الفرض والتخمين والظن ومن السفه ان ينفى الانسان خاصة المسلم — قصة آدم وحواء المذكورة فى القرآن الذى لا يأنىه الباطل من بيد يديه ولا من خلفه ليصدق قصة ليس لها أى ظل من الحقيقة، قصة أساسها الفرض والحدس والتخمين لا القطع واليقين (٢٠) .

بطلان نظرية دارون :

تميز الانسان — كما عرضنا من قبل — بخصوص لا توجد فى عالم الاحياء ، وهو الذى جعل « جوليان هكسلى » فى « الدارونية الحديثة » يتراجع عن الكثير من الدارونية القديمة التى قررها دارون .

يقول هكسلى فى كتابه « الانسان فى العالم الحديث » بعنوان تفرد الانسان .

« لقد تأرجح رأى الانسان كالخطر « البندول » فيما يتعلق بمركزه بالنسبة لبقيّة الحيوانات ، بين اعجابه الشديد أو التليل بنفسه ، تفصل بينه وبين الحيوانات هوة سحيقة جدا وحيناً آخر هوة صغيرة جدا » .

ويظهر نظرية دارون بدا الخطار « البندول » يتأرجح عكسيا ، واعتبر الانسان حيوانا مرة أخرى ، ووصل الخطار شيئا فشيئا الى أقصى مدى تأرجحه ، وظهر ما بدا أنه النتائج المنطقية لفروض دارون . فالانسان حيوان كغيره من الحيوانات ، ولذلك فان آراءه فى معنى الحياة الانسانية والمثل العليا لا تستحق تقديرا أكثر من آراء الدودة الشريطية أو كثرها

(٢٠) باشميل « الاسلام ونظرية دارون » ص ١٥٤ .

(م ١٣ — الاستشراق)

الباشلى ، والبقاء هو المتيساس الوحيد للنجاح التطورى . ولذلك فكل الكائنات الحية متساوية القيمة ، وليست فكرة التقدم الا فكرة انسانية ، ومن المسلم به ان الانسان فى الوقت الحاضر سيد المخلوقات ، يمكن سد ثل محله القطه او الفسار .

« ولم تصغر الهوة هنا بين الانسان والحيوان نتيجة المبالغة فى اعطاء الحيوان صفات الانسانية ، وانما نتيجة التقليل من الصفات الانسانية فى الانسان ، ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد سببه فى الغالب زيادة المعرفة ، واتساع نطاق التحليل العلمى .

« ان الخطار يتأرجح مرة ثانية ، وتتسع الهوة بين الانسان والحيوان مرة أخرى وبعد نظرية دارون لم يعد الانسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا ، ولكنه بدا يرى نفسه حيوانا غريبا جدا ، وفى حالات كثيرة لامثيل له . وتحليل تفرد الانسان من الناحية البيولوجية لم يبلغ تمامه بعد . وما هذا المقال الا محاولة لعرض مركزه الحالى .

« واول خصائص الانسان الفذه وأعظمها وضوحا قدرته على التفكير التصورى . ولقد كان لهذه الخاصية الاساسية فى الانسان نتائج كثيرة ، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة ، ومن أهم نتائج تزايد التقاليد او اذا شئت من أهم مظاهره الحقيقية مايقوم به الانسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات ، وان العدد والتقاليد لهما الخواص التى هيات للانسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية وهذه السيادة البيولوجية — فى الوقت الحاضر — خاصية أخرى من خواص الانسان الفذه ، وهكذا يضع علم الحياة « الانسان » فى مركز مماثل لما انعم به عليه كسيد المخلوقات كما تقول الأديان » .

« والانسان لا مثيل له أيضا كنوع مسيطر ، اذا تقسمت كل الانواع الأخرى المسيطرة الى المئات وآلاف كثيرة من الانواع المنفصلة ، وتجمعت فى اجناس ونصصائل عديدة ومجموعات أكبر ، اما الانسان فقد حافظ على سيادته من غير انقسام ، ولقد تم تنوع سلالات الانسان فى حدود نوع واحد .

« وأخيرا فإن الانسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره .

وللإنسان خاصية أخرى بيولوجية ، وهي تفرد تاريخ تطوره .
وأما خاصية الإنسان الجوهرية ككائن حي مسيطر فهي « التفكير المعنوي » (٢١)
معنى ذلك أن نظرية التطور والارتقاء التي قال بها دارون واخذ
بها الكثيرون نظرية غير ثابتة ثبوتاً قاطعاً لا من الناحية العلمية
ولا من الناحية الحسية .

وإذا كان دارون قد اعترف صراحة بأن الطريقة التي وجدت بها
الحياة الأولى على وجه الأرض لا تزال مجهولة حتى يومنا هذا . فإن جهله
بالطريقة التي تسلسلت بها الكائنات الحية ، وتنوعت « كما يزعم »
١٢٠ عن جهله بالطريقة التي وجدت بها الحياة ، يرسى على وجه الأرض ،
وكيف ومتى وجدت .

فالمتمع لما كتبه ونشره دارون عن نظرية التطور والارتقاء . يجد
أن دارون لم يبين هذه النظرية على أسس علمية قاطعة ثابتة ، لا يمكن
الرجوع عنها ، وإنما بناها على افتراضات وتقديرات وتخمينات
تحتل الخطأ والصواب .

فجميع الذين قالوا بنظرية التطور والارتقاء وعلى رأسهم دارون
يعترفون بأن هذه النظرية هي فرض علمي يعوزه الدليل الحسي ، بل أن
جوهر بحوث علماء التطور والارتقاء جميعها تشير كلها إلى أن أصول هذه
النظرية وفروعها هي من باب الافتراض لا القطع والتقدير لا التأكيد .
وإذا رجعنا إلى مكان مذهب التطور من العلم لانجد من يحسبه علماً قاطعاً
مفروغاً منه من أصوله وفروعه وأكبر أنصاره لا يدعى له أكثر من أنه
صحيح في بعض ملاحظاته ومقارناته (٢٢) .

(٢١) سيد قطب « الإسلام ومشكلات الحضارة » ص ٣٩—٤١ .

(٢٢) عباس العشاد « عقائد المفكرين » ص ١٢٠ .

ولعل من أخطر آثار فكر دارون ونظريته هو انهماك العالم الغربي بعد ذلك في البحث العلمى من هذا المنطلق المادى ، محاولين الاستناد على ما جاء بهذه النظرية ، بل محاولين تفسيرها على النحو والاتجاه الذى يرضيهم فى ضوء المسادية الحديثة .

وإذا اغمضنا الطرف عما فى هذه النظرية من مكامن الضعف ، ومواطن النقص من الوجهة العلمية والفعلية ، ونظرنا الى الفتن التى قد اثارها هذا التخيل البساطل لاهلاك الانسانية والفتك بها بعد أن دخلت الفلسفة والاخلاق والعلوم العمرانية والاجتماعية . فلعل أحدا لا ينكر أن نظرية دارون هذه قمة النظريات التى ناصبت الانسان العداء ، وعملت للقضاء على انسانيته ، فقد حاولت أن تجعل الانسان يعتقد أنه ليس الا حيوانا كسائر الحيوانات ، ومن نتائجها أن بنى آدم لا يتعاملون فيما بينهم الا كما يتعامل الوحوش فى الغابة ، ومن تأثيرها أن الانسان بدلا من يستمد القوانين والمبادئ لحياته من المصادر السامية انما يبحث عنها فى حياة البهائم والوحوش . وهى التى عرضت على الانسان نظام الحياة كميدان للصراع والقتال ، وأن من يبدى قوته وجدارته فى هذا الصراع يستحق الحياة . ومن نتائجها أن الأمم والشعوب جعلوا الدنيا ميدانا للتنازع والصراع ليس مقتضى الفطرة ولكن لأن القوى من حقه أن يبيد الضعيف (٢٣) .

نظرية فرويد وأثرها على الحضارة الإنسانية

اثرت نظرية فرويد فى الجنس تأثيرا خطيرا على الحياة الاجتماعية فى أوروبا والشرق فقد أدت نظريته فى العقل الباطن ، وفى التفسير الجنسى لمختلف نواحى سلوك الانسان الى انقلابات خطيرة .

وترجع خطورة نظرية فرويد الى اصرار زج الجنس فى كل مجالات النشاط الحوى للانسان ، وقيل فى هذا الصدد أنه تأثر بدراسة الشواذ الذين كان يفحصهم ، ثم أخطأ فى تعميم احكامه المستقاة من حالات شاذة على بقية البشر الاسوياء .

(٢٣) أبو الأعلى المودودى « الاسلام فى مواجهة التحديات » ص ٢٥.

ولكن النقد الاول الذى ينبغى ان يوجه الى فرويد فى أساس
نظرته الى الانسان على انه كائن ارضى بحت ، لا يرتفع بمشاعره .
وعواطفه من عالم الأرض الا فى حالات الشذوذ (٢٤) .

ولعل نظريته هذه اتخذها من نظرية دارون السابقة الذكر التى تنظر
الى الانسان على انه مخلوق ارضى عائله كله محصور فى هذا النطاق
الضيقر الغريب .

وتأثر فرويد بدارون من ناحية أخرى حين تابعه فى قوله ان غرائز
الانسان هى الامتداد الطبيعى لغرائز الحيوانات السابقة فى سلم الصعود
مضافا اليها قدر من التطور ، هو القدر الذى نتج من الظروف التى صادفت
الجد الأعلى للانسان فاثرت فيه ، وانتجت منه الكائن البشرى على مر
الايام . فالنظرة الحيوانية للانسان ان كان يصلح تطبيقها فى علم الحياة .
من الخطأ ان تطبق كما هى فى علم النفس لانها تؤدى الى نتائج
بعيدة عن الصواب .

ونظرية فرويد التى وجدت فى كتاب
The Contribution to Sexual Theorg
تؤدى الى أن الغريزة الجنسية هى التى تحرك
الحياة كلها ، وهى تبع المشاعر البشرية جميعها بلا استثناء ، كما انه يؤكد
ان الحضارة كلها نائشة من الغريزة الجنسية ، وعلى هذا النسق من
التعسف والسخرى يجرى فرويد فى تفسير السلوك الانسانى كنه على
صوء الجنس ، وما يحتاج الانسان لكى يؤمن بقوة الدافع الجنى وتعمقه
ان يصل الى كل هذا التعسف (٢٥) .

والدين فى رأى فرويد اختراع محض خلقتسه الرغبات البشرية
المرموسة لكى تجد جنة خيالية لحركة حرة من غير عائق ، وهم يقولون
ان العقائد والاراء الدينية ليست شيئا أكثر من نظريات بدائية عن الطبيعة
حاول البشر استخدامها فى تخلص الحقيقة من بشاعتها الأصلية واظهارها
فى صورة اقرب الى هوى القلب مما تسمح به حقائق الحياة ، أما ان

(٢٤) عبد تطيب « الانسان بين المادية والإسلام » ص ١٦ .

(٢٥) المرجع السابق ص ١٦٨ .

هناك أديانا وصورا من الفن تهيئ لنا نوعا من الفرار المزرى من حقائق الحياة ، فأمر لا انكره وكل الذى أجادل فيه هو أن هذا الحكم لا يصدق على الأديان كلها ، فالفقائد والآراء الدينية لها من غير شك اشارة ميتافيزيقية (٢٦) .

هذه هي الآراء المادية التى نادى بها فرويد ، والتى أخذ بها الغرب واعتقدوا فيها ، وبذلك أخرجوا الإنسان من الوضع الكريم الذى رسمه الإسلام ، ووضعته فيه حضارة الإسلام ، وجعلوه يتردى الى أسفل الدرك فى صورة بهيمية حيوانية ، فهو يجرى وراء شهواته بدون ضابط ، وبدون نظام ففى هذه الحالة لا ترى هناك فرقا بين الإنسان والحيوان ، فالإنسان الذى ميزه الله سبحانه وتعالى بالعقل ، ووضع له الأسس والقواعد يترك ذلك ليسير وراء شهواته فيعيش الإنسان فى مجتمع الغابة .

أن هناك وهما سارخا يستولى على أفئدة الناس فى الغرب ويتسلسل الى المستعبدین فى الشرق فيملأ مافى نفوسهم من تهاهة وفراغ ، انهم يظنون أن العظمة العلمية تستتبع حتما أن يكون الإنسان كله قد ارتقى ، فلا بد إذا أن تكون الأخلاق والعادات والتقاليد الموجودة فى عصر الذرة أفضل من مثيلاتها فى العصور السابقة ، التى لم يكن العلم فيها قد وصل الى هذه الاسرار ، وما دام الناس لا يؤمنون بالله ولا يتبعون قواعد الأخلاق ، ويستباحون الفوضى الجنسية . وينكرون التيم العليا ويعتبرونها خرافة ، فلا بد إذا أن يكون هذا كله هو السدمار الحقيقى للإنسان والإنسانية (٢٧) .

ذیوع نظرية هيغل :

من الضلالات الكبرى التى تدفقت مع الحضارة الغربية على الإنسانية ، وسببت للعالم الإسلامى مشكلات حضارية ضخمة ، ترجع بعضها الى الفلسفة التى وضعها هيغل للتاريخ ، وأسس على مقدماتها كارل ماركس بناء تفسيره المسمى للتاريخ فيما بعد وهيغل هذا فيلسوف المانى ظهر فى أوربا فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ،

(٢٦) محمد البهى « الفكر الإسلامى الحديث » ص ٣٨٦ .

(٢٧) محمد قطب « المرجع السابق » ص ٢١٨ .

وكان يشغل أستاذا لسكرسى الفلسفة فى جامعة هايدلبرج سنة ١٨١٦
ثم فى جامعة برلين سنة ١٨١٩ (٢٨) .

وخلاصة فلسفة هيغل للتاريخ « ان مايحصل فى الحضارة الانسانية
من تطور وارتقاء انما يحصل بظهور الاضداد وتناطحها وتمازجها فيها بشيء
وان كل دور من ادوار التاريخ فى حد ذاته وحدة او كائن جسمى حى .
وان مختلف نظريات الانسان من سسية واقتصادية ومناسبة ومناخية
وعلمية وعقلية ودينية تكون على مستوى معين فى ذلك الدور ويكون بها
التناسب والتلاؤم والوحدة المتناسكة : كأنها جوانب مختلفة لىذا الكائن
الحى ، او الوحدة الزمنية تسرى فيها روح الدور بكامله .

وان المبادئ والنظريات والأفكار الانسانية التى تقوم بالنوحيه
فى هذا الدور عندما تصل بالحضارة الانسانية ومدنيها الى قمة الطائفة
والصلاحية ينبثق من حضن هذا الدور نفسه عدو الذى يترعرع فيه .
ويأتى اشده أى ان طائفة اخرى من الأفكار الحديثة والميول الحديثة
والنظريات الحديثة والمبادئ الحديثة لا تتولد الا من المقضى الطبيعى
لهذا الدور الآخذ فى الزوال نفسه ثم نشرع فى محاربة الافسار البالية
القديمة » .

يستمر الصراع على قدم وساق بين القديم والجديد الى ما لا
الزمان ، وفى النهاية يحصل التمازج بينهما بعد الاخذ والرد . ويخرج الى
حيث الوجود حضارة عصرية جديدة فخلطة من عناصر قديمة واخرى جديدة .
وهكذا يفتح الدنيا دور جديد من ادوار التاريخ .

ثم عندما ترتقى روح هذا الدور الجديد فى اعلى مدارجها على غرار
الدور الذى سبق يظهر من حضنها أيضا عدوها ، وينشب الصراع الدائرى
الذى يتمخض عنه أيضا خليط جديد مكون من عناصر من هذا وعناصر من
ذاك ، وبعد الاخذ والرد يصير روحا لدور جديد للحضارة والمدنية (٢٩) .

(٢٨) عبد الفتاح الديدى « فلسفة هيغل » ص ٦٤ .

(٢٩) أبو الاعلى المودودى « الاسلام فى مواجهة التحديتات »

وهذه العملية للارتقاء هى التى يعبر عنها هيجل حسب اصطلاحه بالعملية الجدلية فمكان مجال التاريخ . وحلبة الدهر تجرى فيها — فى نظره — مجادلة منطقية متسلسلة وبموجبها يقوم اولا الدعوة ثم يبرز صدها جوابها ، وبعد ان يطول بينهما الصراع فان المعتل الكلى او الروح العالمية تعتد بينهما الصلح اى تقبل شيئا من هذا وجانبها من ذلك وتجعل منهما مزيجا . وهذا المزيج الحضارى عندما يتقدم قليلا يتحول الى دعوى ثم يواجه هذه الدعوة جوابها ، ثم ينعقد بينهما الصلح بعد نشوب النزاع بينهما مدة ، ويأتى الى حيز الوجود مزيج جديد وهلم جرا . .

فالعملية الجدلية بموجب نظرية هيجل عملية اجتماعية كلية . وبعبارة أخرى ان الحضارة الانسانية بكل شعبها وغروعا فى كل عصر من عصور التاريخ بمثابة جسد حى او كائن حى ، وليس الأفراد او الطوائف الا بمثابة اعضاء او أجزاء لهذا الجسد فعلى هذا لا يمكن لفرد من الأفراد او لطائفة من الطوائف ان تتحرر من طبيعة عصرها الجماعية او من الروح العامة لمدنية عصرها وحضارته ، فكل انسان مهما كان كبيرا ، ومن المع الشخصيات التاريخية وأبرزها ، ليس فى هذه اللعبة الجدلية او الصراع الكلى الداخلى الا بمثابة قطعة من قطع البنيق فى لعبة الشطرنج (٢٠) .

والواقع ان خطورة هذه الفلسفة الهيجلية على المدنية الحديثة وعلى الانسانية ترجع الى انها قد جعلت وجهات نظر أهل العلم فى العصر الحاضر عن الدين والأخلاق والحضارة والاجتماع خاطئة من حيث الأساس والمبدأ ، والذين اقتنعوا بهذه الفلسفة سيطر عليهم أمران اثنان .

١ — ان الحضارة بجمالها فى كل عصر من العصور التاريخية وحدة ، وان كل ما يوجد فى عصر من العصور من الأخلاق والقوانين والدين والعلم والفلسفة والعلاقات الدولية انما هو فى حقيقة الأمر مظاهر متنوعة للطبيعة الاجتماعية او الروح العالمية لذلك الزمان .

٢ — ان أى مدنية من مدنيات الانسان عندما تتضخم وتتبلور وتبلغ ذروة كمالها فان طائفة جديدة من الميول والأفكار والنظريات والتصورات تبرز الى الوجود من بطن تلك المدنية نفسها وتشرع فى محاربة الأفسكار

والنظريات القديمة التي تخرج الى المسرح مدنية جديدة يبقى فيها كل ما في المدنية القديمة من العناصر الصالحة ، وتحل محل العناصر غير الصالحة عناصر غالبه من الأفكار والميول والنظريات الجديدة .

ووجه الخطورة على الاجيال الاسلامية من انتشار هذه الفلسفة وغيرها يرجع الى :

١ — ان هؤلاء لا يعترفون بالحضارات القديمة ، ولا يعترفون بأدوار الأنبياء والرسل .

٢ — تصورهم ان كل ما يوجد في عصر خاص من عصور التاريخ من الأفكار والتصورات الدينية والخلقية والقانونية ولد من النظام الاقتصادي الراجح في ذلك العصر .

ومعنى ذلك انه كلما تغير اسلوب انتاج وتوزيع اسباب المعيشة للانسان فلا بد ان يصاحبه التغير الشامل في الدين والأخلاق والقانون . وهذا لا يتفق مع ما جاءت به الشرائع السماوية .

٣ — سيطرة الفكرة التي نادى بها هيغل على عقول الشباب وهي « ان الانسان في مسرح التاريخ ليس الا ممثلا لا شعور له ، لا اختيار ولا ارادة له ، وان الله هو الذي يطرح الأفكار المتعارضة على بساط المسرح بواسطة الناس ويجعلهم يقتتلون أولا ، ثم يعتقد بينهم الصلح ، ويحدث فيهم صورا جديدة للفكر والخيال ، فهذا ايضا قياس فاسد لا اساس له من الصحة ، ولا تؤيده حقيقة علمية .

معنى ذلك انهم نفوا عن الانسان الارادة والعقل التي خص الله بها الانسان عن بقية مخلوقاته ، ورفعوه عن مرتبة الحيوان ، وانه دعا الى أعماله دائما للتفكر والتدبر لمعرفة عظمة الله عز وجل وقدرته ونعمه على عباده وللتمييز بين الخير والشر » (٣١) ولو أن هيغل قد درس القرآن الكريم ، لما لقي في فهم حقيقة الانسان وادراك التسانن الأساسي لارتقاء المدنية الانسانية من المعثرات ما قد لقي باللجوء الى الظن والتمسك

(٣١) صلاح الدين المنجد « الاسلام والعقل » ص ٥٩ .

بأذبال التخمين ، لأن ماقد يتقدم به القرآن من علم الانسان وفلسفة التاريخ
يحل بصورة صحيحة ، وبأسلوب مقنع جميع تلك المسائل التي قد ارتبك
فيها هيجل وغيره من فلاسفة الغرب (٣٢) .

فلا بد على الشباب المسلم ، الا ينجرف وراء هذه الفلسفة الجاهلة
التي تخرج الانسان عن دائرة انسانيته وتجعله عبدا لحيوانيته ، وما بالناس
لو وجدنا حضارتنا قد امتزجت بها افكار هدامة مثل هذه ، وجرى وراءها
كثيرون ممن لا دين لهم ، فسئرى ان الفساد والانحلال والجرائم الخلقية
ستزيد وتنتشر نتيجة لانتشار الدعوة الى سيطرة بهيمية الانسان
على ارادته وانسانيته .

ان الدين الاسلامي وحضارته يرفضان هذه الافكار لأن الله سبحانه
وتعالى وهب الانسان مواهب مختلفة من العقل والوعى وقوة اكتساب
العلم والرأى وجعل له غرائزه ليستخدمها وقتما يشاء ، وعليه ان يطوعها
لارادته لا يجعلها تسيطر عليه ، لأن الله اعطاه طريقين طريق الخير والشر
« وهديناه النجدين » ، وطلب منه ان يميز بينهما ، فصور له سبل كل
طريق من هذه ، وعاقبة السير فيه وله ان يختار .

الوجودية وأثرها على الحضارة الإسلامية :

الفلسفة الوجودية هي فلسفة الذات الانسانية المتفردة دون ارتباط
بغيرها من الذوات ، وهي في واقع الامر ليست فلسفة ، ولسكننا لانجد
لها اسما في الواقع يمكن ان يعبر تماما عنها فنستعير لها كلمة فلسفة .

ومن اهم من نادى بالوجودية في الغرب كير كجارد ، وهيسدجر ،
وسارتر .

والوجوديون لا يقيمون وزنا للقيم التي تربط الانراد بالمجتمع ، ولا
يحتفلون بما يوحى به العقل النظام مالم يكن ذلك فقط متفقاً مع أهوائهم

(٣٢) المودودي ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

بمصادفة ، انما العبرة عند الوجودى الامسيل بالتجربة الشخصية
والمعاناة الذاتية .

ومن هنا ننشأ فكرة اللادينية . اذ الوجودى لا يعترف بشئ غير
مرئى وغير محسوس ، غير واضح فى نفسه فالقواعد والتقاليد والنظم
والاديان هى افكار متالية وتشريعات وتوجيهات لم يضعها الوجودى .
ولم يساهم فى وضعها فهو لا يعترف بها (٢٢) .

والوجودى لا يلتفت الى الورا لينظر ما خلفه السابقون ، ولا يربط
نفسه بأفكارهم والدين عندهم خرافة لانه نسيج من الاتجاهات العقلية او
الغيبية يجب ان تؤمن بها ولو لم تحسها فى نفسك . وليس معنى هذا
ان الوجودية تستقط عالم الفكر من حسابها وانما لها فى ذلك منطقها الخاص .
فبئسما نجد الفلاسفة يجعلون الفكرة سابقة على الوجود اذا بالوجودى
يجعل ذاته قائمة اولا ومنها بعد ذلك تثبى الاتجاهات الفكرية وقد تسربت
الفكرة الوجودية الى كثير من النفوس التى عانت بعد الحرب العالمية
مراغا روحيا هائلا ونهض الذين قضى عليهم ان يستأنفوا الحياء من تحت
انتقاض عالمهم وهم يمسحون عن وجودهم غبار الانهيار الذى انهارت معه
اعصابهم . فاصيبت القيم المعنوية .

وكان لابد لكثير من الناس ان يجد له راحة يصنعها بنفسه يستمد
منها فلسفته الجديدة ، فبرزت الوجودية من مخبئها القديم . ووجدت
مرعاها الخصب فى اوساط الشباب .

وقد ساعد على ذلك عجز رجال الدين الذين لم يتمكنوا من الوقوف
امام هذه الافكار وقد بدات تنتشر هذه الافكار الى الاوساط الاسلامية فى
صور ادبية فى قصص ومسرحيات وروايات عالمية من اهمها ماكتبه سارتر
والبير كامو . فانتشرت هذه الافكار الشاذة التى تدعو الى الاباحية
فى كل شئ .

وهى تدعو الى الحرية التى ماهى الا عملية عزل مسنن وانفصال

(٢٣) محمد لبيب البوهى « الوجودية والاسلام » ص ١٨ .

عن المجتمع الانساني وما دامت الوجودية ترى أن الانسان مقضى عليه حتما بالفشل والخسران وأن الوجود نفسه باطل الإباطيل ، فما معنى هذه الحرية التي تنادى بها الا أن تكون دعوة الى ممارسة الانحطاط باعتباره الصفة اللازمة للوجود (٣٤) .

وحينما نسلط بعض أضواء الاسلام على الوجودية انما نعنى بذلك العقيدة ، فالاسلام رمز للعقائد السماوية ، وبينما يعمل الوجودى على تنقيت المجتمع ونسف تجمعاته ليذهب كل فرد فى طريقه نرى أن العقيدة الدينية تعمل على تجميع القوى الفردية ، فالوجودية تدعو الى الفردية والدين الاسلامى يدعو الى الجماعية والتضحية فى سبيل الغير والتعاون وانكار الذات .

فالوجودى عدو اله ، والذي يعسدى الله ، انما يمسدى كل شيء حتى نفسه .

الماركسية الشيوعية كمشكلة من مشكلات الحضارة :

اكتسب الاعلام الشيوعى منذ السنين الاولى للثورة الحمراء قدرات لم تعرف من قبل ، اذ أصبح قوة مؤثرة فى صنع الفكر وتوجيه الحركات الثقافية فى انحاء العالم ، ويكفى للتدليل على حجم هذا الاعلام ماورد فى احصاءات الأمم المتحدة اخيرا من أن الاتحاد السوفيتى يمثل المركز الاول فى انتاج الكتب اذ يصدر يوميا ٣٧٠.٠٠٠ كتاب أى ما يوازى ربع انتاج العالم ، ويبلغ ما تنتجه المطابع السوفيتية فى الدقيقة الواحدة ٢.٥٠٠ نسخة ، ولعل فى هذه الأرقام مايكفى بل مايصرح بالمراد . ونجاح الاتحاد السوفيتى فى ادراك هذا المستوى العالمى من الانتاج يعود انى ما نقرر خلال الايام الاولى لقيام الثورة ، فقد أصدرت الحكومة فى

(٣٤) محمد لبيب البوهى « الرجوعية والاسلام » ص ١٠٤ .

١٩١٧/١٢/٢٩ م مرسوما حددت فيه مبادئ ونظم نشر الكتاب (٢٥) .

ويعتقد الشيوعيون أن الصحافة والكتب من أهم وسائل الثورة الثقافية أو بتعبير آخر من أهم وسائل الانقلاب الفكرى الذى ينشدونه ، ولا شك أن الكتب والرسائل المؤلفة بذكاء من أمضى الأسلحة فى القضاء على الافكار والنظرات المعارضة ، وبث الآراء والتصورات الماركسية .

وتقول الأرقام : ان عدد الجرائد فى الاتحاد السوفيتى ٧٩٣٧ ، ويبلغ مجموع النسخ من كل طبعة ١٢٠ مليون ، ويصدر منها فى العام الواحد ٢٦ مليار ، ٦٥٥ مليون نسخة ، اما عدد المجلات فقد بلغ ٤٧٠٤ ، يصدر منها فى كل طبعة ١٣٢ مليون نسخة ، ويدهى أن هذا الانتاج الضخم يتوزع على روسيا وغيرها من المؤسسات الشيوعية فى أرجاء العالم ، وهو يطبع باللغات المحلية واللهجات الوطنية (٣٦) .

ولابد لنا أن نعطى فكرة عن ماهية الشيوعية الماركسية ، وكيف استطاعت أن تنشر فكرها فى العالم حتى أفقدته مثله ودينه وتاريخه بل آدميته .

قامت فلسفة كارل ماركس — وهو يهودى روسى — على أساس الفسك المادى التاريخى وقد أسس عليها حتمياته فى التغير الاجتماعى ، كذلك التبشير بالحكومة العمالية العالمية، وديكتاتورية الطبقة العاملة، وبالمجتمع الانسانى عديم الطبقات .

وتعود فلسفته الى الفكر المادى التاريخى ، لأنها تستخدم تاريخ المجتمع البشرى — كما يدعى — فى علاقة هذا المجتمع بالاعتقادية «المادة» وتقنن تبعا لذلك قوانين اجتماعية يخضع لها المجتمع فى مستقبله وتطوره.

(٣٥) محمد الغزالي « قذائف الحق » ص ١٣٩ ، نقلا عن ابراهيم دسوقي اباظة « رسالة عن المخطط الشيوعى » .

(٣٦) المرجع السابق .

ويعلق زعيم من زعماء الشيوعية على ذلك بقوله « ان على حزب طبقة العمال الا يقيم اعماله على مبادئ العقل البشرى المجردة ، ولسكن بقيمتها على الاحوال المقررة للحياة المادية للمجتمع باعتبارها القوى الفاصلة للارتقاء الاجتماعى » (٣٧) .

ويقول انجلز من زعماء الماركسية « ان العالم المادى ندركه بحواسنا ، والذى نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة . وليست المسادة من انتاج العقل : بل ان العقل ماهو الا اسمى انتاج للمادة . ويذهب الى ان العالم بطبيعته مادى والظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على اشكال مختلفة من المسادة فى تحرك وارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من حاجة الى الروح الشاملة ، فهناك ايمان بنظرية النشوء والارتقاء التى قال بها دارون ، ومن ثم فهناك انكار لوجود الله » (٣٨) . .

ومن هذه النظريات نرى ان الاقتصاد او المادة هو المحرك للمجتمع فى تغييره وللأفراد فى تطورهم الفعلى ، وفى التأثير فى مجرى حياتهم ، كما تأخذ من احداث التاريخ فى ماضيه دليلا على هذا الربط بين التغيير الاجتماعى والوضع الاقتصادى ومصدرا ايضا للتنبؤ ، او الحتمية كما يذكر ماركس — بما سيكون عليه المجتمع الانسانى فى غده تبعاً للتغير الاقتصادى (٣٩) .

فطالما كان هناك فى الماضى مجتمع يملك مصادر الثروة فيه شخص واحد هو المالك المطلق ثم تحولت الى ملاك عديدين هم اصحاب القطاع فى

(٣٧) فؤاد شبل « الدستور السوفيتى » ص ٢٨ .

(٣٨) احمد جمال الدين « نقد النظرية الماركسية » ص ٣٣ .

(٣٩) محمد البهى « تهافت الفكر المادى التاريخى بين النظرية والتطبيق » ص ١٣ .

الأراضي الزراعية الذين يكونون في مجتمع الاقطاع ، ثم تحول مجتمع هؤلاء الى مجتمع رؤوس الاموال في الصناعة ، فسلابد ان يتحول مجتمع اصحاب رؤوس الاموال الى مجتمع آخر يغيره تماما ، وهو مجتمع عمال الصناعات .

ان السبب في تحول المجتمع هو مبدأ النقيض ، اي وجود تناقض بين الشيء ونقيضه وهذا مايدعوا حتما الى انتقال الشيء الى نقيضه .

فمجتمع الملك المطلق كان ومعه نقيضه ، وهو الآخرون الذين لا يملكون شيئا مما يملك ، فتحول الى مجتمع هؤلاء الآخريين المعدمين بسبب العداء بين النقيضين ، والصراع بين الطرفين (٤٠) .

وقد عملت الماركسية على تحقيق هدفها بالوسائل التالية :

١ - الملكية الجماعية لوسائل الانتاج الثلاث : الأرض - رأس المال - العمل وتحريم الملكية الخاصة لهذه الوسائل .

٢ - محاربة الفردية بجميع خصائصها ، وعدم الاعتراف بها في النظام الجماعي .

٣ - تبني الصراع بين الطبقات كوسيلة للتطبيق الاشتراكي ، والمجاهرة بأنه لم يكن جميع الناس اخوة في اي حال من الأحوال في نظر ماركس ، بل كانوا أعداء طبيعيين يتصارعون ، ولذلك كان شعار ماركس في البيسان الشيوعي « يا عمال العالم اتحدوا » وتجنب عن قصد أن يقول يابني الانسان اتحدوا .

٤ - العمل على تغيير العالم بجميع نظمه ، كما صرح بذلك ماركس لتفسيره على ما هو قائم عليه من الخصائص الفردية والدولة السياسية ولا يكون ذلك التغيير عندهم ، الا بتدمير النظام القائم بجميع لوازمه

وخصائصه ، من دين وقانون وأخلاق ، وعدالة ، وعدالة بين الطبقات ، باعتبارها كلها عندهم من خصائص هذا النظام الرجعى والبورجوازى ، وإن مراعاة التعاليم الاخلاقية تضعف من حدة الصراع بين الطبقات ، كما اكد على ذلك ماركس نفسه .

ه — ان ذلك التدمير لا يكون الا بعمل ثورى وذلك لتقسيم الامة ، والاعتماد على الثوريين منها ، واحلال روح الثورة والصراع مكان روح الحب والاخاء .

٦ — تصفية الدولة بعد مرحلة حكم ديكتاتورى يتسلطه طليعة طبقة البروليتاريا وبعد أن لا يبقى فى المجتمع غير طبقة البروليتاريا ليحيا الناس عندئذ فى مجتمعات خيالية غير مركزية تعمل وتنتج ، من غير دولة ولا قيادة سياسية ، ولا قانون ولا نظام الا مايعارف عليه المقيمون فيما بينهم من سلوك طوعى لا اكراه فيه ، ولا سلطة فوقه لتحميه (٤١) .

وزاد فى خطورة الوضع ذلك الصراع الرهيب الذى تام حينئذ فى اوربا خاصة فى القرن التاسع عشر ما بين الكنيسة والاشتراكية ، ففقدت الكنيسة بوصفها ديناً ، والدين عندهم من خصائص الرجعية والبورجوازية ، فتحملت الكنيسة عندئذ وحدها تلك الصدمة ، ولم تقو على ردها ، وكانت الكنيسة كدين توجه سلوك الامة ، والحكم ، فلما انهزمت كان انهزامها انهزاماً لكل دين (٤٢) .

وبذلك نرى أن الشيوعيين قد نجحوا فى تنفيذ حركتهم على نطاق دولتهم ، وفرضوا نظرية كارل ماركس التى بينا فحواها ، وبذلك نراهم قد عملوا على دراسة الحياة الاجتماعية ففسروا تطور المجتمع وارجعوا

(٤١) محمد معروف الدواليبى « الاسلام امام الرأسمالية والماركسية » ص ١٢ — ١٤ .

(٤٢) المرجع السابق ص ١٧ .

حوادثه الى اسباب مادية بحيث لا يتركون شئاً منها للمصادفة وللارادة الالهية او للاسباب الخارجة عن الطبيعة ومن ثم نراهم قد أرجعوا كل شئ حتى الدين والأخلاق والفكر والفلسفة والنتانة والقانون والسياسة الى انعكاسات للاحوال الاقتصادية ، والمصالح الطبيعية ، وأمدوا جذورها الى الظروف المادية للحياة ، وتاريخ ارتقاء المجتمع عندهم قبل كل شئ تاريخ ارتقاء الانتاج ، واهتموا بتفسير الأحداث التاريخية تفسيراً مادياً ينكر الدين (٢٢) .

اثر الحركة الشيوعية الماركسية على الحضارة والدين الاسلامي :

لو ان الثورة الروسية لم تقم في اعقاب الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٧ م ، لما حفل الفكر المعاصر في القرن العشرين بالماركسيه ، ولطغت عليها اتجاهات المثالية والأخلاق الدينية في هذا الفكر ، ولكن حسن حظ الماركسية انها وجدت في الانقلاب الروسي قوة مؤازرها ، وتحنن لنشرها أقوى وأحدث أساليب النشر والدعاية .

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، وحصل الاتحاد السوفيتي فيها على نصر عسكري وسياسي أضاف قوة جديدة الى القوة السابقة التي آزرت الماركسية ، ثم جاء ما وتعت فيه الدبلوماسية الغربية من مساعدة الروس في هذه الحرب للقضاء على ماسمى وقتذاك بالديكتاتورية العسكرية في برلين وروما ، وذلك تحت ضغط اليهودية العالمية والكنيسة الكاثوليكية ، فضعف كذلك من قوة المؤازرة للماركسية في تثبيت دعائمها ونشرها (٢٣)

وقد بدأ السوفييت في الدعاية للشيوعية بطريقة التهويل والاستخفاف وجذب عقول الشباب محاولين إبعادهم عن الدين والعقائد منة في نفوسهم الى جانب جذبهم بالأموال ، وبطرق الامتناع العجيبة تحت مؤثرات مختلفة ، واستغلال الأوضاع الاقتصادية والطبوعات بطرق جذابة تجذب

(٢٣) احمد جمال « نقد النظرية الماركسية » ص ٣٦-٣٧ .

(٢٤) محمد البهي « الفكر الاسلامي الحديث واهله بالاستعمار » ص ٢٢٨ .

الشباب ، ومحاولة عقد الندوات ، وبت السوم الفكرية فيما بينهم .
محاولين اقناعهم ان هذه الدعوة ما هي الا دعوة اصلاح ، ومحاولة لتذويب
الغوارق بين الطبقات للقضاء على الرأسمالية .

والدعاية الشيوعية تركز قوتها في ثلاث نقاط :

- ١ — معارضة ثبات القيم الروحية والأخلاقية والعقلية .
- ٢ — معارضة وضعية المرأة في المجتمع غير الشيوعي .
- ٣ — الاستخفاف بأصحاب المزارع ، وأصحاب رؤوس الاموال وتمجيد
أصحاب العمل البدني (٤٥) .

ونجد هنا في الشرق الاسلامي ان توهين امر الدين ، ورجال الدين
هو الهدف الأول للدعاية الشيوعية ، لأن الاسلام في هذا الشرق يعتبر
مصدر انواع القيم الثلاث الثابتة الروحية ، العقلية ، والدينية ، ثم هو
مع ذلك مصدر تحديد وضعية المرأة في المجتمع الاسلامي كذلك ، وأخيراً
هو مصدر حق الملكية الفردية سواء الاراضي الزراعية او للصناعات .

أضف الى ذلك أنهم يعملون على تحرير المرأة بالصورة التي لايرضى
عنها الاسلام ، ومحاولة بث الدعاية للعمل على القضاء على مآثره
الاسلام في حقها ، خاصة ، في موضوع الطلاق وتعدد الزوجات ، وذلك
حتى يخلقوا الفوضى في المجتمعات الاسلامية .

وهناك ظاهرة ثالثة في نشرات الدعاية للشيوعية في الادب المعاصر .
هي ظاهرة تمجيد العمل البدوي ، وإبراز تفوقه على العمل الفكري ، وبالتالي
تفضيل الطبقة العاملة على الطبقات الأخرى ، وهذه الظاهرة اثر للفكر
الماركسي الذي يرمى الى تحويل الجماعة الى دولة ذات طبقة واحدة ،
هي طبقة العمال ، كما انها مادة للدعاية الشيوعية لكسب الاتساع في
أوسع دائرة ممكنة (٤٦) .

(٤٥) محمد البهي ، المرجع السابق : ص ٢٣٧ .

(٤٦) المرجع السابق . ص ٣٤٩ .

واستطاعت الشيوعية عن هذه الطرق ، وهذه الدعة أن يسلل إلى البلاد الإسلامية ، وأن تجد لها أنصاراً في بعض طبقات المثقون الذين أغرنهم الدعاية الأجنبية ، وفي بعض العقول التي لم يمررها الله بالدنس ، حاولوا اقناعهم بهذا المذهب الهدام .

وقد حاول الشيوعيون أن ينكروا الدين والفلسفة المثالية بين الفئات التي آمنت بهم ، وأصبحت التضحية وإنكار الذات ، والصبر على الشدائد ، والرضا بالتدر عند العجز عن الدفع ، وأصبحت الأخوة في الوطن ، والإنسانية ، معاني جوفاء لا مدلول لها ، وأصبحت الدعة إلى الله والقسم الذاتية ، كمصدر لإشعاع التوجيه للبشرية عامة دعوة إلى التخدير .

ويؤكد هذا الموقف من الدين الإسلامي ، ما قاله أحد الزعماء الشيوعيين ويدعى مولوتوف « لن تنتشر الشيوعية في الشرق إلا إذا أعدنا له من تلك الحجارة التي يعبدونها في الحجاز وفلسطين » (٤٧) .

لقد عاين زعماء الشيوعية فكرة الجامعة الإسلامية لتقوم بين المسلمين هناك ، ولم يأت عام ١٩٣٣ م حتى أرغمتهم الحكومة على اتخاذ الحروف اللاتينية بدل العربية ، وبذلك قطعوا صلته بالعمال المسلمين . وفي عام ١٩٣٨ م أمرتهم باتخاذ الحروف الروسية (٤٨) .

شجعت الماركسية الشيوعية الحيوانية بين صنوف الشباب في جميع جوانبها . شجعتها على ابتلاء المعدة ، وإشباع الرغبة الجنسية في أية صورة ، واحتقار العقل ، وإزراء الطبقة المثقفة ، وإغراء الدولة الطبقة العاملة ، بأن الدولة هي لهم ، حتى تضمن ولاء السكينة العديدة في الجماعة الإسلامية لنظامها (٤٩) .

وقد عملت الشيوعية على إزالة الملكية الفردية أي كانت صغيرة أم كبيرة ، وتطبيق نظام الأجور من كل حسب حاجته ، مع القضاء على التجارة الداخلية وقيام نظام البطاقات (٥٠) .

(٤٧) محمد النواوي « بين الشيوعية والإسلام » ص ٣٠ .

(٤٨) المرجع السابق ، نقلاً عن « الشيوعية في الميزان » ص ٥٣-٥٤ .

(٤٩) محمد البهي ، المرجع السابق ص ٣٥٥ .

(٥٠) الشيوعية في الميزان ، ص ٥٢ - ٥٣ .

موقف الاسلام من الشيوعية الماركسية :

١ — الاسلام يتفق مع الطبيعة الانسانية وضرورات الحياة في اباحة
للملكة الشخصية ، وهذا ما انكرته الشيوعية النظرية كما وضعها كارل
ماركس وانجلز ، فالاسلام يسمح لكل انسان ان يتخذ من الوسائل
والسبل المشروعة لاكتساب المال وتنميته ، ما يحبه ويستطيعه ، وبتمالك
هذه السبل ما يشاء ، والاسلام من حيث انه دين ترفض عقيدته ونظامه
الشيوعية رفضا باتا لانها فلسفة مادبة السكبان ، وفكرة بلحدة العقيدة .

فالاسلام يعترف بمبدأ الملكية ، ويضعه تحت الوصاية الحقيقية من
عامله المقررة في قواعد العامة ، ونصوصه الخاصة ، فهو يطلقه ان
كانت المصلحة العامة تقتضي باطلاعه ، ويثبته ان كان الامر على العكس .
وفي كلتا الحالتين ، فالاسلام واضح في رفضه لكل تلك اباطل ، وهي
بسال كل مالك من ان لك هذا ليعرف اهو حق فبقية له ام باطل فبالله
ايه (٥١) قال تعالى : « ولا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام
لتاكلوا قريباً من اموال الناس بالاثم » وانتم تعلمون « (٥٢) .

والعجيب ان الشيوعية قد تراجعت اخيراً في مرحلتها التطبيقية ،
واعترفت بالملكية الشخصية ، ولو في حدود ضيقة تأكيداً لبطلان زعمها
النظري . فقد جاء في الدستور السوفيتي مايلي :

مادة ٧ : لكل عائلة من عوائل المزرعة التعاونية بالامانة التي
دخلها الاسامي الذي يأتيها من اقتصاد المزرعة التعاونية المشترك ،
قطعة من الأرض خاصة بها ، وملحقة بمحل السكن ، ولها في الأرض
اقتصاد اضافي ، ومنزل للسكني ، وماشية منتجة وطيور وادوات زراعية
بسيطة للملكية خاصة (٥٣) .

(٥١) محمد الغزالي : « الاسلام المفترى عليه بين الشيوعية
والرأسمالية » ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٥٢) سورة البقرة آية ١٨٨ .

(٥٣) مصطفى السباعي : « اشتراكية الاسلام » ص ١٦٥ نقلاً عن
النسخة العربية من الدستور السوفيتي المطبوعة في موسكو سنة ١٩٤٢ ،
والمترجمة عن النسخة الروسية المطبوعة في موسكو سنة ١٩٤١ م .

٢ — ان الاسلام فى اباحته للملكية الشخصية ، انما يسمح للمواهب الانسانية ان تنطلق فى ميدان التنافس والبنساء الذى هو بلا ريب اكبر سبب من أسباب تطور الحضارة ، ونمو الانتاج ، والشيوعية تزعم ان هذا التنافس هو الذى يجر البلاء على المجتمع . اذ يؤدى الى استغلال ارباب الاموال للجماهير اسوا استغلال ، وهذا انما يصدق على التنافس الرأسمالى الذى رآته الشيوعية النظرية قائما فى اوربا ، ولكنه لا يصدق ابدا على التنافس الاشتراكى الاسلامى لانه مقيد اولا بمبادئ التملك . ومقيد ثانيا باشراف الدولة وتوجيهها ويقتتها . ومقيد بالمثل الاخلاقية العليا التى هى جزء من عقيدة الاسلام . وببقللة الضمير الدينى الذى تعتمد اشتراكية الاسلام عليه اكبر اعتماد . وفى واقع راس المال الاسلامى فى الدولة الاسلامية الاولى وما بعدها اكبر دليل على هذا .

٣ — الاسلام يعمل على تعاون فئات المجتمع المختلفة لا الى حرب الطبقات كما تفعل الشيوعية . فحين يكفل الاسلام الحياة الحريمة للضعفاء والمعاجزين والفقراء وغيرهم . ويمنع استغلال الاغنياء وتحكمهم . ويمجر ينابيع الخير فى نفوس الناس كافة . اما الشيوعية فاساس دعوتها اثاره انفئات بعضها على بعض وملء قلوب بعضها بالحققد على بعض (٥٤) .

٤ — الاسلام يعتمد على الاخلاق الكريمة ، ويجعلها جزءا من العقيدة ، ويحمل الانسان على ان يتحلى بها . والشيوعية لاتؤمن بالقيم الاخلاقية العاطفية كالحب والرحمة . والاجتماعية كالصدق والوفاء ولا تنظر اليها الا فى اطار المصلحة الشيوعية . والشيوعى يستخدم المثل العليا التى يؤمن بها الناس فى الدعاية لمبادئه للتضليل والتفجير . والشيوعى يدعو الى الحرية فى مجتمع غير شيوعى ليتخذ منها وسيلة لاثارة العمال والطلاب والجماهير ضد الحكم القائم .

٥ — الاسلام يعتبر هو صرح بنساء الحضارات منذ عرف الانسان ، ذلك هو الايمان بالله خالق الحياة رب العالمين ، العادل الذى لا يظلم . ثقال ذرة والعقيدة الاسلامية توقظ الضمير ، وتهذب النفس وتكبح من جماح أهوائها وشهواتها او تجعل الانسان دائما امام ضميره ، وأمام ربه

فى جميع علاقاته، ويوم تتخلى الأمة عن هذه العقيدة — كما تهدف الشيوعية —
فقد سمحت للشر أن يستفحل فى صفوفها (٥٥) .

٦ — الاسلام يعلن ثقته بالانسان وبغرائز الخير فيه ، وانه الى الخير
اقرب منه الى الشر " كل مولود يولد على الفطرة " (٥٦) وفى قصة خلق
آدم . كما رويت فى القرآن الكريم اشارة واضحة الى هذا .

قال تعالى " واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة .
قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها . ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك
ونقدس لك قال انى اعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم
على الملائكة فقال : انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك
لا علم لنا الا ما علمنا انك انت العليم الحكيم ، واذا قلنا للملائكة اسجدوا
لآدم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين " (٥٧) .

فالانسان — كما تدل عليه هذه القصة — خلق ليكون خليفة عن الله
فى الارض يعمرها ويملؤها بالمعرفة والخير ، ولم يمنعه ما فيه من غرائز
الشر أن يستحق هذه الخلافة . ومن أن يسخر الله له جميع القوى .
ويخضع له جميع المخلوقات .

ولهذا يعمل الاسلام على أن يقوى فى الانسان دينه أو يهذب نفسه،
ثم هو يكله بعد ذلك الى ضميره فى تنفيذ مبادئه ، أكثر مما يجبره على ذلك
بقوة الدولة ورهبة السلطان .

ولسكن الشيوعية لاتثق بالانسان — لأن تاريخه كله من اوله الى
آخره تسلط وقتال من أجل الاكل والمال ، انها لاتثق بدينه لأنه يؤمن بخرافة،
ولا تثق بضميره لأن القيم التى يؤمن بها الضمير قيم باطلة ، انها لا تؤمن
بغرائز الخير فيه ، انها تثق بغرائزه الجشعة ، ورغباته فى الاستئثار
والطغيان ، ولذلك فهى لاتسلمه المال لأنه يستعمله فى استغلال الكادحين؛

(٥٥) مصطفى الشباعى « اشتراكية الاسلام » ص ١٦٧ .

(٥٦) رواه البخارى ومسلم .

(٥٧) سورة البقرة آية ٣٠ — ٣٤ .

ولا تطلق له الإرادة لأنه ينزع الى التحكم والاستبداد . ولا تعطيه الحرية لأنه لا يحسن استعمالها .

٧ — الشيوعية تعتبر مأساة الانسان كلها منذ اقدم الساريح الى اليوم مأساة بطن جائع ، ومن ثم فهي تنادى بأنه لا سبيل للسلام والسعادة الا بنظامها الذي يسلب من الناس اموالهم ويملا بطونهم . ومعنى ذلك انه ليس في الانسان رذيلة الا حب القسطنط على الآخرين (٥٨) .

وخلاصة ذلك ان الاسلام ينكر على الشيوعية موقفها من الدين ، ومهاجمتها في اصولها ومروءتها كما ينكر عليها وادها للحرية ، وهذا اهم خلاف بين الاسلام والشيوعية ، اما اساليب الحياة وتنظيمها والرقى بالافراد والجماعات ، ومحاربة الفقر والبطالة وتأمين الفرد على نفسه ومعيشته وذريته مما جاءت به الشيوعية فان الاسلام له موقف مخالف نهائيا . فهو يحرم الانسان ويحترم آدميته (٥٩) .

ولابد ان ندلل على صحة رأينا في موقف الاسلام من الشيوعية برأى اتحاد المشرقين الغربيين وهو المشرق " جب " يقول " مازال الاسلام يحفظ التوازن بين الاتجاهين المتقابلين في الغرب . فهو يسلم ويوائم بين الاشتراكية القومية والأوربية . وبين شيوعية روسيا . فلم يهو بالجانب الاقتصادي من الحياة الى ذلك النطاق الضيق الذي أصبح من مميزات أوروبا في الوقت الحالي : والذي هو اليوم من مميزات روسيا أيضا " (٦٠) .

ويذكر جاك أوستري في كتابه « الاسلام امام التطور الاقتصادي » :
« ليس هناك في الحقيقة الا طريقة وحيدة وضرورية لابد منها للانماء الاقتصادي كما تريد ان تقنعنا به المذاهب القصيرة النظر في النظام الاقتصاديين السائدين » (٦١) .

(٥٨) مصطفى السباعي : المرجع السابق ص ١٦٨ .

(٥٩) الغزالي « الاسلام المقترى عليه » ص ١٥٠ .

(٦٠) محمد علي « مولانا » « الاسلام والنظام الجديد » ص ١٥

(٦١) Jacques Austry " L'Islam Face au developement

économique p. 20.

ولذلك الحق ، هذا المؤلف في كتابه على المسلمين بضرورة العودة الى الاسلام نفسه والى دراسة قواه الكامنة فيه « بشق الطريق فهو نهوض المسلمين عوضا عن التقليد الاعمى » وجاهر « بأن الاسلام يتمتع بإمكانيات هائلة وأنه اذا ما وجد الطريق الصحيح فإن كثيرا من الصعوبات الاقتصادية التي ظهر للاقتصاديين تعذر التغلب عليها . . . وف يحلها الاسلام » (٦٢) .

هذا هو الاسلام بمبادئه التي تناقض المذهب الشيوعي — الذي حاول أن يعمل جاهدا على التوصل في المجتمع الاسلامي لسحق الدين . وبليلة افكار المسلمين تحت ستار ما يدعونه من مذاهب فكرية متحررة ومتجددة . وما هي الا فقاعات لا تلبث ان تزول . قال الله تعالى « كذلك يضرب الله الحق بالباطل فأما الزيد فببذهب جفاء . وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » (٦٣) .

الراسمالية وأثرها على الحضارة الإسلامية

قام النظام الراسمالي الغربى على أساس من إطلاق العنان لنشاط الفرد الى غير حد . وللحرية الفردية من غير قيد ، ولاعتبار الصالح الفردى هو الصالح الأعلى .

وبرزت هذه الاتجاهات فى المجال الاقتصادى الى أقصى حد . اذ ترك كل شىء فى هذا المجال لنشاط الأفراد ، ورقباتهم ومصالحهم ، دون أى اعتبار للمجتمع أو للأخلاق أو لأية اعتبارات أخرى يمكن أن نحد من الحرية الفردية . أو من تحقيق الصالح الفردى كما يتراءى للفرد أن يحققه (١) .

ان أول ما يأخذه الاسلام على الراسمالية باعتبارها نظاما جرب وشهد العالم تطبيقه وآثاره ، ان الذى يربح منه طبقة محدودة جدا ، وان هذه الطبقة الرابحة تقبل على الدنيا اقبالا عارما ، موصول اللذة محدود المنعة ، تأكل القرات أكلا لما . وتحب المال حبا جما .

والاسلام يضيق بالراسمالية لأنها تضع نظاما جادا لمحاربة الفقر ، بل لم تؤسس حكمها على فكرة اراحة الناس منه ، كما ان النظام الراسمالي يهوى بالضعفاء والمحتاجين فى مكان سحق ، ولا يتعرف اليهم الا أدوات انتاج يحترقون فى النار التى تطفى للسادة ، ثم تتحول بوقودها الأدمى الى عالم من التراب (٢) .

ونريد أن نعطى لمحة تاريخية عن نشأة الراسمالية . فقد ظهرتفى أوربا عقب الثورة الصناعية التى بدأت فى القرن الثامن عشر فى انجلترا أولا ثم فى بقية أوربا الغربية بعد ذلك .

(١) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٩٧ .
(٢) محمد الغزالى « الاسلام المفقود عليه » ص ١٩١ - ١٩٢ .

وقد أدت الثورة الصناعية الى قضاء الآلة نهائيا على العمل اليدوى فى الصناعات . وشمل الانتاج اليدوى فى مواجهة الطاقة الكبيرة لصنع الآلة ، وتحول العمال اليدويون ، وقد كانوا ملاكا فى مصانعهم الصغيرة من قبل الى أجراء لدى أصحاب الصناعة الآلية الكبيرة .

وفىما بين المصانع الآلية كان المصنع الكبير فيها بطاقته الواسعة فى الانتاج اقل تكلفة منه فى المصنع الأصغر ، لذا لم يستطع المصنع الآلى الصغير أن يستمر طويلا فى مواجهة المصنع الكبير ، وأثر صاحب بسبب قوة المنافسة وضررها عليه أن ينضم الى المصنع الكبير ويدخل فى حمايته . وتكونت بذلك الشركات المساهمة الكبيرة .

وهكذا أيضا بين الشركات المساهمة الكبيرة كانت المنافسة فى رخص تكلفة الانتاج ، ولكن هذه المرة ليست عن طريق كثرة الانتاج — بجانب جودته — ولكن عن طريق تخفيف التكلفة خارج المصنع . سواء فى شراء المواد الخام أو فى تسويق مصنوعات المصنع فى الأسواق المحلية أو الخارجية والعامل الأساسى فى التكلفة هو — النقل — وضمان وسائل عدم التلف للسلع ، وفائدة القروض التى يقترضها المصنع أو الوسيط بين المصنع والأسواق وهو التاجر (٣) .

فكلما كانت أجور النقل ، وفائدة القرض أقل ، وكلما كان الخطر الناشئ عن تلف السلع المصنعة أو الخام فى نطاق ضيق أو متعديا تماما، كانت التكلفة أقل وبالتالي كانت المنافسة أقوى للصناعة التى قلت تكلفتها تبعا لذلك على المنافسة ، اتحدت بعض الشركات الصناعية المساهمة ، على أن تباشر خدمات النقل أو التأمين على السلع أو القرض لتسويقها . وأصبحت هذه الشركات داخل إطار الصناعة ، ثم فى تطور العمل فيها أصبحت نوعية ، وتقوم بخدمات لغير المساهمين فيها ، فأصبح منها البنوك وشركات التأمين وشركات السكك الحديدية والسفن والبريد ووسائل النقل الأخرى . والشركات الصناعية التى أصبحت خدماتها الخارجية ذاتية من نقل وتأمين وقروض طمعت فى منافستها على بعض الشركات الأخرى،

(٣) محمد البهى « تهاافت الفكر المادى » ص ٢٠ .

وعظم اثرها فى الانتاج وفى الاسواق المحلية ، وفيها وراء البحار ،
والبعض منها امتد نفوذه الى الاحتكار اما فى نوع من الانتاج او فى تجارة
سلعة معينة من سلع المواد الاولى او فى بعض الخدمات الخاصة بالنقل
والتأمين .

وتبعاً لهذا التركز أصبح رأس مال الصناعة ، ويتبعه غالباً رأس
مال التجارة ورأس مال الخدمات المالية فى يد قلة من أصحاب رؤوس
الاموال ، وبالتالي تجمعت لديهم الأرباح الواسعة فى استثمار القسارتين
الأفريقية والآسيوية وفى تسخير المواطنين فيها فى خدمة الصناعة
الأوروبية الغربية .

وأصبح فى أوربا ثراء فاحش يتصرف فيه عدد قليل من الأثرياء .
كما نشأت حضارة غربية مادية فى المدن والرافق التى تساعد الإنسان
الأوربى صاحب الثراء على الاستمتاع بالحياة المادية فى مسورها
المختلفة (٤) .

ونمت هذه القلة من أصحاب رؤوس الاموال فى الصناعة الغربية
وقف مد الثراء الفاحش ، سواء أكان من الأرباح المباشرة او غير المباشرة ،
كما وقف عليها الاستمتاع بترف الحياة المادية .

وكلما قوى تيار هذا المد للثروة البشرية — اذ ذاك — فى اتجاهه
للتكدس تحت اقدام هذه القلة فى عسدها من أصحاب رؤوس الاموال
الصناعية زاد نفوذها فى السياسة الدولية ، وفى توجيه الفكر والتعليم ،
وكلما ازداد من عداهم فاقة وحرمانا وضعفا فى رعاية محتهم وأحوالهم
الاجتماعية .

كان عمال المصانع اقرب للآخرين عسدا أصحاب رؤوس الاموال
الى الاحساس بالوضع المزدوج المتناقض الناشئ من تكدس الأرباح فى
أيدى قلة من الافراد وهو :

١ — وضع الثراء الواسع والترف الذى هو العيب بعينه فى جانب .

(٤) محمد البهى ، المزج السابق ص ٢١ .

٢ — الحرمان ومقد الرعاية الاجتماعية ، والاعتبار التشرى في جانب آخر (٥) .

وكانت نتائج الثورة الصناعية مايلي :

١ — استثمارهم لبلاد آمنة مطمئنة ، وحرمانها من ثروتها الطبيعية، وبخس المجهود البشرى لابنائها المواطنين فيها ، وذلك لأن الطاقة الانتاجية للصناعة تضخمت الى حد أن أصبحت عاجزة عن استيعاب طاقتها الانتاجية الكاملة فالسوق الداخلية صارت غير كافية لاستنفاد ما انتجه المنتجون بالأسعار التي يرون . بحكم جشعهم الباغى — انها صارت مجزية — ومن أجل الاحتفاظ بهذه الأسعار الفاحشة استقر رأى المنتجين بعد ان تجمعوا في كتل احتكارية على أنه لامناص لهم من سلوك أحد طريقتين . اما خفض الانتاج ، وهذا ينقص من كمية ارباحهم . واما خلق أسواق اجنبية نستوعب فائض الانتاج ، وتكفل لهم الحد الأقصى من الأرباح .

الى جانب حاجة الاقتصاد الغربى الى ميادين اجنبية لاستثمار فائض المدخرات لان الأرباح الفاحشة التي تقول الى اصحاب الصناعات الكبرى لا يمكن توظيفها في السوق الداخلى الا بفائدة منخفضة في حين انها تفل فائدة مرتفعة في البلاد المتخلفة اقتصاديا .

الى جانب حاجة الصناعة الكبيرة في الاقتصاد الغربى الى الموارد الطبيعية في البلاد المتخلفة اقتصاديا . واصحاب الاموال لا ضابط له ، ولا قيد عليه ، يريدون الحصول على هذه الموارد بأبخس الأثمان تدعيما لأرباحهم الفاحشة والسبيل الى ذلك هو حمل حكوماتهم على بسط نفوذها السياسى على هذه الاقاليم (٦) .

٢ — ارهاق العمال في المصانع وحرمانهم نعمة الانقضاء بعد حرمانهم من نعمة التعليم .

(٥) المرجع السابق ص ٢٣ .

(٦) محمد عبد الله العربى « الاقتصاد الاسلامى » ص ٣١٤
محاضرة « القاها في الموسم الثقافى لجامعة الأزهر سنة ١٩٦٠ م .

٣ — تكدرس الثروات فى ايدى قلة قليلة من الافراد لثروات لانتهى
هى فى واقع الامر اغتصاب لمسا تملكه الملايين الأخرى من أموال وطاقت.

٤ — وتمكنا من سلطة الحكم فى المجتمع ، ومن توجيه سياسته
لضمان بقاء العامل فى وضعه الاجتماعى ، وبقاء البلاد الأفريقية والاسيوية
فما وراء البحار مستعمرات للمواد الخام بأثمان زهيدة ، وللطاقت البشرية
الرخيصة فى نفقاتها .

ووصلت الرأسمالية الصناعية فى القرب الى ثروتها فى الآثار
والنتائج ، وهى آثار ونتائج كلها سلبية على البشرية ، حتى ما كان منها
أرباحا طائلة لأصحاب رؤوس الأموال القليلين (٧) .

منذ ذلك نرى ان النظم الرأسمالى ما هو الا استغلال الانسان لأخيه
الانسان وهو الذى يشجع على الاحتكار الذى نهى عنه الاسلام .

ومن أهم النتائج التى صاحبت نشأة الرأسمالية انشاء المصارف
والبنوك . التى ترتب عليها جعل العمال والصناع والتجار وأصحاب
المصانع مجرد اجراء للسيارفة الذين قاموا بتأسيس البنوك ، وجذبوا
اليها أموال حطة الاسهم والمودعين ، ليستغلوها لصالحهم ، اذ تعود
عليهم حصيلة تشغيل هذه الاموال ماعدا النصيب الضئيل الذى يهرق
لحطة الاسهم ، وللمودعين فى بعض الحالات بينما يكسب العمال والصناع
والتجار والمستهلكون واصحاب المصانع انفسهم كذلك. للوفاء بالفوائد الربوية
التي تعود فى النهاية الى الطغمة القليلة من المالبين الذين يمولون الصناعة
والتجارة عن طريق الائراض ويقتضون وهم قاعزون — ثمرة كد الجميع
فى نهاية المطاف (٨) .

ان مشكلة النظام الرأسمالى لا تتمثل فقط فى المظهر البارز الذى
يوجه اليه النقد ، وهو تسيخير الشعوب بالحكومات ، هى طبقة مستترة
وراء اكداش من النظريات الاقتصادية ووسائل الدعاية والتمويه ، والاساندة

(٧) البهى « تهافت الفكر المسادى » ص ٢٢ .
(٨) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ١٨٣

الكبار والجامعات والقوانين واللوائح في جميع أرجاء الأرض . طبقة المزاين ، الطبقة التي تؤسس بنوك الإقراض ، وتمتلك سندات التأسيس .

ومصاحب النظام الرأسمالي الانتحالي الأخلاقي أولا : نحت تأثير النظريات المختلفة الاتجاهات . سواء نظريات الحرية المقردة التي لا يجوز أن يأخذها أحد أو قيد أو نظريات حيوانية الإنسان ومادية الكون (٩) .

انتشار البنوك التي تتعامل بالفائدة :

انتشر حفظ ودائع الأفراد والشركات والحكومات في البنوك بفوائد محددة . كما انتشر منح الناس قروضا بالملايين . وليسكن مما يؤخذ على هذا الموضوع هو تحديد الفائدة : فالاسلام ينص على أن رأس المال والعمل يجب أن يشتركا في الربح والخسارة ، فلا يأخذ رأس المال فائدة دائما ، حتى ولو كان ذلك يؤدي إلى خسارة العمل (١٠) .

ولا يستطيع أحد في عصرنا الحديث أن ينكر أن البنوك في وضعها الحالي تؤدي للمجتمع خدمات قيمة سواء في ميدان التجارة الداخلية أو ميدان التجارة الخارجية .

ولكن ؟ من أين تأتي البنوك بالأموال التي توجهها في إنجاز عملياتها المختلفة ، وعلى الأخص في تمويل المشروعات ؟ بعضها يأتي من رأس مال البنك ، أي من قيمة الأسهم التي اكتتب بها المساهمون ، ولكن أكثرها يأتي من ودائع المودعين .

في النظام الرأسمالي يودع الناس فائض أموالهم النقدية في البنوك مقابل فائدة منخفضة السعر يقررها البنك لودائعهم ، ثم يقسوم البنك بالفائض من هذه الودائع لعملائه بفائدة مرتفعة ، ويكسب البنك الفرق بين السعرين ، ويعتبر البنك ودائع المودعين كأنها رصيد واحد ، متجدد نطال يقرض منه المقترضين بالفائدة المرتفعة ، وكلما رد مقترض قيمة مقرضه

(٩) سيد قطب « المرجع السابق » ص ٩٩ .

(١٠) علي عوض « الاقتصاد في ضوء الإسلام » ص ٩٤ .

اعاده البنك الى هذا الرصيد ، ويكرر المرة بعد المرة الاقتراض منه ، والاعادة اليه ، ومن هنا تأتي الأرباح الضخمة للبنوك في النظام الرأسمالي . وهي بآمن من كل مخاطرة مطمئنة الى استرداد قروضها وفوائدها وهي بمعصم من كل خسارة (١١) .

هذه الوظيفة المصرفية ربوية ، وهي علاوة على هذا التحريم الشرعي ثبت للاقتصاديين انها تلحق اضرارا جسيمة بالاقتصاد القومي ، فان البنوك في استغلالها للودائع على هذا النحو ، انها تخلق نقودا مصطنعة هي مايسمونه « بالائتمان التجاري » وهي في هذا الخلق تغتصب وظيفة الدولة المشروعة في خلق النقود بما يحف بها وبما يوازنها من مسؤوليات ، وكما قال الاقتصادي الأمريكي هنري سيمونز معلقا على الأزمة الاقتصادية العالمية التي خيمت على أكثر الدول سنة ١٩٣٠ وما يليها « لسنا نبالغ اذا قلنا ان أكثر عامل في الأزمة الحاضرة هو النشاط المصرفي التجاري ، بما يصمد اليه من اسراف خبيث ، وتقتير مضموم في تهيئة وسائل التداول النقدي ، ولا شك في أن البنوك بمعاونة الاحتكار سوف توالينا بأزمات أشد وأقسى اذا لم تتدخل الدولة في الأمر واستعادت في حكمة ومسئولية وظيفتها في ضبط أداة التداول (١٢) » .

فالثابت اذا بحكم الواقع المعاصر هو ان البنوك بالدور الذي تقسم به في احلال الائتمان المصرفي محل العملة النقدية اعتمادا على رصيد الودائع التي لديها ، واطمئنانها الى استمرار تدفقه ، تؤدي للمجتمع ندما في تيسير التعامل التجاري ، ولسكنها في الوقت نفسه تلحق الضرر بالمجتمع الذي ينشأ من مصدرين الاول : ماتصبيه من اغضاء غير مشروع بسبب حصولها المحتوم على فوائدها المقررة على المقترضين واجتنابها المساهمة في مخاطر مشروعاتهم . الثاني : ميلها في اوقات الرخاء الى التوسع في الاقتراض بفتح الاعتمادات التي تربو على رصيدها اضماعا مضاعفا ، وميلها في اوقات الركود الى التضيق في الاقتراض والكف عنه خوفا من احتمالات الخسارة والعمل على استرداد قروضها ، وارغام

(١١) محمد عبد الله العربي « الاقتصاد الإسلامي » ص ٢٤٩ .

(١٢) محمد عبد الله العربي « المرجع السابق » ص ٢٢٠ .

المتراضين على السداد . فهذا البسط والتبسط الذي تتحكم فيه ارادة
الثامن على البنوك هو من اهم العوامل التي تميز السكان الاقتصادي .
ويؤثر الى نتائج الازمات (١١٢) .

فلنترك في المجتمعات الرأسمالية بتحويلها للمشروعات من طريق
أربعة الودائع تستحدث نفعا ، وتستحدث ضررا في آن واحد ، والنظام
الاسلامي حريص كل الحرص على انتفاء الضرر ودفعه ، واجتلاب النفع
واستبقائه .

هذا من ناحية اما من الناحية الشرعية ، فالاسلام ينظر الى هذه
الفائدة على انها ربا . ومن مبادئه الأساسية تحريم الربا والفائدة ماكان
منها للاستهلاك ، وما كان منها للانتاج بسواء . ان كان سعر الفائدة بسيطاً
ام كبيراً وذلك صريح وواضح في قوله تعالى « يا ايها الذين آمنوا اتقوا
الله وذروا ما بقى من الربا » (١٤) وقوله تعالى « وذلك بانهم تناولوا
البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا » (١٥) وقوله أيضاً وفيه
إبرهان الفاطق والدلالة الصحيحة على تحريم الربا « وان قبضتم فلكم مكره . وس
أموالكم لا تظلمون ولا تظالمون » (١٦) اما ما يحتج به من قوله تعالى
« لا تأكلوا ربا مضاعفاً مضاعفة » (١٧) فالمقصود هنا فائدة الفائدة أي الربح
المركب ، وهو ضم الفوائد الى أصل الدين بحيث يصبح الكل بمثابة رأسمال
واحد منتجاً لفوائده القانونية أو الاتفاقية . ولقد أثبت علم المال الحالي
أن الدين بهذه الطريقة أي بطريقة فائدة الفائدة يتضاعف ، حتى أن المبلغ
الذي يقرض بفائدة ٥٪ يتضاعف الى مثله في مدة ١٤ سنة تقريباً ، وهذا
إذا كان سعر الفائدة ٥٪ ، ولكن إذا بلغ سعر الفائدة ١٠٪ أو ١٥٪
أو ٢٠٪ أو ٢٥٪ مثلاً وهذا ما يحدث كثيراً ، فإن المبلغ يتضاعف في مدة
تعدّ أقل من ٥ سنوات أو تزيد قليلاً (١٨) .

(١٣) المرجع السابق ص ٢٢١ .

(١٤) سورة البقرة آية ٢٧٨ .

(١٥) سورة البقرة آية ٢٧٥ .

(١٦) سورة البقرة آية ٢٧٩ .

(١٧) سورة آل عمران آية ١٣٠ .

(١٨) « سيد أحمد » الاقتصاد في ضوء الاسلام ص ٥٩ .

هذا هو المقصود من قوله تعالى « اضعافا مضاعفة » أى اضعافا بالنسبة لقيمة رأس المال المقترض ، وذلك لأن الدين الإسلامى دين أبدي لم ينظر الى شكل الفائدة ، واقتسامها وأنواعها على ما هو عليه فى الماضى والحاضر فحسب ولكنه نظر أيضا لما سيحدث فى المستقبل وحرمة جميع أشكالها وأنواعها واقتسامها وقد حرم الإسلام الفائدة أو الربا لأسباب كثيرة سياسية واقتصادية وتعاونية واجتماعية وخلقية .

فنرى من الناحية السياسية ان الأجانب عندما بدأوا غزوهم الاقتصادى القائم على الفوائد الربوية والقروض ، كثيرا ما يكون الأساس الثابت للاحتلال والاستعمار . اذ أول ما قعله المستعمر خصوصا فى بلدان الشرق هو انه اقترض الشرقيين بفوائد باهظة ، وما هى الا سنوات قليلة حتى انتقلت الثروة وعوامل الانتاج من زراعية وصناعية وتجارية من ايدى اهلها الى ايدى المستعمر (١٩) .

اما من الناحية الاقتصادية ، فان الفائدة تؤدي الى تضخم الثروة . والإسلام يكره تضخم الثروة فى جانب وعدم وجودها فى الجانب الآخر وهذا صريح فى قوله تعالى « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (٢٠) .

وهناك سبب آخر وهو حفظ التوازن بين رأس المال وبين العمل فلا يسمح لرأس المال أن يستبد وبأخذ أكثر مما يجب ، ولا يرضى أن يأخذ العمال أقل من نتائج عملهم . كما ان الفائدة سواء اكانت بسيطة ام مركبة تؤدي الى اغلاس بعض التجار وخصوصا الذين تصيبهم وقتا ما فسادات مالية . واذا عمل بمبدأ الفائدة ، فانه يقتضى على التعاون ، وذلك لانه يقتضى الاسلام الذى يحث على التعاون بين الناس .

اضف الى ذلك ان الاسلام اذ يحرم الفائدة ، فانه بتحريمه هذا يحاول ان يحفظ التوازن بين الجانب المادى ، والجانب الروحى بحيث لا يسمح لأى من الجانبين أن يطفئ على الآخر ، الى جانب أن الفائدة تؤدي الى استغلال ضوابط المجتمع ، وبيع المساعدات بمقابل ، سواء اكانت هذه

(١٩) المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٢٠) سورة الحشر آية ٧ .

انضوائق استيلاكية أم انتاجية . وبذلك تتمزق الانسانية ، ويصبح افرادها
أشبه بحيوان الغناب ، الغنى يطمع فيفترس الفقير ، والفقير يحقد
فيفترس الغنى ، ولكل سلاحه الذى يقتل به أخاه (٢١) .

وتد حاولت النظريات الراسمالية التى وفدت على حضارتنا الاسلامية
أن تجد لنفسها منفذا ، وأن تحلل كثيرا من نظمها حتى تأخذ بها الدول
الاسلامية فنقول « ان التحديد تفرضه الحاجة الى التيسير » .

ولكن لا لأنه ليس فى نظام الفائدة أى تيسير ، وقد ارتفعت الشكوى
فى الغرب من نظام الفسائدة ، وهاجمه علماء متخصصون فى الفلسفة
والاجتماع ، والاقتصاد ولارائهم وزن كبير ، وذلك فى البلاد الراسمالية
فضلا عن الجمهوريات الاشتراكية التى سبقت الى الغاء المعاملات بالفائدة .

وعلى أية حال ليست فى الراسمالية ، ولا فى الاشتراكية أى فلسفة
خاصة تفوق نظرة الاسلام الى الامور الانسانية (٢٢) .

الى جانب انه من الكذب ، القول بأن نظام الفائدة يحصى المقرض
بصغير الضعيف من جبروت المقرض الفنى القادر ، فهذه مجرد دعاية
يهودية تجوز على بعض الناس .

وفى ظل نظام الربا والفائدة يزداد العبء الملقى على كاهل المقرض
بثلاثة عوامل رئيسية .

(أ) الضمان الذى يقدم ، فكلما قلت ثروته ، قل ضمانه ، وزاد سعر
الفائدة الحقيقية .

(ب) حجم القرض ، فكلما قل حجم الدين أو المبلغ المتعاقد عليه زاد
سعر الفائدة .

(ج) مدة القرض اذ الفائدة على القروض القصيرة الاجل ايسر من

(٢١) محمود شلتوت « الاسلام عقيدة وشريعة » ص ٢٧٣ .

(٢٢) عيسى عبده ابراهيم « وضع الربا فى بناء الاقتصاد القومى »
محاضرة القاها فى الموسم الثقافى لجامعة الأزهر سنة ١٩٦٠ ، ص ١١٤ .

نظيرتها على الديون الطويلة الأجل هذا في حالات ، وفي حالات أخرى ينعكس الوضع وتقل الفائدة إذا طالقت مدة القرض . وفي هذا تفصيل في الدراسة الاقتصادية لسوق رأس المال .

على أن سعر الفائدة يتأثر أيضا بندرة رأس المال ، بمعنى أنه كلما اشتدت الندرة النسبية للمدخرات المتاحة للتوظيف ، ارتفع سعر الفائدة.

وفكرة الاسلام في تحريم الربا أبعد كثيرا مما ظن الذين امتوا بجواز فائدة المودعات لدى البنوك وصناديق البريد وغيره من المنشآت : ففكرة الاسلام تتلخص في أن نظام النقد بجميع صورته لا ينبغي أن يكون إلا للدولة ، ومن ثم يكون سك النقود ، وإصدار العملة الورقية ، وخلق النقود انحصارية بالانتماء مثلا ، ومن ثم تكون المصارف ، وهيئات تكوين رؤوس الأموال كشرركات التأمين وتوظيف المدخرات منشآت لايجوز للفرد ولا لاشركة أن تملكها .

والفائدة الثابتة هي استمرار لدورة من صور الربا ، هي بقية من بقايا سيطرة رأس المال ونهم الحيازة ، ولم تحقق من الآثار الاقتصادية إلا الفساد ، ذلك لأنها قرينة التحكم في رأس المال ، واتخاذة للبطش بالمجتمع (٢٢) .

أثر الربا على السلوك الانساني وعلى المجتمع :

الربا يؤدي الى انتشار الامراض الاخلاقية بطريقة غير مباشرة ، وذلك لأنها تؤدي الى حبس ثروة المجتمع في أيدي قليلة مفرقة ، الأمر الذي يترتب عليه انتشار الدعارة ، وكثرة البسر ، وشرب الخمر ووجود الحقد والضغائن والاحن ، وغير ذلك من الأمراض الأخلاقية ، وسبب ذلك أن هذه الطائفة تملك طائفة مالية كبيرة نتيجة التعامل بالربا .

وهناك أمراض اجتماعية أخرى مثل السرقة ، وضياع المروءة وغيرها وغيرها مما يؤدي بنا الى الهلاك تحقيقا لقوله تعالى « وإذا أردنا أن

نذلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٢٤) .

والذى يعمل بهذا النظام « نظام الفائدة الربوية » عندما يقيم مشروعا من المشروعات لا يفكر الا فى المشروعات التى تكفل تغطية الفوائد الربوية وتكفل له ايضا فائضا من الربح ، والمشروعات التى تخدم الجنس ، والتى تقوم على اثاره الميسل الى الترف وتلبيتسه وهى ادنى المشروعات الى الربح (٢٥) .

ومن ثم يصبح من السياسة الثابتة لاصحاب المال « الصيرفة ، وبيوت المال ومؤسسى البنوك ، وحيلة السندات التأسيسية ومعظمهم من اليهود فى العالم ، كما يصبح من سياسة الكثيرين من اصحاب المشروعات الذين يقتربون من هذه المؤسسات بالربا ان ينشروا فى المجتمع الانسانى حالة من الانهيار الخلقي ، ومن الترف ومن التفاهة ، تسمح بأن تروج فيه . مشروعات الترفيه الجنى فى شتى صوره » (٢٦) .

وهكذا تصبح صناعة الافلام المستهتره ، والحللات العامة التى تنتشر فيها الفساد ليلا ونهارا ، الى جانب الصحافة التى تدعو الى الفساد والرديلة والتى تهتم بأمور الفن والفسق والفنانين ، وتجارة الرقيق ، والخمر والمخدرات ، كما تصبح صناعة ادوات الترف وما وراءها . من تقاليد المجتمع المستهتر والحفلات والسهرات الى آخر مظاهر الانحلال والترف التى تقوم عليها مئات الصناعات فى العالم ، تصبح هذه كلها فى خدمة الرأسمالية ، ويكون لرأس المال فى هذه الانظمة القوة التوجيهية . لأنه هو وحده الذى يتحكم فى المجتمعات اللادينية ، فليس المال هو الذى يفسد المجتمع ، وانما المنهج والمذهب والنظام والتصور الذى يحكم مجتمعا من المجتمعات .

(٢٤) سورة الاسراء آية ١٦ .

(٢٥) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ١٠٠ .

(٢٦) المرجع السابق .

• الاحتكار كآثر من آثار الرأسمالية :

اساس الرأسمالية الاحتكار الذى نهى عنه الاسلام . فى اكثر من موضع وذلك لان فيه اهدارا لحرية التجارة والصناعة . فالمحتكر لم ينح لكل الناس أن يصنع صنيعة . فهو يتفرد بسلعة ، ينحكم فى السوق ، ويفرض مآشاء من الاسعار ويحدد الكمية المباعة ، ويقتل منافسيه ، فيكون سببا فى عدم تجويد السلع ومحو مبدأ تكافؤ الفرص بين الأفراد . ونكليف الناس فوق طاقتهم ، وقد يضطر المحتكر لى يفرض السعر الذى يريد الى اعدام كميات كبيرة من السلع يحتاج اليها الناس ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجالب مرزوق . والمحتكر ملعون » وقوله « من احتكر فهو خاطيء » وقوله عليه السلام « من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منه » فالاحتكار له اضرار جمة نطغى على بعض الفوائد التى يذكرها له بعض الاقتصاديين (٢٧) .

قال الله تعالى « ولا تاكلوا أموالكم بينكم بباطل وتدلوا بها الى الحكام لتاكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » (٢٨) .

الليبرالية التقدمية

الليبرالية لفظ له اكثر من مدلول فى اللغات الأوربية ومن هنا كانت الصعوبة فى وضع تعريف . نطغى جامع يحدد مدلولها بدقة .

حتى اشتقاق كلمة ليبرالى نفسها اختلفوا فيها : هل هى مأخوذة من كلمة « ليبرنى » التى معناها الحرية . او من اصل اسباني .

وعلى أى حال فان الليبرالية التى شاعت فى بلادنا العربية هى الليبرالية الانجليزية وهى ترتكز على مفهوم التحرر من تدخل الدولة فى تصرفات الأفراد . سواء أكان هذا فى السلوك الشخصى للفرد أم فى حقوقه الطبيعية أم فى نشاطه الاقتصادى « أخذا بمبدأ دعه يعمل

(٢٧) على عوض « الاقتصاد فى ضوء الاسلام » ص ١٢٨ .

(٢٨) سورة البقرة آية ١٨٨ .

ودعه يمر « Laisse Faire - Laisse Passé (٢٩) والظواهر من تاريخ الليبرالية : انها كانت رد فعل لتسلط الكنيسة والاقطاع في العصور الوسطى بأوروبا ، مما أدى الى انتفاضة الشعب وثورة الجماهير ، وبخاصة الطبقة الوسطى والمناداة بالحرية والاخاء والمساواة كما وضع ذلك في الثورة الفرنسية .

والمعروف ان البلاد العربية الاسلامية قد تعرضت لموجات الاستعمار كما ذكرنا آنفا : لذلك بدا هذا الاستعمار يتلاعب بمصائر هذه الشعوب ، ويختار حكامها أو يوجههم ، ويدير دفة الأمور .

ولهذا سار الحكم في هذه البلاد في الاتجاه الليبرالي الديمقراطي الراسمالي الغربي ، الذي يؤيده الاستعمار المتسلط ، كما تؤيده جمهرة المثقفين الذين تعلموا على يديه ، والذين رأوا ان هذا النظام الجديد يحمل معاني التقدم والحرية والتطور والتجدد ويقاوم الجهل والجمود ، والتخلف والاستبداد ، الذي اتسمت به عصور الانحطاط السابقة (٣٠)

ولم ينح لهم من العلم النافع ما يعرفون به حقيقة دينهم « الاسلام » الذي يؤمنون به اعتقادا ويجهلون شريعة ونظاما ، وفلسفة وحضارة ، كما لم يكون لديهم من دوافع الرغبة في معرفته ما يجعلهم يطلبون العلم عند اهل العارفين به وقليل ما هم .

ومن اهم مظاهر هذه الحركة الليبرالية التقدمية في بلادنا الاسلامية هو تشجيع الاتليبية والعنصرية ، والبعد بالمسلمين عن الوحدة والاتحاد ، وغرس روح الانفرادية . فأصبح العداء بين الشعوب بعضها وبعض واضحا ، بل بين ابناء الوطن الواحد أكثر وضوحا .

وقد قرر القرآن الكريم والسنة الشريفة ان المسلمين امة واحدة « يسمى بذمتهم ادناهم وهم يد على من سواهم » ومن لم يصبح ناصحا — اي مخلصا بارا — لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم فليس منهم »

(٢٩) موريس كرانستون « المصطلحات السياسية » ص ٤٦ .

(٣٠) يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة » ص ٤٩ .

ولكن النزعة الوطنية والقومية جعلت المسلم يفكر في وطنه قبل عقيدته . ويقدم الكافر اذا كان من عنصره أو وطنه على المسلم من عنصر آخر أو في بلد آخر ؛ ويسمى هذا اجنبيا ويعامله معاملة الأجانب (٢١) .

ومما هو معروف « ان الغرب يوم استضعف الأمة الإسلامية في أفريقيا وآسيا منذ القرن التاسع عشر ؛ وبدأ عصر الصناعة الحديثة دخل ديارها بجنوده واحتكر ثرواتها لمصالح مصانعه برؤوس أمواله . وسخر أنباءها في خدمة الاقتصاد الأوربي بنفوذ السياسي . ثم أرسى قواعد نظامه الإداري والسياسي وثبت نظامه الاقتصادي الرأسمالي . وطرد القيم الأصلية للمجتمع ، واستبدل بها النظام العلماني في التعليم ، ونظريات الفقه الأوربي في التشريع ، وقيم التبعية للغرب في التوجيه . ولقد وصل الوضع في كل مجتمع إسلامي أفريقي أو آسيوي استعمره الغرب الأوربي لمصالح صناعته ورؤوس أمواله إلى تمكين الأجانب من اغتصاب الثروة القومية بمساعدة القوة العسكرية وعلى الإخص مصادر الثروة المدنية والأراضي الزراعية الجيدة والمرافق الحيوية العامة ، وتسخير المسلمين في تنمية رؤوس الأموال الأجنبية بدون مقابل أو مقابل أجور زهيدة ، واستنزاف الدخل القومي باحتكار التجارة الخارجية في المحاصيل الرئيسية والسلع المصنعة للاستهلاك الضري . ورهن الأراضي والأموال العقارية بالفائدة المركبة وإقامة البنوك ليعسر الحوالات المالية وإعادة نقل رؤوس الأموال إلى الخارج من غائض العائد الوهمي لخدمة البناء الأوربي ، على حساب افتتار الشعوب الإسلامية من ثرواتها الخاصة ، وطاقات أبنائها البشرية ؛ وطالما أن عمليات التصدير والاستيراد تساعد على انجاز البنوك ، فهي ثغرة واسعة لتفريب الأموال أو إعادة ماورد منها وأرباح البائتي من ثمرتها وعائدها ، ولقد كان القطاع الاقتصادي في المجتمع الإسلامي المستعمر ، هو القطاع السري المفلق الذي لايدخله الوطنيون ، إلا لاداء خدمات محدودة ، وفي غالب الأحيان تكون خدمات اضافية ، والوطن في هذا القطاع كان الثروة والمجهود البشري

(١١) يوسف القرضاوي « الحلول المسنودة » ص ٦٣ .

فى العمل والعائد منه كان الفقر والمذلة على المواطنين « (٣٢) .

وقد كان لهذه الأفكار الليبرالية اثرها الهدام على الناحية الاجتماعية للشعوب الاسلامية فقد اصبح الأغنياء — نتيجة للتخلى عن الاسلام ودخول الأفكار والنظريات الغربية الى العالم الاسلامى — طبقة تتوارث الغنى والثروة . كما جعل من الفقراء طبقة تتوارث البؤس والشقاء ، أولئك كتب لهم ان يعيشوا فى حياة الترف ناعمين وهؤلاء كتب عليهم ان يعيشوا فى اكواخ الحرمان لاهئين ، وكان هذا الترف فى جانب الاقلية العاطلة ، والحرمان فى جانب الاكثرية العاملة ، نذيرا بانتهيار المجتمع واشرافه على حاوية الهلاك والدمار ، وصدق الله العظيم اذ يقول « واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسدوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٣٣) .

ولا عجب ان شاع شرب الخمر ، ولعب الميسر ، واصبح فى المجتمع الاسلامى حانات واندية يمارس فيها هذا الرجس من عمل الشيطان .

ولا غرابة كذلك اذا شاعت الفاحشة وانتشر وباء الزنى سرا وعلانية وصار فى بلاد الاسلام مراقص وكباريهات قائمة لتسهيل العبث والفجور ، وعملت المؤسسات المشبوهة المخربة عملها فى التهوين من فضيلة العفاف ، وفى التحريض على التحلل من عرا الأخلاق ، وفى تيسير كل السبل للشهوات والغرائز الحيوانية ، ومستخدمت كل الوسائل من الصورة والخبر ، والاغنية والقصص والتمثيلية والزى المفترى والسهرات المختلطة .. الخ (٣٤) .

والحقيقة ان موضوع المرأة كان من أهم الموضوعات التى تأثر بها المجتمع الاسلامى امام الغزو الغربى . يقول « جان بول رو » فى كتابه « الاسلام فى الغرب » :

« ان التأثير الغربى الذى يظهر فى كل المجالات ويقلب ، رأسا على عقب ، المجتمع الاسلامى لا يبدو فى جلاء أفضل مما يبدو فى تحرر المرأة » .

(٣٢) محمد البهى « الاسلام فى الواقع الايديولوجى المعاصر » ص ١٧٠ — ١٧١ .
(٣٣) سورة الاسراء آية ١٦ .
(٣٤) يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة » ص ٧١ .

والحقيقة التي لا بد من ذكرها أن النظريات التي سادت في المجتمعات الانسانية في القرن التاسع عشر — والتي اشرت اليها آنفا — مثل نظرية دارون وكارل ماركس وغيرهما اذا كانت قد اثرت على الانسان ، وعقيدته ، فلا بد انهما قد اثرت كذلك في النظرة الى المرأة وفي العلاقات بين الجنسين ، وعملت على تحطيم كل توائم الأخلاق ، واطلقت الجنسين في حيوانية مطلقة (٣٥) .

ولعل خروج المجتمع الغربي عن سلطان الكنيسة كان له اثر كذلك في اطلاق العنان لهذه المناسد الاخلاقية ، ولعمليات الاختلاط بين الجنسين ، والحريات المفرطة ، وما أدت اليه من انصراف الى الجنس ، والتركيز على هذا الموضوع سواء بالنواحي الاعلامية من صحافة ، وإذاعة ، وتليفزيون ، رسيما ، وقصص وروايات سوداء شهيرة . أو بإطلاق الحرية الى أبعد الحدود حتى صار الفتى والفتاة حين ينطلقان مع شهوة الجسد . لا يحسن من منهما انه قد أتى منكرا . يحاسبه عليه احد ، لا ضميره ، ولا المجتمع ولا الدولة والدين (٣٦) .

وهذه الأفكار للغريبة « الليبرالية » التي طغت على المجتمع الاسلامي ، خاصة ، مليخص العلاقة بين الجنسين ، قد جعلت الانسان ينزلق الى الدرك الأسفل بانسانيته الى اننى المستويات . . . في حين أن الاسلام يعترف بالطاقة الجنسية من حيث المبدأ أصرح اعتراف يمكن أن تصبو اليه الانسانية ، ولكنه لا يعترف بها ضرورة هابطة ، بل على العكس من ذلك يزفعها ويطهرها ، ويسلط عليها النور .

ويتصور الاسلام وجود علاقة بين الرجل والمرأة على انه الشيء الطبيعي الذي ينبغي ان يكون ، فهو يقرر أن الله جعل في قلب كل منهما هوى للآخر وميلا . يقول القرآن « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتستكوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (٣٧) ولكنه يذكرهما بانهما يلتقيان لهدف حفظ النسل وتلك حقيقة لا احسبها موضوع

(٣٥) سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة » ص ٧٥ .

(٣٦) محمد قطب « الانسان بين المادية والاشلام » ص ١٧٦ .

(٣٧) سورة الروم آية ٢١ .

جدال ، فمن المسلم به لدى « العلم » أن للوظيفة الجنسية هدفا معلوما .
وليست هي هدفا في ذاتها . فنقول القرآن « نساؤكم حرث لكم » (٢٨)
فبحدد بذلك هدف العلاقة بين الجنسين بتلك الصورة الموحية ، صورة
الأرض التي تحرث لوضع البذرة وتعهدها حتى تنبت ، وتأتي بثمرة جديدة
من نفس النوع (٣٩) .

وبهذه الصورة الموحية يتبين رأى الاسلام منذ البدء فهو يرى ان
للشهوة هدفا محددًا ، ولا يوافق على أن ارضاء الشهوة هو في ذاته الاول
والآخر .

آثار الحضارة المادية

على عقائد المسلمين

ان المشكلات التي واجهت المسلمين ، وواجهت حضارتهم لم تقف
عند حد مآذكرناه من ذبوع نظريات ، وافكار ومبادئ هدامة ، عملت على
هدم الانسان عن طريق هدم اخلاقه ، وعقيدته ، وفكره ، ومحاولة تحريك
شهوآته وابعاده عن الدين .

ليس هذا فقط ، ولكن استكمالا لهذه السياسة المادية البحتة ،
لقد عمل الغرب على تشجيع اناس خارجين عن الدين على ان يقوموا
بحركات تحمل اسم الدين — والدين منها براء — من أجل محاربة الاسلام ،
والتشكيك فيه ، والتهوين من أمر العقيدة لدى الأفراد .

ولذلك رأيت استكمالا لهذا الموضوع الا اختتمه دون أن أعرض صورة
أو صورتين لهذه المساوئ والمشاكل التي صادفت الأمة الاسلامية من فعل
الغائير الغربي ، واخترت لذلك حركتى القاديائية التي نشأت في الهند ،
والبهائية التي عمت العالم الاسلامي أجمع .

(٣٨) سورة البقرة آية ٢٢٣ .

(٣٩) محمد قطب ، المرجع السابق ص ١٩٤ .

١ — القاديانية :

تنسب هذه الفرقة الى ميرزا غلام احمد القاديانى من قاديان باقليم البنجاب بالهند .

وترجع دعوة هذا الرجل الى التعاليم التى بثها من قبل فى هذا الاقليم السيد احمد خان بهادور الذى كان عميلا للانجليز هناك ، وعمل من قبل على تشجيع اقامتهم فى البلاد ، وتشجيع مخططاتهم من اجل القضاء على الاسلام والمسلمين بالهند ، وقد نادى هذا الرجل بدعوة تقديمية فى الهند — من اجل ارضاء الانجليز — فقال بأنه لاوجود الا للطبيعة ، وليس لهذا السكون اله حكيم ، وان جميع الانبياء كانوا طبيعيين لا يعتقدون بالاله الذى جاءت به الشرائع ، واخذ يغرى اينساء الاغنياء من الشهبان الطائشين (٤٠) .

فحركة احمد خان كانت تقوم على الافتتان بالعلم الطبيعى والحضارة الغربية المادية كما يفتتن فى عصرنا الحاضر بعض المفكرين بما يسمى «العلم» وبالمركبات الحضارية التى قامت عليه ، والافتتان بالعلم الطبيعى او بالطبيعة كما يقال يؤدى الى خفة وزن القيم الروحية والمثالية ، وهى القيم التى تقوم عليها رسالة الاديان السماوية التى ينادى بها الاسلام اوضح تمثيل (٤١) .

لذلك جاء غلام احمد بعد ذلك حاملا نفس مبادئ احمد خان ، وبدأ يعمل هو الآخر لخدمة المادية الغربية ، والامسكار الجديدة التقدمية التى ليس لها هدف الا هدم الاسلام .

ولكن غلام احمد حاول ان يتطور بدعوته عما قام به احمد خان من قبل ، وذكر ان عيسى عليه السلام بعد ان بعث من موته الظاهرى هاجر الى كشمير فى الهند لينشر تعاليم الانجيل فى البلاد ، وأنه توفى بعد ان بلغ من العمر ١٢٠ سنة ، وان قبره لم يزل موجودا هناك ويدعى ميرزا

(٤٠) محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث » ص ٣٩ .

(٤١) محمد البهى ، المرجع السابق ص ٤١ .

غلام أحمد أنه « المهدي » ويذكر أنه حل فيه عيسى ومحمد على السواء فهو نبي . ومع أنه لم يدع أنه عيسى بن مريم نفسه فقد ادعى أنه زميله في الرسالة (٤٢) وأعلن قدومه برسالة جديدة . بعد أن خالف الأولين والآخرين في أن محمدا خاتم النبيين .

وقد لقي النبي الهندي شريعة الجهاد في سبيل الله وشرائع أخرى كثيرة ، وذلك طبعا لحساب الاستعمار الانجليزي (٤٣) .

يقول الأستاذ المودودي :

« أول ما يميزهم عن المسلمين ويبعدهم عنهم هو ما جاءوا به من التفسير المبتدع « لختم النبوة » وقد خالفوا فيه تفسير جميع المسلمين المتفق عليه بينهم فما زال المسلمون يعتقدون منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ولا يزالون يعتقدون الى اليوم أن سيدنا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين فلا نبي ولا رسول بعده الى يوم القيامة ، وذلك هو المعنى الذي فهمه الصحابة رضوان الله عليهم جميعا من قول الله عز وجل في كتابه الكريم « ما كان محمدا ابا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٤٤) ، وهم الذين قاتلوا كل من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو المعنى الذي مازال المسلمون يفهمونه في جميع العصور المتعاقبة ، فلم يقبلوا من بين انفسهم رجلا ادعى النبوة أما القاديانيون فقد فسروا « خاتم النبيين » لأول مرة في تاريخ المسلمين بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء أي « طابعهم » فكل نبي يظهر الآن بعده تكون نبوته مطبوعا عليها بخاتم تصديقه صلى الله عليه وسلم « ومن أقوالهم « قال المسيح الموعود عليه السلام في خاتم النبيين: أن المراد به أنه لا يمكن أن تصدق الآن نبوة أي نبي من الأنبياء الا بخاتمته صلى الله عليه وسلم » وكما أن كل قرطاس لا يكون مصدقا مستندا الا

(٤٢) محمد الغزالي « دفاع عن العقيدة والشريعة » ص ٢٤٢ .

(٤٣) المرجع السابق .

(٤٤) سورة الأحزاب آية ٤٠ .

حين يطبع عليه بالخاتم فذلك كل نبوة لا تكون مطبوعا عليها بخاتم
وتصديقه صلى الله عليه وسلم تكون غير صحيحة (٤٥) .

ومن اقوالهم « ان جميع المسلمين الذين لم يشتركوا في مبلية
المسيح الموعود كفرون خارجون عن دائرة الاسلام ، ولو كانوا لم يسموا
باسم المسيح الموعود » (٤٦) .

يقول ابو الحسن الندوي « من كبار علماء الهند من يكتيب له عنوانه
« القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والاسلام » .

« قد تحقق علميا وتاريخيا ان القاديانية وليدة السياسة الانجليزية .
فقد اهم بريطانيا واقلتها حركة المجاهد الشهير السيد الامام « احمد بن
عرفان الشهيد » سنة ١٨٤١ م ، وكيف الهب شعلة الجهاد والفداء ، وبث
روح النخوة الاسلامية والحماسة الدينية في صدور المسلمين في الربع
الاول من القرن التاسع عشر المسيحي وكيف القف حوله وحول زعامته
آلاف المسلمين عانت منهم الحكومة الانجليزية في الهند مصاعب عظيمة ،
فكانوا موضع اهتمامها » .

ونال في موضع آخر :

« ان القاديانية تنشر في العالم الاسلامي الفوضى الفكرية ، وعدم
الثقة بمصادر الاسلام الصحيحة ومراجعته وسلفه ، وتقطع صلة هذه
الامة عن ماضيها وعن خير ايامها وافضل رجالها ، وتفتح باب الادعاء
والمتطفلين على مصراعيه وتسيء الظن بقوة الاسلام ، وحيويته وانتساجه
وتثييس المسلمين من مستقبلهم. » (٤٧) .

ويرى الدكتور محمد اقبال « ان القاديانية محاولة منظمة لتأسيس
طائفة جديدة على اساس نبوة منافسة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم » .

(٤٥) محمد الفزالي ، المرجع السابق ص ٢٤٣ نقلا عن ملفوفات
احمدية « بترتيب محمد منظور النهي القادياني » ص ٢٩٠ .
(٤٦) « ميرزا بشير الدين » مرآة الصدق ص ٢٥ .
(٤٧) محمد البهي « الفكر الاسلامي الحديث » ص ٤٥ - ٤٦ .

ويقول « ان كل مجتمع ينفصل عن الاسلام ، وله طابع دينى يقوم على اساس نبوة جديدة ، ويملن كثر جميع المسلمين الذين لا يصدقون بهذه النبوة المزعومة يجب ان ينظر اليها المسلمون كخطر جدى على سلامة الاسلام (٤٨) .

ومن هذه الفرقة الخارجة عن الدين . نرى كيف تمكن الانجليز من زعزعة العقيدة الاسلامية فى الهند ، وبث الفرقة بين المسلمين ، وتشكيكهم فى عقيدتهم ، واحلال نقائص الباطل ، محل مثل الحق .

البهائية

البابية او البهائية مذهب انتحلته رجل يدعى مرزا على محمد ولد فى ٢٠ اكتوبر من سنة ١٨١٩ م ، كان ابوه تاجرا فى بلدة شيراز جنوب ايران ، توفى والده وهو صغير فكفله خاله ، وقد تعلم القراءة اللاتقة به الى سن الخامسة عشرة ثم اشتغل بالتجارة وتزوج فى سن الثانية والعشرين .

وفى سن الخامسة والعشرين ادعى انه هو « المهدي المنتظر » ، ويرجع ذلك الى ان بلاد فارس كانت كلها تلهج بقرب ظهور المهدي . لذا سمي نفسه « بالباب » وتبعه اناس كثيرون الى ان قامت حكومة ايران بقتله فى ٩ يولية سنة ١٨٥٠ م (٤٩) .

بعد مرور تسعة عشرة سنة من وفاة الباب ظهر رجل من اتباعه والمؤمنين به يدعى مرزا حسين على ادعى : ان الباب ماكان الا مبشرا به ، وانه اى حسين على المذكور ليس نبيا ولا مهديا فقط ، بل هو مظهر الالهية التى تجلت وظهرت فى جميع الانبياء والمرسلين مثل آدم وذريته وبوذا وغيره ، فهو موسى وعيسى ومحمد وسمى نفسه بهاء الله ، وان

(٤٨) محمد الغزالي ، المرجع السابق ص ٢٥٢ .

(٤٩) عيسد العزيز نصحي « البهائيون من اخطر المعاول لهدم

الاسلام » ص ٩ .

مظهره سيتجلى ويظهر في خلفائه مثل ابنه البكر عباس المسمى عبدالبهاء ، وخليفة عباس وهو ابن بنته شوقي افندى (١٥٠) .

وقد بذل الغرب جهدا مكثفا في مساندة البهائيين كي يعطو صونهم وتتسع دائرتهم ، وذلك بعد ان طردتهم حكومة ايران لما قاموا به من اعمال وحشية في البلاد ضد مخالفيهم . فقام الغرب بمساعدتهم على ان يتخذوا من مدينة عكا بفلسطين وطننا لهم ، فبذلك زرعوهم في داخل جسد الامة الاسلامية ، خاصة وان البهائيين يذكرون انهم مسلمون ، وبذلك يفتنون المسلمين ، ويشككونهم في حقيقة دينهم ومبادئه .

يذكر محمد فاضل عن مظائع البابيين مايلي (٥١) « لما استفحز امر الباب وعلقت بقلوب الناس دعوته ، وصار اتباعه يعدون بالآلاف ، وبات همهم الاكبر ان ينصروا هذا البهتان وينشروه في سائر ارجاء الفرس بداوا تحقيق امانيتهم هذه ، بأن اوقعوا الرعب والفزع في القلوب ، فسكانوا يطلعون بوسائل شتى من الحيل والدسائس على سائر الناس وخباياهم من كان يؤمن بالطعن في معتقداتهم ، لم يلبثوا ان يقتلوه ، وتفشى منهم التعدي والغدر حتى كانوا يتشكلون بأشكال متعددة كالسائلين ونحوهم ليتمكنوا من الفتك بمن ظنوا به أو توهموا فيه ان يشير بسوء الى ديانتهم فسفكوا بذلك دماء كثيرة ، ماجنت ذنبا ولا جريرة ، الا ان آمنت بالله ، وكفرت بالطاغوت ، فهم في هذا الدور من مظائيعهم كانوا اشبه بالفداوية الذين اشتهر امرهم على عهد الفاطميين خلفاء مصر ، بل الفداوية كانوا خيرا منهم واخف وطأة .

ثم ثاروا على الحكومة وجهروا بدعوتهم على ملا من الاشهاد ، وزادوا فجورا على فجورهم ، وامتلاوا شرورا فوق شرورهم ، فسكانوا يمثلون بالناس تمثيلا فظيحا ، ويعذبونهم تعذيبا وخيما لا يرحمون صغرا لصغره ، ولا كبيرا لسكبه ، ولا امرأة لضعفها ، ولا جنينا في بطنها ، فالحلل سواء في نظرهم ماداموا لا يؤمنون ببيابهم ، فكانوا يسلون الالسنه

(٥٠) المرجع السابق .

(٥١) محمد فاضل « الحراب في صدر البهاء والباب » ص ١٨٨ .

وبسملون الميون ويسلخون الجلود ، ويكونون الجسوم ويشوهون الوجوه ،
يقطعون الأيدي والأرجل من خلاف ، ويبترون اثناء المراضع ، ويشقون بطون
الحوامل ويتلفون الأجنة على أطراف اسنة الى غير ذلك من ضروب التمثيل
وصنوف التعذيب » .

ودين البهائيين ينحصر فيها يأتي :

١ — ان جميع الأديان هي من الله الذي ظهر في الأنبياء كما تظهر
الشمس في المرأة ، وان جميع كتب هؤلاء الأنبياء لم يعثروها تحريف
او تبديل ، انها بشرت به « أي بالبهاء » .

٢ — ان جميع الأديان أصبحت لا تصلح لاصلاح العالم الآن فيقتضى انزال
دين جديد يوافق هذا العصر ، عصر التقدم المادي العظيم ، عصر
الاختراعات الجديدة ، ولذلك جاء « بهاء الله » هذا بدينه الجديد
الموافق لهذا العصر الجديد (٥٢) .

٣ — ان رسوم العبادات من صوم وصلاة أصبحت لا توافق الناس في هذا
العصر المادي ، فلتكن لهم صلاة ، وصيام آخران ، ثم غير نظام
السنة ، فجعلها تسعة عشر شهرا بدلا من اثني عشر شهرا ، وكل
شهر تسعة عشر يوما وسماها بأسماء أخرى مثل شهر البهاء والجلال
والعظمة الى آخره ، وسبى أيام الأسبوع بأسماء أخرى أيضا مثل
يوم النضال والعدل والاستجلال الى آخره (٥٣) .

ويزعم البهاء ان النقص في الدين الاسلامي ينحصر فيما يلي :

اولا : الدين الاسلامي يأمر بالحروب والدين البهائي يبطل الحروب ،
وهي دعوى كاذبة ، فان الدين الاسلامي دين السلام ، وابطال الحروب

(٥٢) عبد العزيز نصحي « البهائيون من اخطر المماسول لهدم
الاسلام » ص ١٠ .
(٥٣) المرجع السابق ، .

الآفى حالات الضرورة ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا امنوا نى
الاسلم كافة » (٥٤) .

٢ — يقولون ان الدين البهائى يمتاز عن الدين الاسلامى بالدعوة الى
تصبة امم وحكمة تحكم لمنع المشاحنات بين الدول ولتبع الحروب ، او
محاربة الدولة الباغية لمغالبتها وارغامها على السلام ، فتتقطع الحروب
من العالم .

فهل هذه افكار جديدة على الاسلام ؟ وقد قال الله تعالى « وان
طائفتان من المؤمنين اختلفتا فاصلحا بينهما ، فان بقت احدهما على
الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى حتى تنفى الى أمر الله » (٥٥) .

٣ — يقولون ان الدين البهائى ساوى بين الرجل والمرأة فى جميع
الحقوق الشرعية والسياسية والميراث ، فى حين الدين الاسلامى نافى
من هذه الوجهة .

كيف اذا يكون هذا الزعم البهائى ، فهو باطل كاذب لأن الدين
الاسلامى قد ساوى بين الرجل والمرأة فى جميع الحقوق المدنية والسياسية،
واذا فرق فى شىء فلاختلاف طبيعة المرأة عن طبيعة الرجل (٥٦) .

٤ — ان الدين البهائى يريد ان يساوى بين الأغنياء والفقراء حتى
لا يكون غنى مفرط أو فقر مدقع .

اين اذا الجديد فى ذلك لأن الدين الاسلامى هو الذى شرع التشريع
العادل الذى لايبقى معه فقر مطلقا .

٥ — ابطال الشرع البهائى تجارة الرقيق ، وأمر بعنقه ، ويقولون
ان الدين الاسلامى أباحه .

(٥٤) سورة البقرة آية ٢٠٨ .

(٥٥) سورة الحجرات آية ٩ .

(٥٦) أنظر عبد العزيز نصحي « البهائيون » ص ١٦ .

(م ١٦ — الاستشراق)

والحقيقة أن هذا كذب لأن الدين الاسلامى هو أول من حث على
إبطال الرقيق « وخفف وطأة الاسترقاق ، ورغب الناس فى إبطاله .

٦. — قول البهائيين أن العقوبات فى الدين الاسلامى لا يمكن تطبيقها
فى هذا العصر : عصر الرحمة والانسانية ، فلا يجوز قطع يد السارق أو
رجم الزانى ، ولذلك فإن الدين البهائى قرر عقوبات مالية مثل هذه
الذنوب (٥٧) .

٧. — يقول البهائيون : أن من ميزة دينهم جمع الناس على لغة
واحدة ، وجعلهم كأبناء طبقة واحدة ، ولكن الحقيقة أن الدين الاسلامى
سبقهم فى ذلك ، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس منا
من دعا الى عصبية » .

٨. — يقول البهائيون « أن العبادات فى الدين الاسلامى شاقة
ومرهقة ، ولا هوادة فيها أو يثيسر بخلاف الدين البهائى الذى فضل السعى
وراء العيش والكسب على هذه العبادات المرهقة .

كيف والاسلام يقول « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » (٥٨) .

وهن عقائد البهائيين :

يعتقد البهائيون بالتناسخ والحلول مما فيقولون أن الله حل فى
البهاء ، وأن روح البهاء انتقلت منه الى ابنه عبد البهاء ومنه الى ابن
بنته شوقى فماله البهائيين يسكن الأرض ، وله أن يزيد وينسخ فى الدين
البهائى ما يشاء أنه ولى الأمر ، وهذه القاعدة أخذوها من المسيحيين
الكاثوليك فى اعتقادهم أن الباب خليفة المسيح وله أن يزيد وينقص
فى الدين المسيحى (٥٩) .

والبابية على اختلاف فرقها ضرب واحد وتسيج غير مختلف ، أخذت
أصولها عن الباطنية الذين منهم الاسماعيلية والقرامطة والدروز ،

(٥٧) المرجع السابق ص ١٨ .

(٥٨) عبد العزيز نصحي ، المرجع السابق ص ٢٣ .

(٥٩) المرجع السابق .

والنصيرية ، مهى تؤله البشر وتأمر بعبادتهم ، وتفكر البعث والنشور والوعد والوعيد والجنة والنار والملائكة والجن ومعجزات الانبياء وتخصيم وتؤول ذلك تأويلاً تقبراً منه اللغة والدين كقولها ان احياء الموتى ليعيسى عليه السلام لم يكن على الصورة المغيومة من احيائه العظام النخرة ، والرفات الباليات ، بل المراد احياء النفوس من موت الجهل وبعثها من قبور النفي والضلال الى حظيرة المعرفة والهدى ونور الوحي والايمان ، وان عصا موسى عليه السلام لم تكن كذلك على ما يعتقد الناس من انقلابها حية تسعى ، بل هي عصا معنوية يراد بها الدين الذي بعث به موسى ليظهره على الدين كله (١٠) .

وتقول البهائية بصلب المسيح وتسلم بالوهيته ، وتقرر انه البهاء وان القيامة قد قامت بظهوره ، وظهور الباب وتحكم بنبوته بوذا وكشفوشيس وبرهمه وزرادشت .

وللبهائيين في مصر دعاة واتباع من فرقة المرزا عباس ينصبون للمؤمنين حياثل السكيد ويشككونهم في دينهم « ويورون عليهم الشبهات ، وبزخرفون لهم الأباطيل (١١) .

ومن العجيب ان ينقاد المسلم لهذه الأباطيل ، ويؤمن بما لم تقم عليه بينة من البينات ، وقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بضاء نقية ليلها كنهارها . قال عليه السلام « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لم تضلوا بعدى ، كتاب الله وسنتى » وقوله تعالى « ومن يرتدد منكم عن دينه فليهت وهو كاهن ، فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة . وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » (١٢) .

(١٠) محمد فاضل « الحراب في صدر البهاء » ص ٢٠ .

(١١) محمد فاضل ، المرجع السابق ص ٢١ .

(١٢) سورة آل عمران آية ٢٢ .

ومن المؤكد أن الذين عملوا على نشر هذه العقائد الهدامة بين صفوف المسلمين هم المغربيون الماديون الذين حاولوا هدم الاسلام من طريق هدم مبادئه ، فاذا نظرنا في مبادئ البهائيين نجد أنها جميعها تستط خرائض الاسلام ، وما اكده الاسلام من حقائق .

وقد قام عبد البهاء وهو « عباس بن حسين المرزا » بزيارات لمختلف انحاء اوربا مجد فيها الاستعمار والصهيونية ، ونشر في صحف هذه البلدان اجابات عن اسئلة كثيرة وجهت اليه ، ومجدت هذه الصحف البهائية لأنها تستهدف التقريب بين الشرق والغرب والعمل في سبيل أن يصبح العالم امة واحدة شعارها الحب والسلام ، فيطرب الغربيون وسواهم من عدو العرب والمسلمين ، لدعوة هذا الشرقي المسلم الكبير — كما يزعمون — ويكتبون عنه المقالات الحسان (٦٣) .

وفي خلال رحلته هذه قام بزيارة أمريكا . يقول ميرزا محمد مهدي خان (٦٤) « وقد كان سفره الى الاقطار الغربية بناء على دعوة الاحباء والقسوس والرؤساء الدينيين باصرار عظيم ، وحينما كان يخطب فيهم كان الجميع سواء من الاحباء والاغيار يستمعون لخطبته بغاية الفرح والانبساط والانشراح ويتلقون دروسه الغالية بالقبول والولع والانجذاب ولم يعترض منهم احد بل كانوا كلهم اذانا مصغية .

ومما يستحق الذكر أن احد الفلاسفة العظام المسدعو غامبرى ، قال يوما لحضرته « انى أنا غامبرى لم يكن لى جرة على نكر المسيح على كنائس اليهود باحترام ، ولكن انت بهذه الشجاعة ، وهذه القوة اثبتت في معبد اليهود أن المسيح كان كلمة الله وروح الله » .

(٦٣) عبد الرحمن الوكيل « البهائية » ص ١١٥ .

(٦٤) ميرزا محمد مهدي خان « مفتاح باب الابولب » ص ٥ .

وبمثل هذه السياسة ، والمحبة عبر الاجانب عن محبتهم وتشجيعهم لعبد البهاء الذى كان حليفا قويا لهم ، وقد ظهر هذا واضحا اثناء الحرب العالمية الاولى : فقد كان عبد البهاء يدمر القوى المعنوية ، ويثير بتقرب النجاة والخلاص — على يد الحلفاء — من طغيان الترك .

وعندما دق الجنرال اللنبي ابواب فلسطين بجيوش الحلفاء كان عبد البهاء فى منتهى الفرح والسعادة ، وعندما سقطت حيفا عبرت البهائية من فرحتها بقولها « وكان الابتهاج عظيما عندما استولت الجنود البريطانية والهندية عليها » (٦٥) .

فمن ذلك ترى ان الغرب حاول تحطيم الاسلام بثتى الوسائل والصور بالافكار الهدامة ، والنظريات العقائدية التى عملت على تحطيم نفوس الشباب ، وضباعهم ، دينيا وفكريا ونفسيا . ذلك ماتنا لابد ان نأخذ حذرنا من كل مانقرا وما نسمع وما ترى ، وأن نكون جنودا مسلمين مهتمنا الدفاع عن ديننا الحنيف ، ومجتمعنا الاسلامى ، وحضارتنا الاسلامية التى ستكون باذن الله شعلة مضيئة لن تنطفئ ، مادام كتاب الله هو كتابنا والاسلام ديننا .

ولابد ان أختتم هذا الموضوع ببعض محاولات للإصلاح عليها تجنبنا الزلل ، وتحميننا من الأفكار التى تدعى صفة التقديسية ، والتى تدعى صفة التحرر ، فنحن فى غنى عن أى فكر مستورد لأن دين الاسلام دستور مكتمل البنود والنصوص .

آراء فلاصلاح :

١ — التمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

٢ — تدريب الأفراد على السلوك الدينى والتربية الصحيحة التى نرفع
المستوى النفسى والاجتماعى للفرد وتحوله الى صاحب مبادئ ومثل
عليا يعيش لها ويضحى من أجلها .

٣ — ان يصحب برامج التعليم برامج للتربية الاسلامية لتشرف على
السلوك الفردى والجماعى ، وتجعل الحياة الخاصة والعامة
محكومة بأداب الاسلام وتوجيهاته .

٤ — تدريس الوظائف التربوية للبيت المسلم حتى نستطيع تخريج اجيال
تعرف ربها ودينها ومعاشها ، ومعادها على قواعد مدروسة
مفروسة فى الدم .

٥ — الربط ما بين البيت المسلم وقضايا المجتمع الكبرى حتى لا يحيا بيت
فى جو منافعه الخاصة جاهلا او جاحدا ما وراءها ، ولو ان كل دولة
مسلمة انشأت وزارة للأسرة والشباب لضمنت هذا الارتباط .

٦ — ابطال العادات التى أخذ بها المسلمون فى تقاليد الزواج من مغالاة
فى المهور واسراف فى الحفلات العامة وتكديس للأثاث وتنافس فى
الكماليات ، واعادة الزواج الى معناه السهل القديم ليكون عصمة
وساجا للدين والدنيا .

٧ — توثيق الصلة بين المرأة وبينابيع الثقافة الدينية والمدنية .

٨ — اعادة الحياة للعلاقة بين النساء وبيوت الله فى الصلوات .

هذه بعض محاولات الإصلاح التى لا تتأتى الا بعقد خلق مجتمع
اسلامى بمعنى الكلمة لأن الكتيب والخطب واملام الدعاية والبعثات التبشيرية
الاسلامية ، لن تفلح فى الدعاية للاسلام بدون وجود مجتمع يعيش على
نهج الاسلام وتتمثل فيه خصائص هذا النهج ، وتنبئ فيه صورة الحياة
فى الاسلام .

ان كيفية قيام المجتمع الاسلامى لايتأتى الا اذا ارتفعنا بتصوراتنا .
وافكارنا وأخلاقنا وسلوكنا وواقعنا الحضارى الى مستوى الاسلام . كما
يجب ان تبدأ الشعوب الاسلامية نهضة صحيحة تكون امتدادا لتاريخها
وابرازاً لشخصيتها ، ولا يعنى هذا عدم الاستفادة من تجارب الآخرين
ومعارفهم ، كلا ، فللاستفادة والاتصال والتجارب العملية مطلوبة فننتفع
بترات التقدم الصناعى . وننتفع من خبرات غيرنا فى آفاق الحياة العامة .
وفى إطار صلب من شرائعنا وشعائرننا .

والله من وراء القصد وهو ولى التوفيق .

د . عفاف صبرة

قائمة المصادر والمراجع

- ١ — إبراهيم خليل أحمد « المستشرقون والمبشرون في العالم الإسلامي »
القاهرة سنة ١٩٦٤ م.
- ٢ — إبراهيم عبد المجيد اللبان « المستشرقون والإسلام »
القاهرة سنة ١٩٧٠ م.
- ٣ — ابن الأثير « على أحمد بن أبي السكرم » ت ٦٣٠ هـ.
« الكابل في التسارينخ »
بيروت سنة ١٩٦٧ م.
- ٤ — ابن حزم « أبو محمد على بن أحمد » ت سنة ٤٥٦ هـ.
« جمهرة أنساب العرب » تحقيق ليفي برونسفال
القاهرة سنة ١٩٤٨ م.
- ٥ — ابن عبد البر « الحافظ يوسف بن عبد البر » ت سنة ٤٦٣ هـ.
« الدرر في اختصار المغازي والسير » تحقيق شوقي ضيف
القاهرة سنة ١٩٦٦ م.
- ٦ — ابن القيم الجوزية « أبو عبد الله محمد بن أبي بكر » سنة ٧٥١ هـ.
« الطرق الحكمية في السياسة الشرعية »
القاهرة سنة ١٩٥٢ م.
- ٧ — ابن كثير الدمشقي « عماد الدين أبو الفداء » ت ٧٧٤ هـ.
« البداية والنهاية »
بيروت سنة ١٩٧٧ م.
- ٨ — ابن ماجه « السنن » تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي
القاهرة سنة ١٩٥٢ م.
- ٩ — ابن هشام « أبي محمد عبد الملك بن هشام » ت سنة ٢١٣ هـ.
« السيرة النبوية » تحقيق فهمي السرجاني
القاهرة سنة ١٩٧٨ م.
- ١٠ — أبو داود السجستاني « سنن أبي داود » تحقيق محمد محسن الدين
القاهرة سنة ١٩٣٥ م.
- ١١ — أبو يوسف « القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم » ت سنة
١٨٢ هـ. « كتاب الخراج » تحقيق تقي الخطيب
القاهرة سنة ١٣٩٧ هـ.
- ١٢ — أحمد زكي « الرق في الإسلام »
القاهرة سنة ١٨٩٢ م.
- ١٣ — أحمد شلبي « مقارنة الأديان »
القاهرة سنة ١٩٧٣ م.

- ١٤ — أحمد غلوش « الخير والحياة »
القاهرة سنة ١٩٥٣ م .
- ١٥ — أحمد فائق رشيد « السكواكب الدرية في تاريخ ظهور الباطنية والبهائية » تأليف العلامة ميرزا عبد الحسن آواره
القاهرة سنة ١٩٢٤ م .
- ١٦ — أرنست رينان « دين الاسلام والعلم » تعريب على يوسف
القاهرة د.ت
- ١٧ — البائي الحلبي « الاسلام » مجموعة اساتذة د.ت .
- ١٨ — البخاري « محمد بن اسماعيل البخاري » ت ٢٥٦ هـ .
« صحيح البخاري بشرح الكرمانى »
القاهرة سنة ١٩٢٨ م .
- ١٩ — البيهقي « أبى بكر أحمد بن الحسين » « السنن الكبرى »
حيدر آباد سنة ١٣٤٤ هـ .
- ٢٠ — أولري « الفكر العربى ومكانه فى التاريخ » ترجمة تيلم حسان
وآخرون
القاهرة د.ت .
- ٢١ — توفيق سبع « قيم حضارية فى القرآن الكريم »
القاهرة سنة ١٩٧٢ م
- ٢٢ — توماس ارنولد « الدعوة الى الاسلام » تعريب حسن ابراهيم
حسن
القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
- ٢٣ — جمال الدين الفسدى « قصة الكون »
القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٢٤ — جوستاف لوبون « حضارة العرب » ترجمة عادل زعير
القاهرة سنة ١٩٥٦ م .
- ٢٥ — حسين الداغستانى « كتاب كشف الظلمه عن معتقدات الباطنية »
القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .
- ٢٦ — حسين الهراوى « المستشرقون والاسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
- ٢٧ — رضوان شافعى « التوثيق العلمى بين الحضارة والاسلام »
القاهرة سنة ١٩٢٥ م .
- ٢٨ — زكريا هاشم « المستشرقون والاسلام » المجلس الاعلى للثئون
الاسلامية
سنة ١٩٦٥ م .
- ٢٩ — سارتون جو رج « مقدمه لعلم التاريخ »
مترجم .

- ٣٠ — سارتون جورج « العلم القديم والمدنية الحديثة » ترجمة عبدالحميد صبره
قاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٣١ — سيد احمد « الاقتصاد فى ضوء الاسلام »
القاهرة سنة ١٩٥١ م
- ٣٢ — سيد قطب « الاسلام ومشكلات الحضارة »
القاهرة د.ت
- ٣٣ — سيد قطب « فى ظلال القرآن »
القاهرة ١٩٧٨ م .
- ٣٤ — الشاطبى أبى القاسم ابراهيم بن موسى اللخمي ت ٧٩٠ هـ
« الموافقات » ج ٢ — القاهرة د.ت
- ٣٥ — صلاح الدين المنجد « المجتمع الاسلامى »
بيروت سنة ١٩٦٩ م .
- ٣٦ — صلاح الدين المنجد « المنتقى من دراسات المستشرقين »
القاهرة سنة ١٩٥٥ م .
- ٣٧ — الطبرانى « الاوسط »
- ٣٨ — الطبرى « أبو جعفر محمد بن جرير » ت سنة ٣١٠ هـ .
« تاريخ الأمم والملوك » القاهرة سنة ١٩٦٣ م .
- ٣٩ — عائشة عبد الرحمن « المرأة المسلمة بين امس واليوم » سلسلة
الاسلام « نشر البابى الحلبي » د.ت
- ٤٠ — عباس العقاد « عقائد المفكرين »
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٤١ — عباس العقاد « مايقال عن الاسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- ٤٢ — عباس العقاد « حقائق الاسلام وابطايل خصومه »
القاهرة سنة ١٩٦٥ م .
- ٤٣ — عبد الجليل ثلبي « الاسلام والمستشرقون »
القاهرة سنة ١٩٧٧ م
- ٤٤ — عبد الرحمن الوكيل « البهائية »
القاهرة سنة ١٩٣١ م .
- ٤٥ — عبدالرزاق نوفل « الاسلام والعلم الحديث »
القاهرة سنة ١٩٥٨ م
- ٤٦ — عبد العزيز اسماعيل « الاسلام والطب الحديث »
القاهرة سنة ١٩٤٥ م .
- ٤٧ — عبد العزيز نصحي « البهائيون من اخطر المعاول لهدم الاسلام »
القاهرة د.ت
- ٤٨ — عبد الفتاح الديدى « فلسفة هيجل »
القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

- ٤١ — عبد الكريم الخطيب « الاسلام فى مواجهة الماديين والمحدثين »
— القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
- ٥٠ — عبد الوهاب عزام « الاسلام والعلم » — سلسلة الاسلام ، نشر
البسبى الطبى . د.ت
- ٥١ — عفيف طباره « روح الدين الاسلامى »
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٥٢ — على عبد الواحد وافي « نظام الاسرة فى الاسلام » سلسلة الاسلام
نشر البسبى الطبى . د.ت
- ٥٣ — على عبد الواحد وافي « حقوق الانسان فى الاسلام »
القاهرة د.ت
- ٥٤ — على عوض « الاقتصاد فى ضوء الاسلام »
القاهرة سنة ١٩٥١ م
- ٥٥ — عيسى عبده « وضع الربا فى بناء الاقتصاد القومى » محاضرات
الموسم الثقافى جامعة الأزهر ١٩٦٠ م .
- ٥٦ — فؤاد شبل « الدستور السوفيتى » .
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٥٧ — فيليب حتى « تاريخ العرب » .
مترجم — القاهرة سنة ١٩٤٨ م .
- ٥٨ — لين بول « العرب فى اسبانيا » .
ترجمة على الجارم .
القاهرة سنة ١٩٤٤ م .
- ٥٩ — الماوردى « أبو الحسن على بن محمد » ت سنة ٤٥٠ هـ .
القاهرة سنة ١٩٧٨ م .
- ٦٠ — مجمع البحوث الاسلامية « البابية او البهائية » — الأزهر
سنة ١٣٨٩ هـ .
- ٦١ — محاضرات الموسم الثقافى لجامعة الأزهر سنة ١٩٦٠ م .
- ٦٢ — محمد أبو زهره « الاسلام عقيدة وشريعة » سلسلة الاسلام .
نشر البسبى الطبى . د.ت
- ٦٣ — محمد أحمد باشميل « الاسلام ونظرية دارون »
بيروت سنة ١٩٦٨ م .
- ٦٤ — محمد البهى « الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار »
القاهرة سنة ١٩٧٥ م .
- ٦٥ — محمد البهى « تهافت الفكر المادى التاريخى »
القاهرة سنة ١٩٧٥ م .
- ٦٦ — محمد البهى « الاسلام فى الواقع الايدولوجى المعاصر » .
القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

- ٦٧ — محمد الفسوقي « الاسلام والمستشرقون » .
القاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- ٦٨ — محمد المدني « المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء »
القاهرة سنة ١٩٦٢ م .
- ٦٩ — محمد معروف الدواليبى « الاسلام امام الرأسمالية والماركسية »
القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- ٧٠ — محمد عبد الله العربى « الاقتصاد الاسلامى » — سلسلة
محاضرات الموسم الثقافى لجامعة الأزهر سنة ١٩٦١ م .
- ٧١ — محمد على « مولانا » « الاسلام والنظام الجديد »
بيروت سنة ١٩٤٦ م .
- ٧٢ — محمد الفزالى « الاسلام والأوضاع الاقتصادية »
القاهرة سنة ١٩٥٢ م .
- ٧١ — محمد الفزالى « الاسلام المفترى عليه أمام الرأسمالية والاشتراكية »
القاهرة سنة ١٩٥٣ م .
- ٧٤ — محمد الفزالى « تذايف الحق »
القاهرة سنة ١٩٧٥ م .
- ٧٥ — محمد الفزالى « دفاع عن العقيدة والشريعة »
القاهرة سنة ١٩٦١ م .
- ٧٦ — محمد غلاب « الاسلام من خلال مبادئه الأساسية »
القاهرة سنة ١٩٦١ م .
- ٧٧ — محمد غلاب « نظرات استشرائية » .
القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- ٧٨ — محمد فاضل « الحراب فى صدر الباب والبهاء »
القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ .
- ٧٩ — محمد قريد وجدى « دائرة معارف القرن العشرين » :
٨٠ — محمد فؤاد عبد الباقي « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم »
القاهرة سنة ١٩٣٨ م .
- ٨١ — محمد قطب « الانسان بين المادية والاسلام »
القاهرة سنة ١٩٧٨ م .
- ٨٢ — محمد لبيب البوهى « الوجودية والاسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٨٣ — محمود صيالب « الطب والأطباء »
القاهرة سنة ١٩٧٠ م .

- ٨٤ — محمود شلقوت « الاسلام عقيدة وشريعة »
القاهرة سنة ١٩٧٧م
- ٨٥ — محمود النواوى ، خفاجى « بين الشيوعية والاسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٠ م .
- ٨٦ — محيى الدين الالوانى « الاسلام وتطورات العالم » — القاهرة
سنة ١٩٥١ م .
- ٨٧ — مصطفى خالدى وآخر « التبشير والاستعمار »
بيروت سنة ١٩٧٠م
- ٨٨ — مصطفى السباعى « من روائع حضارتنا »
القاهرة سنة ١٩٥٨م
- ٨٩ — مصطفى السباعى « اشتراكية الاسلام »
القاهرة سنة ١٩٦٢م
- ٩٠ — مصطفى شبيب « للتكسياء ضد العرب »
القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
- ٩١ — منير البعلبكي « دفاع عن الاسلام » .
تأليف فانجليرى لورافيشيا
بيروت سنة ١٩٦٨ م .
- ٩٢ — مودودى « ابو الاعلى » « الاسلام فى مواجهة التحديات »
الكويت سنة ١٩٧١ م .
- ٩٣ — موريس كرانستون « المصطلحات السياسية » .
مترجم .
- ٩٤ — ميرزا بشير الدين « مرآة الصدق » .
القاهرة د.ت
- ٩٥ — ميرزا محمد مهدي خان « مفتاح باب الابواب »
القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .
- ٩٦ — نجيب العقيدى « المستشرقون »
القاهرة سنة ١٩٦٤ م .
- ٩٧ — نديم القيسرى « قصة الايمان » — القاهرة د.ت
- ٩٨ — يوسف القرضاوى « الحلول المستوردة »
بيروت سنة ١٩٧١ م .
- ٩٩ — يوسف القرضاوى ، وآخرون « الاسلام بين شبهات المضالين »
الأزهر سنة ١٩٦٠ م .

المراجع الأجنبية

- 1) — A. Carlel
The Herows and Hevows Warship.
London 1939.
- 2) — A. Guillaume.
The Legacy of Israel.
London 1953
- 3) — Finlay.
History of the Byzantine empire.
Oxford. 1877.
- 4) — Garriss on.
The marh af faith.
N.Y. 1967.
- 5) — Holm yard.
Chemistry to the time of Dalton.
London 1919.
- 6) — Iles Lictenstadter.
Islam modern age.
London 1963.
- 7) — Jessup H.H
Fifty three years in syria. 2. Vols
London 1910.
- 8) — M. Hart.
The too A Ran king of the most nfluntial persons in
history.
London 1978
- 9) — Moore.
A History of chemistry.
London. 1929.
- 10) — Roland. Oliver.
A short history of Africa
London 1958.
- 11) — Runciman.
A history of the crusades.
London 1967.

فهرس الموضوعات

٦ — ٣	مقدمة
٣٦ — ٧	الفصل الأول : التطور التاريخى لنشأة حركة الاستنار
١٧ — ٣٧	الفصل الثانى : الاستشراق والتبشير
٦٢ — ٤٩	الفصل الثالث : الاسلام وموقف المستشرقين منه
٧١ — ٦٣	هجوم المستشرقين على الاسلام
٧٤ — ٧١	موقف المستشرقين من السنة النبوية
٨٠ — ٧٤	الفقه الاسلامى والمستشرقون
٩٠ — ٨٠	المستشرقون وانتشار الاسلام
٩٧ — ٩١	الاسلام والتجديد
	الفصل الرابع : المستشرقون والنظم الاسلامية
١٠٨ — ١٠١	المستشرقون ونظم الحكم فى الاسلام
١٢٠ — ١٠٩	المستشرقين والنظم الاقتصادية فى الاسلام
١٥٣ — ١٢١	المستشرقون والنظم الاجتماعية فى الاسلام
١٦٢ — ١٥٦	الفصل الخامس : الاسلام والعلوم الحديثة
١٦٢ — ١٦٢	علم الجغرافيا الطبيعية
١٦٧ — ١٦٤	الاسلام وعلم الفلك
١٦٨ — ١٦٧	الاسلام وعلم النبات والحيوان
١٧٤ — ١٦٩	الاسلام وعلم الطب
١٧٦ — ١٧٤	الاسلام وعلم الكيمياء
	الفصل السادس : الاسلام ومشكلات الحضارة والمدنية
١٨٨ — ١٧٧	الحديثية
١٩٦ — ١٨٨	نظرية دارون -
١٩٨ — ١٩٦	نظرية فرويد وأثرها على الحضارة الانسانية
٢٠٢ — ١٩٨	ذبوع نظرية هيجل
٢٠٤ — ٢٠٢	الوجودية وأثرها على الحضارة الاسلامية
٢١٦ — ٢٠٤	الماركسية الشيوعية كمسكلة من مشكلات الحضارة
٢٢٩ — ٢١٧	الرأسمالية وأثرها على الحضارة الاسلامية
٢٣٤ — ٢٢٩	الليبرالية التقدمية
	آثار الحضارة المادية على عقائد المسلمين
٢٣٨ — ٢٣٥	القاديانية
٢٤٥ — ٢٣٨	البهائية
٢٤٧ — ٢٤٥	آراء للاصلاح

To: www.al-mostafa.com